

فهرست

كتاب حضارة الاسلام

فى

دار السلام

الرسالة الاولى (كتبت فى النهروان سنة ١٥٦ للهجرة)

الرسالة الثانية (كتبت فى بغداد سنة ١٥٧)

الرسالة الثالثة . (كتبت فى بغداد سنة ١٥٨)

الرسالة الرابعة (من بغداد سنة ١٦١ وكان الرحالة على أهبة السفر الى خراسان)

الرسالة الخامسة . (كتبت في بغداد سنة ١٨١ والحديث
فيها تابع لرسالة كتبت في خراسان ولم تطبع هنا)

الرسالة السادسة (كتبت في بغداد سنة ١٨٥)

الرسالة السابعة (كتبت فى بغداد سنة ١٨٥)

في كتاب الف ليلة وليلة وتعريبه عن الفارسية. وتصرّف النساخ به وانه من اظرف الكتب التى وضعت في غالب الدهر ٢٥٠

تدوين الاخبار وايام الناس . وفيه ان ايام العرب كانت محفوظة في الشعر أو متناقلة على الالسنة بطريق الاسناد الى ان تسطرت بالكتب في زمن الخلفاء ٢٦٠

الرسالة الثامنة (كتبت في بحر تونس سنة ١٨٦ بعد انصراف الرحالة من بلاد الروم)

رسالتي الى قيصر الروم . وفيه ذكر الطاف الرشيد الى قيصر الروم ٠ وان الرحالة هو الذي حملها اليه . وبلغه مايريد الرشيد من موافقته على بنى أمية لينتزع الاندلس من ايديهم ٢٦٥

المرور بالكوفة وبلاد الشام . وفيه ذكر مسير الرحالة الى الكوفة . وحب الكوفيين لاهل البيت. وشيء من محاسن الشام وانها بلاد مباركة من الله ولكن غلب على أهلها الشقاق فغلبهم الامم على مملكتهم ٢٧٠

وصف دمشق وانها بهجة البلدان . وفيه ان دمشق ماء ونماء ٠ وان أهلها أحسن الناس خلقا وخلقا. وذكر نتف من أخبار بنى أمية حدث بها الرحالة مغنية كانت للوليد بن يزيد ٢٧٥

جامع الوليد المعروف بالجامع الاموى . وفيه ان الوليد بن عبد الملك عوّض النصاري عن نصف الكنيسة التى كانت موضع هذا الجامع بعدة كنائس صالحهم عليها ٠ وانه استقدم لبنائه صناع الروم ٠ وأقام فيه العمدان المجزعة وصوّر على الحيطان المدن والاشجار والازهار ٠ واتخذ فيه قناديل الذهب وصيره نزهة العالم ٢٨٣

الرسالة التاسعة (كتبت في المشاعر المباركة سنة ١٨٦)



حاضر الإسلام

في

دار السلام

تأليف

جميل نخله المدور

طبعة ثانية

على نفقة جريدة المؤيد

﴿ مصر سنة ١٣٢٣ وسنة ١٩٠٥ بمطبعة المؤيد ﴾

الحمد لله

هذه رسائل وصفت فيها عصراً من عصور الاسلام قد أشرق به نور العلم . وجرت فيه أعمالٌ عظيمة قام بها رجالٌ كبراء ملأوا العالم بآثار جمالهم . وجعلت الكلام فيها لرحالةٍ فارسيّ طوّفتهُ معظم البلدان الاسلامية في المئة الثانية للهجرة . وطوّقتهُ مناصب الدولة برعاية البرامكة الى أن نكبهم الرشيد كما تراهُ في موضعه من الكتاب

فكان في النفس ومن عزم بعض خلاّني عليّ أن أبقي الحديث على لسانه الى خلافة المأمون لوصف ما هو حقيقٌ فيه بتجميل الاسلام من علمٍ وحلمٍ وعفاف . غير اني كنت أحرص على التاريخ من أن أدخل فيه حكايةً لا يحلي جيدها صواب . ولا يُرجع باسنادها الى كتاب . اذا أبقيتُ للفرس مراتبهم بدولة العباسيين بعد نكبة البرامكة . لاني أوجبت على نفسي أن أذكر الحقائق كما كانت واقتضى أن تكون . غير واصفٍ الاشياء الا بصوَرها ولا ممثّل الحوادث والاخبار الا بما كان معلقاً في الخواطر جارياً على أذهان أهل ذلك الزمان . ولذلك لما أتيت على الاسباب التي عظّمت المسلمين ونهضت بهم الى فتوح العالم أعرضتُ عن

ذكر ما دعاهم من بعد الى التوانى والانحطاط . كما انى وقفت فيما وصفت من علومهم على حدّ الخبر المجرّد من غير أن أتتبع في آدابهم آثار الحكمة التى اقتبسوها من يونان . ولا أن أتقصى الغاية التى وصلوا اليها من الفنون والصناعات لما لا يخفى من حدوث ذلك كله بعد الرحلة وما وجب عليّ في تأليفها من النظر الى عصر الرشيد لا الى مابعده من الايام

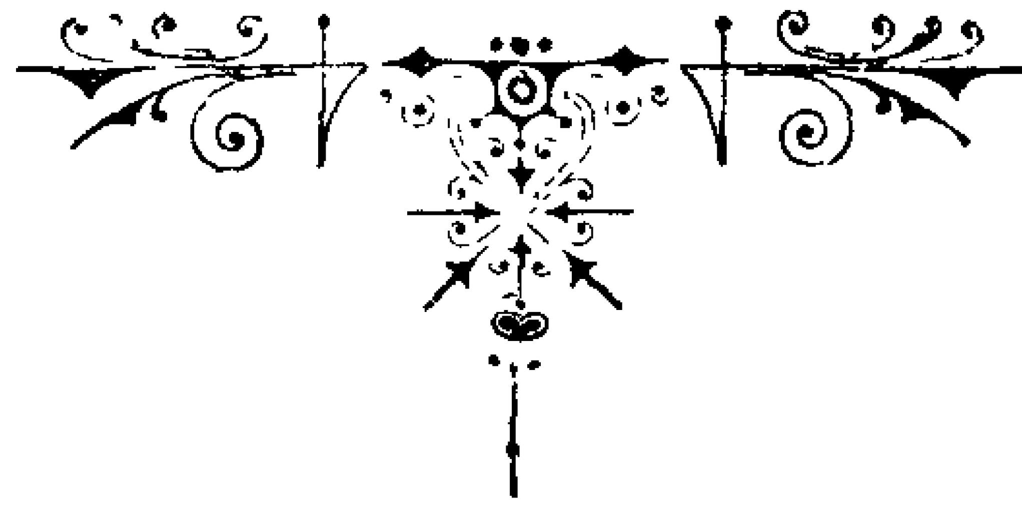
وقد اتخذت فى الكتاب شواهد الاسناد للدلالة على ما وقع في حديث الرحالة من الموافقة لما بين أيدينا من كتب الاقدمين . وانى لأرجو أن ينفع اخوانى بما أروم لهم من الخير . والله أسأل أن يرشدنى واياهم الى الصواب وهو حسبنا ونعم الوكيل

هذا نص ما كتبته في مقدمة الطبعة الاولى لهذا الكتاب وقد بدالى بعد ذلك ولبعض أفاضل المسلمين ضعف في بعض الروايات التى كنت عولت عليها وتحريف في ذكر بعض الوقائع الاسلامية يرجع عيبه الى السند الذى أخذت عنه فازم أن أرجع الى صفحات الكتاب بشيء من التهذيب والتنقيح وتبديل الروايات الضعيفة بما هو أصح وأثبت عند أئمة النقل وانى أشكر ادارة جريدة المؤيد الغراء التى ساعدتنى في مراجعاتى بما ورد فى هذه الرسائل من آداب الدين والملة قبل الشروع فى هذه الطبعة الجديدة . فكان من وراء ذلك تهذيب تكفل بزيادة قبول الكتاب عند خاصة المسلمين وعلمائهم ونفى عنه ما كان يؤخذ عليه من بعض الاسناد الضعيف .

***

فجاء الكتاب والحمد لله بعد هذا كله روضة المطالع . وعمدة العالم والمتعلم والمراجع . وصح أن يؤخذ للدرس . كما يقتنى لتنزيه النفس . وقد عقدت النية اجابة لرغبة علماء المسلمين ممن تفضلوا باستحسان هذا الكتاب على متابعة سرد التاريخ الاسلامى فى شكل هذه السلسلة من الروايات . وتنسيقها في مثل هذا السمط من درر الآيات البينات . والله يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا وهو ولى التوفيق والهادى الى أقوم طريق

جميل مدور



بسم الله الرحمن الرحيم

الرسالة الاولى

(قدومى الى العراق)

أتيت مدينة السلام في السنة السادسة والخمسين بعد المائة من هجرة النبيّ صلى الله عليه وسلم لأتخرّج في الفقه على لسان الشريعة يعقوب ابن ابراهيم بن خنيس الانصارى (١) وكان خليلا لأبي رحمه الله على صفاء بينهما لم يكن بين اثنين فركبت البحر من هرمز في ريح رخاء زجت مركبنا الى البحرين فأطراف العراق أهنأ تزجية فلما حاذينا الساحل مما يلي البصرة طلعت علينا ريح عاصف وانحدر بنا الموج الى منعرج في البر من البحر كله رمال ومهاوى ماء فبتنا ليلنا فيه على أشد مايكون من الخوف الى أن طلع الفجر فأقبلت علينا من صدر البحر سفينة حملتنا الى عبّادان وأرست بنا على مطلّ من خشبات تنتهى المراكب اليها ولا تتجاوزها خوفا من الجزر (٢) لئلا تلحق بالارض وتغوص في الطين الذى يأتى دجلة به (٣) في انسيابه وهذ البحر في

(١) هو أبو يوسف القاضى (٢) المسعودى ١ * ٥٠ (٣) تقويم البلدان ٣٠٩

مسامتة العراق شديد على السفر ولا يحمد منه الا عمران سواحله بالناس لما فيها من مغاصات (١) الدر والياقوت والعقيق والباديج وغير ذلك وهى باب واسع لطلاّب الرزق وللغواصين عليها أخبار غريبة فيما سمعت حتى قيل انهم يشقون آذانهم للتنفس ويجعلون في آنافهم القطن ويصطنعون وجوها من الذبل كالشاقيص ويدهنون أبدانهم بالسواد خوفاً من أن تبتلعهم دواب البحر ويصيحون عند الغوص مثل الكلاب لتنفيرها عنهم فاذا بلغوا القعر عصروا دهناً يضيء منه البحر ليروا الاصداف التى يتولد فيها اللؤلؤ وتكون مدفونة في أرض البحر رملا كانت أو طيناً . ومما يزعمون (٢) في هذا اللؤلؤ أن تولّده من مطر نيسان اذ تكون الصدفة مفتوحة على وجه الماء فتقع عليها القطرات فتتربى فيها درراً رائقة الصفاء

ولما أخذت نصيباً من الاستراحة انتقلت على سفين الى البصرة ونزلت بها في موضع (٣) يعرف بسكة بنى سمرة بازاء دار الهيثم بن معاوية أميرها . وقد طاب لي فيها المقام بما وجدت من ائتناس أهلها الى الغريب حتى ينسى في جوارهم أهله (٤) بما يأنس عندهم من مظاهر الانس والمودّة ووجدت لهم صبراً على طلب العلم يتخذون المكاتب (٥) لأولادهم وحلق العلم لأُدبائهم وتشد اليهم رحال الطلب من جميع الوجوه لان لهم من الأدب المكان الذى لا يرقى غير أنى لم أر فيهم الا

---

(١) ابن خرذاذبه ٦١ والمسعودى ١ *٥٢ (٢) الدميرى والقزوينى والقرمانى
(٣) ياقوت ١*٦٤٤ (٤) ابن بطوطة ٢* ١٠ (٥) الابشيهى ١*١٧٧

وهن البنية سقيمها وأصفر اللون كاسفه (١) وذلك ناشيء فيهم من عفونة الماء ووقوع إقليمهم في مهابّ الرياح المختلفة التى تتبدل في اليوم الواحد ألوانا وضروبا فيجبرون على لبس القمصان مرة والمبطنات أخرى ولذلك سميت مدينتهم بالرعناء أنشد الفرزدق (٢)

لولا أبو مالك المرجوّ نائله * ما كانت البصرة الرعناء لي وطنا

وقد لقيت فيها جماعة كثيرة من الادباء مثل عبد الكريم بن أبي العوجاء والمؤَرّج السدوسى الراوية والحسن بن هانىء الشاعر (٣) والنضر بن شميل تلميذ الخليل بن أحمد وواصل بن عطاء الذى اعتزل مجلس الحسن البصرى لمخالفة في المذهب ثم سمى الناس ممن ذهب مذهبه بالمعتزلة (٤) لذلك وشهدت حلقة عتبة النحوىّ وأبى زيد الانصاريّ ويونس النحويّ وله أعظم (٥) حلقة في البصرة من حلق علمائها وسمعت الحديث عن سفيان بن شعبة الثورىّ وشعبة بن الحجاج العتكى غير أنى مااصطفيت منهم لمحادثات الأدب الا الخليل بن أحمد لانى وجدته أوسعهم عقلاً (٦) وأحضرهم رويةً لا يساميه في علوّ الخاطر الاّ صالح بن عبدالقدّوس الشاعر ولكنى تحاميت مجلسه لما يتهم به من الانحراف عن السنة (٧) وان كنت لا أبخس عقله حقه من التعظيم . وقد سمعت أنه يجهد نفسه في طلب

(١) الاغانى ١٧*٧٨ (٢) ابن بطوطة ٢*١٦ (٣) هو أبو نواس ذكر الاغانى ٦*١٧٩ أنه كان مقيما بالبصرة في صباه (٤) المستطرف ١*١٢٦
(٥) العقد ٣*١٣٧ (٦) ابن خلكان ١*٢١١ (٧) الاغانى ١٣*١٥

الدنيا والتماس السعة منها ثم لايحصل على القليل الا بعد عصب الريق وفي قوله

لو يُرْزَقون الناسُ حسْبَ عقولهم * ألفيتَ أكثر من ترى يَصدَّق

اشارة الى ماهو فيه وأن النعمة واقعة الى غير أهلها بخلاف الخليل ابن أحمد فانه متقلل من الدنيا راض منها باليسير والملوك تبذل له المال (١) ولا يقبل منهم شيئاً مع مكانه من الحاجة اليه. وقد اشتهر فضله بين الناس بعلم العروض وضعه على دوائر خمس تتجزأ منها الابحر الخمسة عشر غيرأن سموّه في العلم لا ينفرد بأدب الشعر وحده اذ له في اللغة كتاب سماه العين وأودعه من عيون العلم (٢) ماهو زينة وفخر لدولة الاسلام

﴿ ذكر البصرة وأماكنها المشهورة ﴾

ولقد ظننت البصرة لاول وهلة أنها ليست بالمفرطة الكبر فلما طفت في ساحاتها. وتجولت في أرباضها ومحلاتها. بدالى أنها متسعة البقعة كثيرة العمران. قلّ أن يكون بها موضع غفلا من العمارة خلوا من السكان. ومبانيها على الغالب من اللبن الا ما كان من المسجد الجامع فانه مبنى بالصخر والجصّ على أتم احكام وأبدع صناعة وأول من بناه عتبة بن غزوان أقامه من القصباء لاجل أن ينزعه متى شاء ثم يعيد اقامته فلما جاء أبو موسى الاشعرى بناه باللبن وطلى جدرانه بالاصباغ. ثم

(١) الشريشى ٢*٢٦٨ والابشيهى ١*١٦٨ (٢) المقدمة ٢ ٥٠٢ وابن خلكان ١*٢٤٣

جاء زياد فزاد فيه السقيفة التي في مقدم المسجد (١) وحمل اليه العمدان المزخرفة من الاهواز ورفع جدرانه بالحجر والجص (٢) ثم لم تزل عناية الولاة به من بعده الى أن تمت زينته وكثرت له الوقوف الواسعة. وفيه اليوم قاض يفرض النفقات ويحكم في مائتى درهم وعشرين ديناراً فما دونها (٣) تخفيفاً عن الدواوين التى تنظر فيما هو فوق ذلك من قضايا الناس

ثم سرت من هذا الجامع الى مسجد عليّ عليه السلام واذا صحنه مفروش بالحصباء الحمراء وله أوقاف جزيلة مما وقف له الفرس ومن يقول بخلافة أهل البيت وهم يجتمعون فيه ويتبركون بمزاره كأنّ وعيد أبي جعفر لم يجد منهم نفوساً راجعة الى غرضه فيما أوجد من الفرقة بين العلويّة والعباسية. ووجدت في بعض مقاصيره مصحفاً عليه أثر دابغ مثل الدم الجاف يقال انه المصحف الذى كان يقرأ فيه عثمان حين قتل (٤) وبعد أن قضيت زيارته المباركة تجولت في أسواق المدينة فرأيت التجارة فيها على أحسن ما يكون من الرواج ولا غرو فان هى الا فرضة العراق والشام وخراسان وما اليها من البلدان العالية مما يكسبها حسن الموقع بحيث لا يصدر شيء من هذه البلدان ولا يرد اليها الا من البصرة (٥) ولذلك استفحل فيها العمران وكثرت بها المصانع والصنائع الى أن صارت واسطة العرب وقبّة الاسلام.

---

(١) الاغانى ١٧*٢٨ (٢) ياقوت ١*٦٤٢ (٣) الماوردى ١٢٣ (٤) ابن بطوطة ٢ * ١٠ (٥) المسعودى والقزوينى

ومما يذكر عن بنائها ماحدثني به الهيثم أميرها أن المسلمين افتقروا في صدر الدولة الى منزل ينزلون به واذا دهمهم عدوّ لجأوا اليه واعتصموا به فبعث عمر رضى الله عنه عتبة بن غزوان المقدم ذكره وأوعز اليه أن ارْتَدْ لناموضعا فى جهة العراق قريباً من المرعى والماء والمحتطب فكتب له من البصرة انى وجدت أرضا كثيرة القضة في طرف البر الى الريف ودونها مناقع فيهاماء وفيها قصباء (١) فكتب اليه عمر أن ينزلها بمن معه فوقع تمصيرها في السنة الخامسة عشرة من هجرة النبي صلى الله عليه وسلم.

ولما جلست الي الخليل العالم الامثل ودار بيننا الحديث على أيام الناس الأُوَل أخبرنى ان البصرة انما إختطها العرب نكاية بالفرس لتحويل التجارة من سواحلهم اليها وذلك أنهم لما صالت منهم الاجناد واتسعت بين أيديهم أحبوا أن يبنوا هذه المدينة فرضة لجميع المشرق ففشت العمارة فيها ببرهة يسيرة حتى غصّت بالناس على مارحبت أرجاؤها. يقال انه كان فيها من مقاتلة العرب لايام زياد ثمانون ألفاً (٢) وأخبرنى الهيثم أن أهلها يبلغون اليوم خمسمائةألف من الرجال بدليل المال الذى فرقه فيهم أبو جعفر وكان ألف ألف درهم ماأصاب الرأس منهم الا درهمين (٣)

وتبعد البصرة عن عبادان حيث الشاطئ نحو ساعة زمانية وعندها

(١) ياقوت وابن حوقل ١٥٩ (٢) ياقوت ١* ٦٤٤ (٣) الشريشي ٢*٤٣٧

تختلط مياه دجلة والفرات (١) وتصب فى البحر الملح بعدأن تفقدعذوبتها لان المد يأتى الى مافوق البصرة بأميال فاذا امتزج به ماء دجلة صار ملحا (٢) ولقد يخال الرائى لاول وقوع المد أن البلاد صارت غديرا كما وقع لحمزة بن عبد الله أمير البصرة لعهد ابن الزبير وقدركب يوما الى الفيض فقال ان هـذا الغدير ان رفقوا به يكفهم صيفتهم هذه فلما كان بعد ذلك ركب اليه فوافقه جازرا فقال قد رأيته ذات يوم فظننت أن لن يكفيهم فقال له الاحنف بن قيس أيها الامير ان هذا الماء يأتينا ثم يغيض عنا ثم يعود فخجل حمزة وعاب عليه الشعراء ذلك في أبيات لهم يعرفها عامة الناس .

ولقد تصفحت في البصرة كثيرا من قصورها المشرفة واستقريت أماكنها المشهورة بما وعيت عنها من الانباء وأحسن ما استظرفت منها قصر لمحمد بن سليمان الهاشمى (٣) وهو أوفر بنى العباس مالا وأعطاهم لشاعر نوالا تغل ضياعه كل يوم مائة ألف درهم (٤) وقد بناه على بعض الانهار واستفرغ في زينته جهده واتخذ في جنانه المهى والغزلان والنعام وأنواع السباع والطيور المغردة فجمع فيه محاسن الحضارة والبداوة وفيه يقول الشعراء .

زُرْ وادىَ القصر نعم القصر والوادى في منزل حاضر ان شئت أوبادى
ترقى به السفن والظلمان حاضرة والضب والنون والملاّح والحادى

(١) المقـدمة ٥٥ (٢) القزوينى والاصطخرى والمسـعودى (٣) ياقوت
(٤) المسعودى

الى آخر الابيات

وأما القصور التى بقيت بعد أربابها فانها لكثيرة في البصرة شاهدت منها قصراً لأوس بن ثعلبة(١) الذى ولى العراق وخراسان في دولة الامويين وهو قريب من المربد(٢) وعليه قباب مرفوعة يغص الجوّ بها صعودا ومن حوله خمائل رائقة كأنّ الايام تزيدها جدة ونضارة . وتلبسها من الخضرة حلة معطارة . ولله ابن أبي عيينة حيث يقول في وصفها هذه الابيات

بغرس كأبكار الجوارى وتربة كأن ثراها ماء ورد على مسك
يذكرنى الفردوس طوراً فأرعوى وطورا يواتينى الى القصف والهتك
وسرب من الغزلان يرتعن حوله كما استلّ منظوم من الدرّ من سلك
وورقاء تحكى الموصليّ اذا غدت بتغريدها أحبب بها وبمن تحكى
فياطيب ذاك القصر قصراً ونزهة بأفيح سهل غير وعر ولا ضنك

وشاهدت قصر الاحنف بن قيس (٣) المقدم ذكره في رحبة المنجاب(٤) وداراً لأنس بن مالك (٥) خادم النبي صلى الله عليه وسلم وايواناً للزبير ابن العوام (٦) تنزله التجار وأرباب الاموال وأصحاب الجهات من البحرين وغيرهم وآخر لعبيد الله بن زياد يسمى البيضاء (٧) وهو بمقربة من الموضع الذى خطب فيه أبوه خطبته البتراء(٨) التي أخذت بقلوب البصريين

---

(١) الاغانى ٣*٣٦ وياقوت (٢) الاغانى ١٣*١٠ (٣) الاغانى ١٧*٥٦ (٤) محلة ذكرها الاغانى ١٢*٦٣ (٥) ياقوت ٤*١٠٩ (٦) المقدمة ١٧٨ والمسعودى ١*٣٣٣ (٧) القزوينى ٢٠٦ (٨) سميت بذلك لانه لم يفتتحها بالحمد لله والثناء عليه

وقد تداعت جدرانه فلم يبق منه الا أثر دارس ورسم شاخص .

(العرب البادية ونتف من أخبارهم)

ولقد أتيت مربد البصرة عن طريق المهالبة (١) فسكة المربد (٢) فاذا هو ساحة كبيرة تنوخ فيها الجمال . وتحط بها الرحال . وتعلق فيها الاشعار التى يتناشدها العربان في أيام من الشهر معلومة يكون لهم بها مجالس ويبيعون ويشترون (٣) وهناك موضع يقال له شمس الوزانين وفيه مسجد صغير يعرف بمسجد الانصار (٤) قد طلي بالاصباغ ولم ترفع صوامعه الا قليلا ووجدت صحراء البصرة من وراء المربد وعرة مرملة لايغرد عليها طير ولا ينبت فيها شجر غير النخيل لفقدان الماء فيها وخيرات البصرة تردها من الأُبُلَّة وهى مدينة عامرة بالناس خصبة الجناب كريمة البقعة يشقها جدول من دجلة ولا تخترق أشعة الشمس أرضها لالتفاف شجرها بعضه على بعض وفي مرساها مجتمع كثير من مراكب الهند والصين لان الريح فيها واسع لاهل التجارة . وأما النخيل المتصل فيما بينها الى البصرة فأعلى الصحراء فانه كسب وافر للناس يقال ان ثمنه يعدل (٥) مايحمل الى بيت المال من كافة الاقاليم .

والى ماوراء المربد في ظاهر البصرة عربان من عامر (٦) وقيس

---

(١) الاتليدى ١٠٧ (٢) الاغانى ١٢*٦٤ (٣) تقويم البلدان ٣٠٩ والاغانى ٥٠٧ (٤) الاغانى ١٧*١٨ (٥) ياقوت ١*٦٥٠ (٦) فى الاغانى ٤*١٩٣ أن جماعة منهم نزلوا بظاهر البصرة قريباً من ذلك الوقت

عيلان كنت أختلف الى أحيائهم وأبيت ليالى عندهم وآكل من ثريدهم وأشرب من ألبان نوقهم وأجلس على الوبر والا نطاع . وأعى أحاديثهم باقبال واستمتاع . وأشهد حلق القصاص فيما يحدثون به من أيام العرب وأخبارهم فوجدتهم يتفاخرون بتأليف الخطب وقول الشعر والسيف والضيف ولا يهنؤن الا بغلام يُولد أو شاعر ينبغ فيهم أو فرس تنتج وعلمت من أخبارهم أنهم لا يأتون الفحشاء بل يعاقبون الزناة بالقتل (١) ولا يباشرون من النساء الا من حلت لهم من أهلها حتى لقد يكرهون تزويج اثنين قد انتشرت أخبارهما بالمحبة (٢) وذكر هؤلاء القصاص أن جميلا لما سأله خلانه أن ماعملت مع بثينة طول تلك الايام قال كنت أمتع عينى من وجهها وسمعى من حديثها ولم أمد اليها يداً غير مرة واحدة أخذت يدها ورفعتها الى صدرى لتشعر بخفقان قلبي (٣) وهذا خبر ينقلونه عن أكابر الرواة فأحببت أن أكتبه اليك ليدلك على ماوضعه الله في صدورهم من نبل الهمة وعفاف النفس .

وقد بقي في خاطرى ذكر عذب لاجتماعى بهؤلاء العربان وقد طاب لي الجلوس الى قيس عيلان أكثر منه الى بنى عامر لانى وجدت فيهم بياناً وفصاحةً (٤) غير انهم لم يلبثوا في البصرة الاَّ قليلا حتى شالت نعامتهم فصرت أتوجه الى بنى عامر وعرفت بالمقام بينهم كثيراً من خلال

---

(١) تزيين الاسواق (٢) الاغانى ١٢*١٠ وتزيين الاسواق ١*٦٤
(٣) تزيين الاسواق ٢*٩ (٤) الاغانى ٣*٥٣

العرب المحمودة وقد أعظمت رواج الادب بينهم والكتابة عندهم مفقودة (١) غير أنهم يجرون على قواعد اللغة في أشعارهم ومحاوراتهم بما ليس في الامكان أصح منه ولهم في كلامهم من الامثال الحكمية مالا نجده في كثير من أمم العلم والحضارة فيمرق الكلام من أفواههم مروق السهم من الوتر كما يقولون وهم أصح الناس أبدانا لأنَّ الظعن كفيل لهم بطيب الرياح التي لاتخبث الا مع القرار والسكنى وكثرة الفضلات (٢) ولأَن طعامهم اللبن والتمر والقليل من اللحم مع مايمارسون من الرياضة بعيد عن أن يجلب على أبدانهم العلل (٣) وأكثرهم من صلابة الجسم والنشاط بحيث يلحقون الخيل والحمر اوحشية عدْوا فلقد سمعت من يحدّث عن تأبّط شرا انه كان اذا جاع نظر في السهل الى الظباء فانتقى لنفسه أسمنها ثم يجرى خلفه فلا يفوته حتى يأخذه ويذبحه بسيفه (٤) وربما حدّث الرواة بكثير من أمثال هذا الخبر عن الشنفرى وعمر بن برّاق وغيرهما من العدّائين

---

(١) أى عند عربان البادية لانه يعرف ان المتمصرين كانوا يكتبون قديما بالحروف الفهلوية التى كانت تستعملها الفرس ثم صاروا يكتبون قبيل الرسالة بالحروف الحميرية الى أن استبدلوها بالكتابة الكوفية فى صدر الاسلام ويقال ان أيوب الصديق انما كتب حديثه بلسان العرب اه (٢) المسعودى والمقدمة (٣) قال في العقد الفريد لأمرما طالت أعمار الرهبان . وصحت أبدان العربان . وما لذلك علة الا التخفف من الزاد (٤) الاغانى ١٢*٤٩

ووجدت لهم من الصفات الحسان التي تحدثها فيهم شهامة النفس ماليس يجتمع في غيرهم من الامم اجتماعه فيهم بنفس كل أحد فهم يحمون الذمار . ويمنعون الجار . ولا يغمضون على الذل كما هو معروف عنهم في الاشعار . فلأن يموتوا قتلا تحت ظلال السيوف . أحب اليهم من البقاء في ربقة الذل والجنوف . يقول عمرو بن كلثوم من أصحاب المعلقات .

ذا ما الملك سام الناس خسفاً   أبينا أن نقر الخسف فينا

الى غير ذلك من الابيات المعروفة وهم يفون بالقول من غير أن يكتبوا على نفوسهم العهود ويأخذون بثأرهم أخذا شديدا وذلك ناشيء فيهم من بعدهم عن القضاء لانهم لو كانوا يعانون الاحكام لفسد البأس فيهم وذهبت المنعة منهم (١) ولكن ذلك قد يدعوهم الى التفانى على غير علة الا الحصول على الرخيص مما يبذلون في سبيله من النفيس كاثارتهم لاجل امرأة أو فرس أو بعير قتالا يستمر أعواما طوالا بين عشائرهم حتى اذا أراد الله تعالى أن يدركهم بلطفه الشامل نهاهم عن القتال في الاشهر الحرم فنقص فيهم من القتل ما يقع في أربعة شهور من القتال والله رؤوف بالمؤمنين وهو العليم الحكيم لا رب سواه .

وأكرم ما وجدت فيهم من المحامد الموصوفة الكرم والسماحة حتى انهم ليضيفون نزلاءهم ضيافة يوجبونها على أنفسهم ولو كان النزلاء قتلة آبائهم (٢) وربما توسعوا في أدب الضيافة الى أن يكون بهم بشاشة

(١) المقدمة ١٠٩ (٢) الاغانى والاتليدى

عند قدوم الضيف وغصة عند ارتحاله كما يقول عاصم بن وائل من شعرائهم

وانا لنقرى الضيف قبل نزوله　　ونشبعه بالبشر من وجه ضاحك

ولقد كنت أسمع عن كرمهم أحاديث لم أنقلها عن جانب الثقة والاعتبار . فلما نزلت بجوارهم تحققتها بالمشاهدة والاختبار . ووجدت أن كلهم كريم حتى لقد يكون السخاء تسعة فيهم وواحدا في الناس (١) ومن زعم ان حاتما الطائى أكرم العرب فقد ظلمهم جميعاً . وظنى بأخذهم فى هذه الضيافة الواجبة أنه أمر طبيعىّ عندهم لان الراحل منهم قد يفوّز في الفلاة أياما طوالا على جهد من العطش وسعار من الجوع فاذا انتهى الى خباء مضروب ورآه أهله بمكانه من العناء والاعياء قروه وعلفوا مطيّته وأوقدوا له نارا يصطلى بها من كَلَب البرد كما يقولون حتى اذا أصابهم في ظعنهم مثل هذا العنَت الشديد يتلقاهم أهل الخيام على السعة من الضيافة

قال حسان بن ثابت يتهلل بذكر المكرمات .

وانى لمعطٍ ما وجدت وقائل　　لموقد نارى ليلة الريح أوقِد

وكان الكرم ينتهى بهم الى أن يقوم لعشائرهم مناد في الاسواق ينادى في الناس هل من جائع فنطعمه أو خائف فنؤمنه أو راحل فنحمله . وهذا أحسن ما يكون من محامد النفس الكريمة . ولست أقول الا أنه كانت لهم فى مناقضة هذه المحاسن مساوٍ كثيرة في الجاهلية فلما نزل

---

(١) المحاضرة ٢*١٨١

كتاب الله روّض أخلاقهم المستهجنة وصرف عنهم المكروه من العادات فقد نقلت لاخبار السالفة انهم كانوا في جاهليتهم يتزوجون بنساء آبائهم (١) ويكرهون إماءهم على البغاء (٢) ويألفون غير ذلك من العوائد الخشنة التي ذهبت بمجيء الاسلام .

وانما اضطر العرب الى سكنى البادية وتخير بقاعها على الايام بحسب أحوالها من الصلاح لانهم وجدوا في قفار قد تراكمت عليها الرمال المحرقة وما كانت تنبت لهم حباً ولا بقلا وكانت آبارهم تغيض في حمارّة القيظ على بُعد قعرها فكانوا يظعنون لورود غيرها من المناهل في أصقاع يكون بها خضرة من الكلأ وتظهر للعين ما بين حولها من الرمال المنبسطة كأنها جزر في بحر تسير في مناحيه الجمال كما تسير السفن على ظهر الماء ولكن ليس ذلك الا القليل في جانب الكثير من رمالهم المحرقة . ثم ان الله تعالى أوجد لهم الابل (٣) والسائمة فكانوا يرتادون لها الماء فيما اتسع لهم من مجالات البادية فكان سكناهم في الوبر بما تقدم من الاسباب أمراً طبيعياً ولو أنهم نزلوا الامصار ورفعوا بيوتهم من الحجارة لما اتسعت من حولهم المزارع والمسارح لحيواناتهم (٤) فضلا عن كونهم يرون

(١) الاغانى ١*١٠ (٢) العقد الفريد ٣*٢ (٣) الابل سفين العربان وهم يغتذون بألبانها ويكتسون بأوبارها ويستدفئون بوقيد أبعارها وقد أوجد الله في قوائمها لينا فوق القدم يطوى على الرمل ولا يغرز فيه مثل حوافر الدواب ليكون لها اقتدار على طرق الرمال (٤) المقدمة ١٠٥

الابنيـة والتحويط حصرا لهمم الرجال (١) وحبسا لما فى الغرائز من حبّ الاستقلال . فهم لايصـبرون على الضيم والحرية عنـدهم أفضـل ماأعطاهم الله يبذلون نفوسهم ونفائسهم دون تقريرها لأنفسهم فانا لانجد في أحاديث النقلة أن أمة استعبدتهم فى غابر الدهر قط فهـذه الـكلدان والسريان واليونان والروم والفرس وآل ساسان قد ملـكوا العالم الا العربان وكان في نفس الاسكندر الرومىّ أن يدعوهم الى طاعتـه بعـد أن تمّ له الغَلَب على المشرق غير أن المنيّة عاجلته قبل الاقدام على هذا التغرير فرزق بموته سلامة من الاخفاق حتى لا يقال عنه وهو الملك المنصور انه توجهت عليه هزيمـة اذ لست أشك أنه لو أقـدم على العربان لما ثبت له جند عليهم فى تلك المجالات التى يتوغـلون فيها ويبيتون في أمن من العـدوّ وان كثر .

ولقد لقيت من هؤلاء العربان فتىً تلوح عليه النجابة والفطانة فذكرت له أن في لقائه الملوك سبيلا الى نوال العلى والمـكرمات فاخبرنى أنه نزل الزوراء لاول مابناها أبو جعفر ولـكن لم يمض الا القليل حتى ملّ العمران ومال به الشوق الي ربوع العربان · وأنشدنى وهو منصرف

لبيت تخفق الارواح فيه أحب اليَّ من قصر منيف
ولبس عباءة وتقر عينى أحب اليَّ من لبس الشفوف

والابيات لفتاة من العرب صارت الى معاوية بن أبى سـفيان ثم لم تطب

---

(١) المسعودى ١*٢٣٤

تفساً بالمقام عنده فرجعت الى البادية بعدما أنشأت الابيات التي أنشدنيها هذا الغلام . فسبحان من قسم المعايش بين الاجيال . وركّبَ في نفوسهم طباعاً على الاميال . لااله الا هو ذو الاكرام والجلال.

﴿ الانفصال عن البصرة ولمعة من أخبار الحجاج ﴾

كان مقامى في البصرة شهرا وثمانية أيام ولما طويت بساط الاقامة تهيأ لى أن أصعد على دجلة سفرا (١) يخفف عنى مشقة الركوب على ظهور المطايا فدفعت حمولى الى الربان وانفصلت عن البصرة لاول هدء من الليل حتى اذا طلع النهار كنا في متوسط بطاح مفروشة بالنخيل على مد البصر وفيها خيام لبطون من تميم (٢) وشيبان (٣) قد ضربوها على مرتفعات من ذلك السهل فكان نأملى بمنازلهم مع ما أعلمه من شدة تعلقهم بعيش البداوة يمثل لى من بعد ارتحالهم رفاقا لهم من الشعراء قد وقفوا بالعيس الى هذه الاطلال وبكوا عهوداً مضت لهم في زمان الانس ما بين هذه الربوع .

ولما كان بعد أيام طلعت علينا سموم يكاد يأخذحرها بالنفس وكدنا أن ننكص على الاعقاب لاختلاف الريح فرأى الربان أن ينزل الملاحون الى البر ويربطوا المركب بامراس يجرونها بها من عدوة النهر ريثما يحصل الفرج ومضى الليل كله من غير أن تكتحل عيناى بنوم من شدة الحر

---

(١) المسعودى ٢ * ٢٣٩ (٢) في الاغانى ٩ * ٧٨ أنهم كانوا يجتمعون بجوار البصرة (٣) تزيين الاسواق ٢ * ٧

الى أيام عشرة لم نزل بها في مغالبة الريح ومقاساة عنتها الشديد الى أن وصلنا الى مدينة واسط (١)

هذه المدينة في فضاء من الارض طيبة الاقليم والنسيم غير أن الحر غالب عليها لاقبال الرياح اليها من جهة الرمال المتراكبة على هضابها (٢) ومبانيها من الاحكام بمكان سام ولا سيما القصر الذى بناه الحجاج (٣) وهو باق الى زماننا هذا وهو سنة ست وخمسين بعد المائة والناس يسمونه الخضراء وله قبة مشهورة في مبانى الاسلام حتى قيل انه ما بنى لاحد قبل الحجاج مثلها (٤) وفيه أحواض كثيرة يرقى اليها ماء دجلة وأعظمها حوض من الرخام الاخضر فى مجلس به سرير مذهب (٥) يقال انه كان مقعدا للحجاج في مجالسه العامة وهذا القصر بهج مزخرف بأنواع الزينة لان النفقة عليه وعلى الجامع الذى بجواره بلغت نحوا من أربعين الف الف درهم (٦) ولكنه سمج في عينى بما ورد على خاطرى عند مرآه من قبائح الحجاج فكأنه بيت قد رفعت جدرانه على دعائم الظلم والاعتساف .

وبقيت في واسط ثلاثة أيام لاختلاف الريح ولكن على كره من النفس لانى كنت أراها بعين الماقت لها . ونزلت بها في فندق على شاطئ

(١) تقويم البلدان ٣٠٧ (٢) القزوينى ٣٢٠ (٣) المسعودى ٢ * ١٨٣ وهو يقول انه كان باقياً لايامه (٤) المسعودى ٢ * ١١٥ (٥) الابشيهى ١ * ٦٣ (٦) ياقوت ٤ * ٨٨٧

النهر حيث الجسر المقام من سفن وأمامه ساحة تباع فيها الخيول ويكون بها سوق في أيام معلومة من السنة يأتيها العربان بما يريدون بيعه من الخيل الجياد التي يحتفظون بها احتفاظ الآباء بالبنين (١) فانهم لا يتخلون عنها بالقليل ولا بالكثير من المال واذا سألتهم بيعها منك بأغلى الاثمان فأنت مردود في سؤلك يقولون لك هذه منجاتنا من العدوّ واذا أطلقنا لها العنان طبّقت الآفاق بأسرع من لمح البصر .

ولم تزل هذه السوق مقامة في واسط منذ بنيت الى هذه الغاية لانها كانت في أول هذه المائة من أعمر بلدان العراق بما خصها الله من خصب التربة وكثرة الخيرات فلما وقع بها الطاعون الجارف منذ أربعين سنة (٢) ونزلت بالناس السنون وأخذتهم المجاعات أتى عليها الخراب والانحلال وتجافي الناس عن سكناها بما توالى عليها من الفتن التى وقعت في صدر هذه الدولة الى أن استقر فيها السلم وبعُد عهدها من الوباء فسارع أرباب التجارة الى استيطانها لما يتسنّى لهم فيها من قرب المواصلة والمناولة الآن منها الى الزوراء خمسين فرسخا ومنها الى البصرة خمسين أيضاً ومنها الى الاهواز مثل ذلك وظنى أنها سميت بواسط لهذا السبب وهو توسطها في العراق .

وقد اتفق لى قبل الانفصال عنها أنى لقيت فيها شيخا كان أبوه خادما عند الحجاج حاسبه الله تعالى فحدثنى من أخباره بما تنفطر منه الافئدة

---

(١) تزيين الاسواق (٢) ابن الاثير ٥ * ٧١

رحمة لأهل البيت وأصحابهم لانه كان يقتل منهم جزافاً على التهمة الى أن بلغ عدد الذين قتلهم صبراً مائة ألف وعشرين ألفاً وكان في السجن عند ماأهلكه الله أكثر من خمسين ألفا يرسفون فى سلاسل الحديد ولا ذنب لهم الا حبهم لاهل البيت وكانت الناس لايامه اذا تلاقوا في المجالس والمساجد والاسواق يتساءلون من قتل البارحة ومن صلب ومن قطع وقد تفاحش ظلمه في الخراج بحيث ان الامراء بعده كانوا يستنكفون عن ولاية الخراج خوفا (١) من نقص الخراج اذا خففوا ضرائبه ومكوسه أو الاستمرار على ظلم الناس اذا راموا جباية ما كان يحمله الى الخليفة من المال (٢)

وقد رسم لى هذا الشيخ صورته بأنه كان قوىّ البنية مائلا الى السمن ولا يزال العرق متصببا على جبينه وصدغيه من تحت قلنسوة قد أحاطها

---

(١) ابن الاثير ٥*٩ (٢) كان ملوك بنى أمية يعرفون من الحجاج جوره واعتسافه ولكن لم يكن فى كنانتهم سهم أشد منه نكاية على العدو فلم يرق لهم استبداله بغيره وان ثقل أمره على الرعية . وفى مروج الذهب أنه لما وفد على الوليد بن عبد الملك كان عليه درع وكنانة وقوس عربية وقد تفضل الخليفة في غلالة فجاءت جارية وسارّت الوليد ومضت ثم عادت فسارّته ثم انصرفت فقال الوليد للحجاج أتدرى ماقالت هذه ياأبا محمد قال لاوالله قال بعثها الىّ ابنة عمى أم البنين تقول ما مجالستك لهذا الاعرابى المتسلح فى السلاح وأنت في غلالة فأرسلت اليها انه الحجاج فراعها ذلك وقالت والله ماأحب أن يخلو بك وقد قتل الخلق اهـ

بعمامة خضراء (١) وكانت له مهابة تقصم ظهر الوافد عليه . وكان شديد التهويل في خطبه واذا صعد المنبر تلفع بمطرفه ثم تكلم رويداً رويداً فلا يكاد يسمع حتى يتزايد في الكلام فيخرج يده من مطرفه ثم يزجر الزجرة فيقرع بها من في أقصى المسجد .

قال وكان يحدثني أبي أنه كان يجدلذة (٢) في سفك الدماء وارتكاب أمور لم يقدم عليها غيره ولم يسبقه اليها سواه ولما أرسله عبد الملك بن مروان الى العراق ليوطئ له المنابر خرج كميش الازار وغلب الناس بقوة الرجال لا بالسياسة والرأى لان جنوده كانوا من الشام (٣) وهم على غرض الامويين مخالفون لاهل البيت فلما أوجدهم بين أعدائهم لم ير منهم الا نفوساً مستقتلة راجعة الى رأيه في كل أمر ونهى فحملهم على منازلة مكة المكرمة من هذا الوجه ولم ينفك عن ضربها حتى استسلم اليه أهلها بعد أن تصدع جدار البيت الحرام فأقام ملك بنى أمية على هذا الظلم وقوّمه لهم خمسين سنة من بعده الى أن أراد الله بانقراض دولتهم في المشرق

هذا نتف يسير من أخبار هذا الظالم الغاشم وقد رأيت تناقل الحديث عنه في أفواه الواسطيين كتناقل الحديث فى مجالس البصريين عن زياد ابن أبيه وكلاهما قد أذاق العراق من الهوان والقهر مالم يسبق اليه أحد من البغاة الظالمين وهما وان كان لهما فضل في تدبير ماخولا من الولاية الأأن لزياد فضلا في بلاغة الكلام التى شهد له بها أكابر الرجال وضبطه

---

(١) العقد ٣*١١ (٢) المسعودى ٣*١٠٣ (٣) الكنز ٢٢٢

البلاد بأهل البلاد أنفسهم أعظم من فضل الحجاج الذى ماغلب العراقيين الا بأهل الشام وما قوّم ملكه الا بالسيف الباتر . والجبروت القاهر

﴿ المرور بمدائن كسرى أنوشروان ﴾

كان انفصالنا عن مدينة الحجاج في ليل رطيب قد انفتق سحابه عن القمر فقضينا جزأ كبيراً منه بالسمر حتى اذا اسفر الصباح كنا في محاذاة قصر يقال له الرمان (١) ومن حوله خيام مضروبة للعربان فوقع ذلك من نفسى موقع الاستعبار من الدنيا في نعيم الحضارة وشقاء البداوة اذ كانت الاضداد منها على هـذا الوجه قلَّما يقع عليها النظر في وقت واحد وكان يلوح لنا في صـدر السهل الى آخر النهار بناء عظيم أخبرت أنه من جملة المناظر التى أقامها الحجاج بينه وبين قزوين (٢) وهي اذ ذاك آخر الثغور حتى اذا ظهر فيها الخوارج دخّنت بالنهار فدخّنت المناظر كلها أو أوقدت بها في الليل نار فاستوقدت المناظر فيعلم ذلك .

ولم نزل نخترق عباب دجلة يوما بعد آخر حتى جزنا جبُّل والنعمانية ثم الماطر مما يلى كلواذا (٣) وأقبلنا على المدائن مع طلوع الفجر فنزلت الى البر أتفرج على الايوان الذى بناه كسرى أنوشروان . فاذا هو في غاية العظم ونهاية الاتقان . يبلغ طوله نحواً من مائة ذراع وعرضه نحواً من نصف ذلك وقدّرت في ارتفاعه أكثر من ثمانين ذراعاً وليس في مبانى

---

(١) ابن خلكان ١*٤٧١ وياقوت ٢*٨١٤ (٢) ياقوت ٤*٨٨٦

(٣) المسعودى ٢*٢٢٩

الآجر ماهو أبهى منه وقلّما يوجد فيه موضع غفلا من رسم أو نقش أو كتابة وهو يعدّ من العجائب ويشهد لما اقتدر عليه الفرس في عهود الاكاسرة الذين جبوا معظم الدنيا حتى صار يضرب المثل بما جمع من الضخامة والاحكام ولا يرى فيه اليوم من الآثار الجليلة الا صور آلهة جبابرة . وسباع كاسرة . ومشاهد حروب يفوز بها كسرى الخير أنو شروان (١) وأما آنية القصر وزخارفه المنقولة وما كان فيه من المتاع الثمين فقد فقدت بعد الفتح وبلغ المحمول منها الى بيت المال ألف ألف دينار من الذهب. وجملة القول ان شأنه في الفخامة والاتقان مما يحير الاذهان على أن الايام قد أهوت عليه بمعول الفناء الذى ليس في طاقة الطين اتقاؤه ثم زاد على ذلك كله ان أبا جعفر لما ابتنى الزوراء حمل من آجره جانباً كبيراً على بعد الشقة وعظم النفقة فعارضه خالد بن برمك رعاه الله وقال يرغبه فى حفظ ذلك الاثر ياأمير المؤمنين لاتفعل واتركه ماثلا يستدل به على اقتدار آبائك الذين سلبوا ملك أهل هذا الايوان فاتهمه الخليفة في النصيحة وقال أخذته النعرة للفرس وأبى الا التعصب لقومه فوالله لاصرعنه قريبا ثم شرع فى هدمه واتخذ له الفوس وصب عليه الخلّ وحماه بالنارحتى اذا أدركه العجز وخاف الفضيحة بعث الى خالد يستشيره في التجافي عن الهدم فقال ياأمير

---

(١) ذكر ذلك البحترى في وصف الايوان حيث يقول

والمنايا مواثل وأنوشروا * ن يزجي الصفوف تحت الدّرَفس

والدرفس الراية

المؤمنين قد كنت أرى أن لا تهدمه فأما اذ فعلت فانى أرى أن تستمر على ذلك لئلا يقال عجز سلطان العرب عن هدم مصنع من مصانع العجم فعرفها المنصور وأقصر عن هدمه ولكن بعد أن قوّض جانبا من هذا الأثر الجليل .

ولما وقفت بالايوان كانت الشمس لاول طلوعها وعلى تلك الدمن ندى يتلألأ ما بين الاوكار التى تجنح اليها طيور الخراب فقعدت أتأمل ما كان عليه ربّ هذا القصر من العزة وعظم القدر وكيف أخنى عليه الدهر فأخذتنى لذلك عبرة من مشاهدة الآثار الباقيات وتذكرت نظم شاعر يقول هذه الابيات .

أيها الشامت المعير بالدهـــــر أنت المبرأ الموفور
أم لديك العهد الوثيق من الايّـــــام بل أنت جاهل مغرور
من رأيت المنون خلّدن أم من ذا عليه من أن يضام خفير
أين كسرى خير الملوك أنوشر وان أم أين قبله سابور
وبنو الاصفر الكرام ملوك الرو م لم يبق منهمُ مذكور
وأخو الحضرا ذبناه واذدجـــــلة تجبى اليه والخابور
شاده مرمرا وجلله كلـــــسا فللطيور في ذراه وكور
لم يهبه ريب المنون فباد الـــــملك عنه فبابه مهجور

وقد كان لمرأى هذه الآثار تأثير في الخاطر لا يبرح منه العمر وكان اقلاعنا عنها قبيل الظهر ونحن على ستة فراسخ (١) من دار السلام وقد فرغت

---

(١) ياقوت ٤*٤٤٧

من تقييد هـذه الرسالة في آخر يوم من رمضان أرانا الله بركتـه بمنّه وكرمه ونحن قد جزنا موضعا يعرف بالنهروان (١) وصرنا على مطلّ من الزوراء أم البلدان ،

《 مقامى فى دار السلام 》

اتفق وصولى الى دار السلام في عيد الفطر قبيل العتمة وهى تلمع بالانوار ويتصاعد من المسبحين بحمد الله والمقدسين له نغمات تؤوّبها معهم أرجاء المدينـة وتعـذر المسـير على مركبنا تجاه باب البصرة (٢) أو كاد لازدحام الزوارق المشتبكة في هذا المـكان وهى مطليّة بأبهى الاصباغ والالوان . مرصعة بأنوار القناديل الحسان . حتى كانّ دجلة فى الزوراء . أشبه بالمجرّة في كبد السماء . ثم تقدمت بنا المركب حتى وقفت بمقربة من الجسر وعلى مطل من قصور الخلافة التى كانت تتلألأ بضوء الشان (٣) فركبت البر في الموضع المعروف بجزيرة العباس (٤) وقد غص بجموع من الناس قد لبسـوا الطيالس السود تشـبها بملوك هـذه الدولة الذين اتخذوا السواد في شعار الخلافة حزنا على شهدائهم من أهل البيت ونعيا على بنى أميّة فى قتلهـم وشاهدت جماعة قد اتخذوا بدل العمائم قلانس طوالا مصـنوعة من القصب والورق ملبّسة بالسواد أيضا وبدل الدروع دراعيات مكتوبا عليها بين كتفى الرجل « فسيكفيكهم الله وهو السـميع

(١) ابن خلـكان ١ * ١٩٦ (٢) هو باب من أبواب بغداد (٣) الاغانى ٤ * ١٨٩ (٤) فى المسعودى ان السفن الواردة من البصرة تقف فى بغداد بهذا الموضع

العليم » أخبرنى (١) بعض من لقيتـه في تلك الليلة أن أبا جعفر هو الذى أحب أن تتزيى حوزته بهذا الشكل من اللباس منذ ثلاث سنين .

ولما تجولت في المدينة أخذت عن قطيعة (٢) أبى عيسى الهاشمى الى محلة يقال لها الميدان (٣) ومنها الى الشارع الكبير المعروف بشارع أبى جعفر (٤) فوجدته كاحسن وأحفل ما يكون من الشوارع وله السيادة عليها بأمرين الاول اتساعه الى أربعين ذراعا (٥) وان كان يشاركه فيه غيره والثانى طوله من دار الخلافة الى محلة باب الشام (٦) على استقامة ليس في الامكان أصح منها فلما صرت فيه استقبلت في دور الخلافة زينة كضوء الشمس قد اتخذت على القبة الخضراء (٧) التى رفعها أبو جعفر الى علو يزيد عن ثمانين ذراعا ليشرف منها على جهات المدينة وما بجوارها من البساتين كما أنه عنى بتجميلها بالرسوم العجيبة ليكون منها الدلالة على سعة ملكه والشهادة باقتداره على عظائم الاعمال فكانت تظهر زينتها في تلك الليلة وهى مرتفعة في الفضاء كانها اكليل من نور قد تدلى على قصر السلام .

ثم انى أقبلت في صدر هذا الشارع على مسجد جامع عليه ازدحام فملت اليه فاذا برجال متمنطقين بالسيوف يرجعون الناس ويجعلون ممرا

---

(١) ابن الاثير ٥ * ٢٤٥ والاغانى ٥ * ٩٥ (٢) ذكرها ياقوت (٣) الاغانى ٢٠ * ٦٦ (٤) ابن خلكان ١ * ٣٠ (٥) ابن الاثير ٥ وابن خلدون ١ (٦) ذكرها ابن خلكان وابن الاثير (٧) المسعودى والقزوينى

بين جموعهم ووراءهم رجل طويل (١) أسمر نحيف خفيف العارضين معرق الوجه ناطق العينين عليه ثياب سود من الخز وقلنسوة مطوقة بوبر (٢) أسود من الاوبار الغالية الثمن وفى وجهه مهابة الملوك وجلالتهم فعرفت أنه الخليفة أبو جعفر على غير ما تدل عليه حاشيته اذ الشمس لا تخفى وان سُترت ثم لم أزل أتبعه بالعين حتى توارى بين الجموع وركب بغلة (٣) عليها حلية خفيفة من الفضة وكان لجامها في يد حاجب من حجاب الخليفة .

ثم دخلت المسجد وعلى المنبر خطيب له بيان وفصاحة يقال له الحجاج بن أرطاة (٤) وعلى مقربة منه قراء سبعة يتلون الا يات من القرآن الي مائة آية من مواضع متفرقة وسور مختلفة فلما فرغوا من تلاوتهم تطايرت اليه رقع في مسائل الفقه فأجاب عنها بكلام أمضى من المرهف وحدث عن البحر في بُعد الغور وقُرب المغترف وعهدي بمن لقيته من الخطباء أنى ما سمعتهم الا وتمنيت أن يسكتوا مخافة أن يخطئوا ما عدا هذا الفقيه الذى كان يواتيه الكلام ويتابعه حتى اذا فرغ من جوابه على هذه الرقع اندفع في تفسير كتاب الله وايراد الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم الى أن أخذ في سرد الآى المقروآت فأتى بها على نسق القراءة من غير تقديم ولا تأخير حتى انتهى الى آخر آية وهى قوله تعالى

---

(١) العقد الفريد (٢) ابن عون وذكر ابن جبير انه رأى الخليفة ببغداد وعليه قلنسوة ذات وبر (٣) ابن خلدون (٤) ذكر فى العقد الفريد انه ولى القضاء لابى جعفر

« في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه (١) الآية فنمق خطبة يذكّر بهـا المؤمنين قافيـة سجعاتها الالف الليـنـة واللام ترداداً لموقف الآية « الآصال » حتى أرسلت العيون لخشية الله عبراتها (٢) .

ولم نزل في المسجد مع القوم بين قراءة وتسبيح إلى ما بعد العشاء الآخرة فخرجت لتمس موضعا أبيت فيه بقية الليل لعلى أجد في النوم راحة تعوّض عليّ بعض ما أخذ منى السفر فارشـدت الى خان لطيف ينزله الغرباء من أهل التجارات وغيرهم فلما كان الصباح بكّرت الى استاذى أبي يوسف ومنزله على نهر عيسى (٣) في قنطرة الزيأتين (٤) بمقربة من دور الخلافة فتلقانى بالماطفة والايناس وأبى الاضيافتى عنده في جناح أفرده لى من داره وهو يؤملنى بلوغ ما أرتجيه من خدمة الدولة اذ لا يعدم قومنـا محلا في مراتبها والوزارة فى يد خالد بن برمك أميرنا . وانى الى هذا اليوم أتخرج في الفـقه عليـه وقد وجدت عنده من العـقل والعلم ماينـدر مثله في صدور الرجال .

﴿ ذكر شيء من محـاسن الزوراء ﴾

ولقد اكبرت من الزوراء رواج سوقها بالتجارة واشتباك أحيائهـا

---

(١) سورة النور (٢) من رحلة ابن جبير (٣) ابن حوقل ١٦٥ ويقول المسعودى ١ * ٤٧ انه يأخذ من الفرات وفى ابن خلكان ١ * ٧٤٠ انه يأتى بغداد من جهة الانبـار و ١ * ١٠١ انه بجوار قنطرة الزياتين (٤) الاغاني ٣ * ١٨٢ وابن خلكان ١ * ٢٨٣

بالعمارة فى مدة عشر سنين حتى جمعت من أسباب العمران ما لا يكون في مدينة بنيت من قديم الزمان ووجدتها من لطف الهواء وطيب الاقليم على ما ليس أجود منه في مدن العراق وفيها ما تشتهى الانفس وتلذ الاعين وأسواقها في نهاية من الاحتفال قد جمعت بالكرخ أخلاطا من التجار (١) والصنّاع الا سوق الصاغة منها فانه منفرد بجماعتنا الفرس وقد بلغوا من الاجادة في صناعتهم الغاية بحيث يرصّعون الزجاج بالجوهر ويكتبون عليه بالذهب المجسم ويصنعون للملوك أقداحا (٢) تقيد الابصار حسنا واشراقا . ويتخذون على الجامات صورا يحكمون صناعتها بالرسم الى مماثلة الحقائق وقد رأيت من ذلك جاما قد صورت عليه طيور تطير (٢) ومن فوقها عقاب ينقضّ عليها وهى تهوى فى الفضاء للتخلص منه ولكن بهيئة تملك النفس وتستوقف الطرف . والى طرف هذه السوق مما يلى سويقة غالب (٣) جماعة من البنائين يبنون الدكاكين لارباب التجارة باشارة من السلطان الذى أمر بتحويل الاسواق الى الكرخ (٤) ليبعد أخلاط الناس عن جواره .

أما دور المدينة فانها متخذة على هندسة الفرس وصنائعهم (٥)

---

(١) الاغانى ٩ * ٣٣ و ١٨ * ٦ (٢) الاغانى ٤ * ١٨٩ (٣) فى الحصرى ١ * ٣٥ هذا الشعر لابى نواس . تدار علينا الراح فى عسجدية . حبتها بانواع التصاوير فارس الاغانى ٣ * ٢٧ (٤) ذكره ابن خلكان فى محلة الكرخ ١ * ٢٤ فى ابن الاثير ٦ * ٩٩ ان بين الكرخ ومدينة المنصور سورا يفصل بينهما ثم ان العمارة امتدت من وراء الكرخ حتى صار الكرخ فى جوف بغداد (٥) المقدمة ٣١٣

ومثال مابنت الروم في الشام أو حيث كانوا ينزلون من البلاد وهى مجللة كلساو مرفوعة على طابقين (١) ومبنىّ بالآجر ماارتفع منها عن الارض وبالحجر مايماسها دفعا للماء في أوان السيل (٢) أن يبلغ الطين ويتمكن منه ومنهم من يقوّى الآجر بالقصباء والحلفاء ويغمسه بالجص (٣)حتى يصير يابسا وتكون له رنة كرنة الحجر الصلد اذا صلصل . وليس لدور العوام أسوار تحيط بمنازلهم وانما تطلّ نوافذها على الشوارع (٤) بحيث اذا ارتفع المارّ على حجر أو على دابة تيسر له ان ينظر من بداخل البيت (٥) أما دور المتمولين من أهل اليسار فانها ثلاثة أقسام يجمعها سور واحد وهى مقاصير الحرم وحجرات الخدم ومجالس السلام . وفي ساحاتها جنات تزرع فيها البقول والرياحين والرمان وسائر الفاكهة حتى تكون روحا وريحانا واستراوحا للنفس وعلى جدرانها وسقوفها نقوش في رسم ملوّن أوفسيفساء من ذهب وعلى دائر الابواب والقمريات وبرّادات (٦) الدور كتابة يتخذونها من الزجاج (٧) الملون ويحوطونها بخشب أسود من الابنوس وغيره ثم يعلقون عليها رسوما من النحاس تمثل غصونا وثمارا وأزهارا وأشكالا فيها كل غريبة من الابداع فتمتلىء العين ارتياحا من النظر الى اشراقها . وانى ليعجبنى من جمال

---

(١) يستدل على ذلك من الاغانى ٢ * ٧٣ و ٣ * ٣١ (٢) ذكر الاغانى ٩ * ١٤٤ وقوع سيل ببغداد (٣) ابن خلدون ٣ * ١٩٧ (٤) الاغانى ١٧ * ٤٩ (٥) الاغانى ٥ * ٣٨ (٦) الاغانى ١٧ * ١٢٩ (٧ القزوينى ١٢٧

مبانيهم مايتأنقون بزينته من الخارج أيضا فان القباب التي يرفعونها من فوق السطوح على عمـدان قد دقت أمثال الرماح ليخيـل للرائي اليها أنهـا لاتستند على شيء وكأنما هي معلقة في الهواء ·

ولما كان الحر يشتد وهجه في الزوراء ويفتقر اهلها الى رطوبة المـاء. افتقار النفس الى الهواء . قـلّ أن يخلو سوق من أسواقهم أو بنية من مبانيهم من سـقاية يجري بها ماء دجلة (١) ولذلك لايسـير فيها الرجـل الا محفوفا بالشجر الزاهر والرياحـين (٢) التي يتغنى بوصفها الشعراء . وهـذا دليـل على أن الزوراء كلهاماء ونماء . ولاهلها في اقامة الاحواض عناية تامـة فـيرفعون عليهـا عمـدا مزخرفـة من الرخام ويعقدون من فوقها قبابا منقوشـة بآيات من الذهب (٣) وما بينها النقوش الظريفة والرسوم التي تقرّ بها العيون . فتوسعوا من اتخاذها للضرورة الى المغالاة بزينتها على سبيل الترف والترفّه واذا اشتد عليهـم الحر اتخـذوا أسرابا تحت الارض وأقاموا فيهـا بالنهار ليكسروا الحر كما يقولون (٤) .

ولقد عظمت عناية أبي جعفر بهذه المدينة حتى انهُ انفق عليها نحوا من أربعة آلاف ألف دينار في بناء السورين اللذين يحوطانها والمسـجد الجامع ودور الخـلافة والمجالس التي عقدها فوق أبواب السـور الخارجي

---

(١) المقـدمة ١٠٥ و ٣٥٧ والاغاني والاتليدى (٢) ياقوت ١ * ٦٨٧ (٣) الاتليدى ٢٢٦ (٤) من ابن خلـكان

من طاقاتها المعقودة وهي أربعة أولها باب خراسان ويسمى باب الدولة لاقبال الدولة العباسية من خراسان . والثاني باب الكوفة وهو تلقاء الكوفة . والثالث باب الشام وهو من ناحية الغرب . والرابع باب البصرة وهو بمقربة من دجلة . وقد حمل اليها أبوابها من واسط والشام (١) والكوفة على بعد الشقة والمشقة . واتخذ الابواب الداخلة مزورّة عن الابواب الخارجة (٢) ولذلك سميت المدينة بالزوراء .

ثم ان تناهى جمالها بما شاد فيها الامراء من المباني التي تقف عندها الغاية في الفخامة والاشراق ولا سيما ما كان من المساجد المزخرفة فانها لكثيرة (٣) في الزوراء أتيت منها على زيارة مسجد في قنطرة الصراة (٤) ومسجد بناه عبد الله بن حرب في الموضع (٥) المعروف بالحربية . ومسجد أقامه أمير من آل قحطبة في شارع المحرم (٦) وآخر بنته الخيزران زوج ولىّ العهد في الخيزرانية (٧) وهو فائق الحسن وفيه اكثر من ثلاثمائة قنديل من الفضة والذهب وصحنه من حجارة سود شديدة البصيص تصف الاشخاص كالمرآة وعلى حيطانه صور تفافيح وثمار وغصون تخيّل

---

(١) ابن الاثير ٥ * ٢٣١ (٢) تقويم البلدان ٣٠٣ ,٣) ذكر القرمانيّ وغيره انه كان ببغداد ثلاثون ألف مسجد وعشرة آلاف حمام (٤) موضع ببغداد ذكره ابن الاثير ٦ * ١١٧ (٥) ذكره ابن خلكان ١ * ٢٣ وياقوت ٤ * ٥٨٦ والمسعودى ٢ * ٢٤٠ و ٣٨٨ (٦) ذكره الاغانى ٥ * ١٢٦ (٧) ذكره ابن الاثير ٦ * ١٠١

للوافد على المسجد انه بين شجر زاه زاهر . في روض باه باهر . ورأيت العملة قد تقلدوا فيها رسوم الاعاجم على أنسجتهم حتى جاءت الحجارة توهم الرائي أنها بسط حملت من طبرستان ولا فرق بينها الا فرق ما بين الصوف والحجر وليس في مساجد الزوراء مثله في الزينة الا مسجد بناه أبو جعفر في شارع دجيل (١) مما يلي باب الانبار (٢) والمسجد الجامع الذي بجوار دور الخلافة .

﴿ النصرانية فى الاسلام ﴾

وقد جمعت الزوراء أخلاطا من الامم على اختلاف الاجيال وتباعد المشارب والاميال . واكثرهم سيّد وأمير في قومه ولا سيما أهل الشام (٣) ممن أدرك الامويين في دمشق وقد انبسط لديهم النعيم وبلغت مدينتهم من السعة والرخاء ما لم تبلغه مدينة في ذلك العهد قط فما أحسبهم الا أعرق الناس بالحضارة لانهم يتقلبون بالمال الذي صار اليهم من أبي العباس على وجه السياسة عند ما قارع مروان بن محمد على الخلافة حتى اذا تم له الغلب عليه أجزل صلة المنضوين منهم اليه حيث فرق فيهم جميع المال الذي وجده في خزائن الامويين .

أما أمم النصرانية فانى لم أجد فيهم السعة التي وجدتها عند المسلمين .

(١) ذكره ابن خلكان ١ * ٤٩٨ (٢) ذكره ابن الاثير ٦ * ٩٨ والمسعودى ٢ * ٢٤٠ والمستطرف ١ * ٢٨٩ (٣) يقول فى المقدمة ٣٢٣ ليس على وجه الارض أحضر من أهل الشام والعراق ومصر

وقد كان العهد الذى أخذه عليهم عمر بن الخطاب رضى الله عنه حقيقا بان يقصيهم عن الولاية والامارة كما أنه يقضى بوجوب التضييق عليهم وحرمانهم الاستمتاع من الرفعة التي يتمتع بها المسلمون على سعة من الملك فقد اشترط عليهم عمر في هذا العهد أن لا يحدثوا فى مدائنهم ولا فيما حواليها كنيسة ولا ديرا ولا قلّية ولا صومعة راهب وأن ينزلوا من مرّ بهم من المسلمين ثلاث ليال يطعمونهم بها وأنهم لا يؤوون في منازلهم جاسوسا ولا يظهرون شرعهم ولا يدعون اليه أحدا ويقومون للمسلمين في مجالسهم اذا أرادوا الجلوس ولا يتشبهون بهم في شيء من ملابسهم من قلنسوة ولا عمامة ولا طيلسان ولا نعلين ولا يتكلمون بكلامهم ولا يركبون السروج ولا يتقلدون السيوف ولا يتخذون شيأ من السلاح ولا يحملونه معهم ولا ينقشون على خواتمهم بالعربية ولا يبيعون الخمر وأن يجزوا مقادم رؤسهم ويشدوا الزنار على أوساطهم ولا يظهروا صلبانهم (١) ولا كتبهم في شيء من أسواق المسلمين ولا يضربوا بالناقوس في كنائسهم الا ضربا خفيفا

---

(١) كان اظهار الصلبان محظوراً على النصارى في صدر الاسلام ولكن لم يبق في نفوس المسلمين من بعد ذلك استنكاف عن شيء من عاداتهم بل لهم من ذكر الديورة والرهبان والصلبان ماهو مشهور في أشعارهم بصدر الدولة العباسية نفسها مثل هذين البيتين المذكورين في الاغانى ١٧*١٢٩*

تتثنى بحسن جيد غزال * وصليب منضض أبنوس

كم لثمت الصليب في الجيد منها * كهلال مكلل بشموس

ولا يرفعوا أصواتهم مع موتاهم ولا يتخذوا من الرقيق ماجرى عليه سهام المسلمين ولا يشتروا من سباياهم ولا يتطاولوا على منازلهم ولا يضربوا مسلما عمداً الى آخر العهد (١) الذى قصد منه تقرير ضعتهم فيما يجاور مكة والمدينة والحجاز وغيرها من البلدان التى كانت مهداً للاسلام ومستقراً للدولة

ثم انه لما عم الاسلام وتوطد له الملك العظيم الذى لا كفاء له رأى بعض الأئمة أن تتوسع الدولة من تقرير السيادة عليهم الى معاملتهم بالتحقير كمثل أن يكون في رقابهم خاتم من نحاس أو رصاص وأن ترفض (٢) في الاحكام شهادتهم وأن لا يبدؤوا بالسلام والكلام ولا يعزوا مسلما فى مأتم (٣) ولا يشاركوه في فرح ولا يركبوا المطايا في الازقة الا من شق واحد (٤) أى أن تكون رجلاهم من ناحية واحدة وأن يلجؤوا الى أضيق الطرق في مسيرهم ويكون في عنق المرأة خاتم تدخل به الحمام ويكون أحد خفيها أسود والآخر أبيض الى غير ذلك . غير أن ماوجده الامويون قبلهم من العلم وأبو جعفر من المروءة هو الذى جعل الخلفاء يتسامحون فى أمرهم ويزيلون عنهم من معاملة العنف مايكون ذلة عليهم الا اقصاءهم عن الولاية والتزامزيهم (٥) حيثما كانوا لتمييزهم عن المسلمين فانهم استبدلوا ذلك بتقريبهم اليهم واتخاذ ندمائهم (٦) منهم حتى ارتفعت حالهم في

---

(١) ذكره الابشيهى ١*١٣٦ (٢) المستطرف ١*٣٠٣ (٣) العقد الفريد ٢*٤٢ (٤) ابن عابدين ٣*٤٢٢ (٥) المحاضرة ١*٦٨ (٦) الاغانى ٦*١٥١

الدولة . وهذا أعده لهم من صلاح النظر في السياسة لان حفظ الدولة للمسلمين لايحصل الا بأحد أمرين إما بعرض الناس كلهم على الاسلام . وإما باستمالة أهل الذمة الى اللسان العربى ليكون فيهم لغتهم ولهجتهم السالكة حتى يألفوا عادات المسلمين وتنقطع مواصلتهم مع الروم على تمادى الايام . فأما اذ اختار الخلفاء الراشدون في زمن الفتح والجهاد سلوك الامر الاول الذى لم يجدوا في ذلك الوقت أضمن منه لحفظ المسلمين والاسلام فلم يبق للخلفاء من بعدهم وهم فى زمن السلم والسلام الا أن يلتزموا سياسة الرفق التى هى مدعاة لائتلاف الصدور . ومصرفة للفتن عن الصدور . وذريعة الى تعظيم الاسلام بمشاركة أهل الادب من النصارى في بعض سياساته وأعماله وهم الذين عرفتهم حملة العلم وعرفت لهم البلغاء الاولين . والخطباء المقدمين . والشعراء المجيدين والاطباء النطاسيين والمنجمين والراصدين . فهداقس بن ساعدة . والبرّاق بن روحان . وحاتم الطائى . وامرؤ القيس وعدىّ بن زيد وأمية بن أبى الصلت وأبو زبيد وغيرهم قد انتهت اليهم بلاغة الشعر والخطابة ولم يزل العلماء من أهل ملتهم يتناولون الحكمة من الموضع الذى ماسما اليه غيرهم الى أن عم الاسلام فخمل في المشرق ذكرهم على انقطاعهم عن محاضرة أهل العلم من أرباب الدولة وكانت منزلتهم من الضعة ما رأيت في العهود التى أخذها عليهم عمر بن الخطاب ليبذل لهم الامان . فلما نفسهم ملوك بنى أمية فى حاجاتهم وأوسعوا لهم في مجالسهم ظهرت لهم فى العلم براعة كذي قبلُ وقالوا

الشعر الذى فضلوا فيه غيرهم من أهل زمانهم ولما أنشد القطامىّ عبد الملك ابن مروان قصيدته التى يقول فيها .

قد يدرك المتأنى بعض حاجته   وقد يكون مع المستعجل الزلل (١)

لم يتمالك من أن يقول لعمري هذا هو الشعر الصحيح . وقال حماد الراوية حين سئل عن الاخطل ما تسألونى عن رجل حبّب الىّ شعره النصرانية (٢) وقد نبغ الكثير منهم في جميع الفنون والصناعات ولا سيّما في علوم الرسم والهندسة ولما ابتنى الوليد بن عبد الملك جامعه المعروف بالجامع الاموىّ الكبير وجّه رسله فى طلبهم من جميع النواحى والامصار وكذلك لما بنى أبو جعفر مدينته استقدم منهم ما ينيف عن خمسين ألفا (٣) من الصنّاع وفى هذا القدر كفاية لما نروم اثباته من أنهم يزينون الدولة بما عندهم من الادب والصناعة ،

ولا يقعنّ في نفسك أن الاسلام تذهب محاسنه باستمتاع أهل الذمة من السمة وذهاب التضييق الذى وقع عليهم في صدر الملة فانما أخذهم الخلفاء الراشدون بالشدة ليتمكن الاسلام من البلاد والعباد فأما اذ استفحل الى هذه الغاية فلم يبق ثمت حاجة الى هذا التضييق الذى ريم به قهر النصرانية لتعزيز موضعه من السلطان . وعندى أن الامم المقهورة كلما عظم شأنها زاد ذلك في عظمة الدولة القاهرة لها ولأن يكون غلبنا

(١) قال فى العقد الفريد ١*٣٤١ ان البيت قد سار مثلا (٢) الاغانى

(٣) المسعودي ٢*١٩٤

لامة ساد فيها العمران خير من أن نغلب أمة قد طمس عليها الجهل والخشونة والله يقضي بما يشاء في أمر العباد . وهو وليّ التوفيق والرشاد . لا رب سواه .

﴿ في تقربي من رجال الدولة ﴾

ولقد لقيت في الزوراء جماعة من الامراء المتقدمين في الدولة غير أني انقطعت الى خدمة ملوكنا البرامكة ولازمت بابهم في البكور والرواح اذ كانوا أصحاب فضل وجمال ومروءة وعفاف . وقد وقع بيننا من المودة ما ضمني واياهم في أوثق حبال الانس والائتلاف . وتقربت بكفالتهم الى معن بن زائدة الشيباني وروح بن حاتم المهلّبي وهما أعظم رجال الدولة بعدهم وكنت الى آل المهلّب اكثر مني تقربا الى شيبان (١) وان كانوا جميعا على خلاف غرضنا من الميل مع أهل البيت الا أن معناً كان على مخالفة البرامكة والانحراف عنهم من حيث تقدمهم في مراتب الدولة وهم أغراب عن العرب وذلك لم يكن في آل المهلّب فانهم كانوا مع البرامكة على خلطة ومودة واتصال .

وأقرب الامراء مكانا من الخليفة هو خالد وزيرنا لقيامه بثقل الدعوة في خراسان من قبل أبي مسلم الخراساني . وهو من أولاد الملوك لم يبلغ أحد مبلغه في رأيه وعلمه وبأسه وجوده وجميع خلاله (٢) والمنصور لا يبرم أمرا الا بمشورته ولا يركن في أعماله الى أحد سواه اللهم الا في

---

(١) يقول ابن الاثير ٦*٥١ ان شيبان كانوا مع البرامكة على انحراف

(٢) ابن خلكان ٢*٣٦١ والمسعودي ٢*٢٢٢

سياسته مع العلويين فانها كانت جارية على البغض لهم والجور عليهم مع أن خالدا ميّال اليهم منذ أخذ في الدعوة الامامية بخراسان وهى اذ ذاك لهم وللعباسيين جميعا . أما المهلّبيون فانهم من عظماء العرب ومن لهم الرأي المقدم عندهم والامرة المطاعة عليهم وقد كانوا هم وآل قحطبة من القواد الذين نصروا العباسيين على بنى أميّة ثم انضافوا الى جملة أبي جعفر بعد الفرقة بينه وبين العلويّة رغبة عن الأئمة من أهل البيت فقدمهم أبو جعفر في المراتب من هذا الوجه حتى انصرفت اليهم الوجوه وانطلقت الالسن في مديحهم بالقصائد التى تعظم عن أن يقال مثلها في الخلفاء أنفسهم كقول المغيرة بن حنباء

أمسى العباد لعمرى لاغياث لهم ‏ الا المهلّب بعد الله والمطرُ
هذا يذود ويحمى عن ديارهمُ ‏ وذا يعيش به الانعام والشجرُ

وأما معن فانه أمير شيبان كلهم وقد اجتمعت فيه جميع خلال العرب الحسان الا أنه غلب عليه الجود مقرونا بحلم يتحير فى نعته اللسان . وشيبان من بيوتات العرب في قريش وهم أربعة بيوت بعد بيت بنى هاشم وهى بيت قيس . وبيت تميم . وبيت شيبان . وبيت اليمن (١) وقد كان معن على مخالفة العباسيين لأول ظهور دعاتهم وأبلى مع بنى مروان بلاء حسنا فلما انقرضت دولتهم طلبه أبو جعفر طلبا شديدا وجعل

(١) الاغانى ١٧*١٠٥

لمن يأتيه به مالا جزيلا فلم يظفر به لانه كان مقيما في البادية كما يقال (١)

(١) قد وقع لمعن أيام كان يطلبه أبو جعفر ظريفة أحببت أن أذكرها ههنا لنكتة فكاهيـة تدل على كرم العرب وأنفة نفوسهم والـكلام فيهـا لمعن يقول كنت قـد اضطررت لشـدة الطلب الى أن أقيم في الشمس حتى لوحت وجهى وخففت عارضيّ ولحيتى فلبست جبة صوف عريضة وركبت جملا من الجمال النقالة لأمضى الى البادية فأقيم بها فلما خرجت من باب حرب تبعنى أسود متقلدا سـيفا حتى اذا غبت عن الحرس قبض على خطام بعيرى فأناخه وقبض عليّ فقلت له مالك قال أنت طلبة أمير المؤمنين قلت ومن أنا حتى يطلبنى أمير المؤمنين قال أنت معن ابن زائدة فقلت ياهذا اتق الله أين أنا من معن قال دع هذا عنك فانى والله لأعرف بك منك قلت ان كانت القضية كما تقول فهذا جوهر حملته معى يفى بأضعاف مابذله أمير المؤمنين لمن جاءه بى فخذه ولا تسفك دمى قال هاته فأخرجته اليه فنظر اليه ساعة وقال صدقت فيما تذكر عن ثمنه ولست قابله حتى أسألك عن شيء فان صدقتنى اطلقتك فقلت له قل قال ان الناس قد وصفوك بالجود فاخبرنى هل وهبت قط مالك كله قلت لا قال فنصفه قلت لا قال فثلثه فربعه فخمسه حتى بلغ العشر فاستحييت وقلت أظن أنى قد فعلت هـذا فقال ماأراك فعلته . أنا والله راجل ورزقى من أمير المؤمنين عشرون درهما فى الشهر وهذا الجوهر قيمته عشرة آلاف دينار وقد وهبته لك ووهبتك لنفسك ولجودك المأثور بين الناس لتعلم أن في الدنيا من هو أجود منك فلا تعجبك نفسك ولتحقر بعد هـذا كل شيء تفعله ولاتتوقف عن مكرمة قط ثم رمى العقد في حجرى وترك خطام البعير وانصرف فقلت ياهـذا والله قد فضحتنى ولسفك دمى أهون عليّ ممـا فعلت فخذ مادفعت اليك فانى عنه لغنيّ فضحك ثم قال أردت أن تكذبنى في مقالى والله لاآخذه ولا آخذ بمعروف ثمنا ومضى فوالله لقـد طلبته بعـد أن أمنت وبذلت لمن يجيء به ماشاء فمـا عرفت له خـبرا وكأن الارض ابتلعته . ابن خلـكان ٢*١٦٠ والاغانى ٩*٤٣ وعجائب المخلوقات ٣٠٩

ثم انه رجع الي الهاشمية (١) متلثما ووافق يوم وصوله قيام الراوندية على الخليفة فى الاسواق وقد قاتلوه الى أن ضاق به الخناق فكان معن يجد في ذلك اليوم وسيلة لهلاك أبي جعفر بانضمامه الى العدو بعد أن بدت له مقاتله ولكن أبت مروءته الا أن يكون الحلم في نفسه طبيعة تجله عن مطامع الاخساء فأعلن السيف دونه حتى كشف عنه سواد العدو . فلما عرفه أبو جعفر طابت عليه نفسه وجعل له الولاية ومكّنه من خزائن المال .

ولقد دخلت على هذا الامير مرة واحدة فأصبته بين حرس على رأسه وحفدة بين يديه (٢) وفي حضرته جماعة من الادباء الندمان قد تعارضوا حديث الشيعة فى خراسان . وأخذوا يتناقلون خبرها من غير نقد ولا امعان . فضلّ عنهم سر السياسة فيها الا رجلا من شيبان بليغ الفطنة يقال له محمد بن الحسن الشيباني وهو بسيط اللسان اذا تكلم خيّل لسامعه أن القرآن نزل بلغته (٣) فكان يرى لنكبة أبي مسلم رحمه الله السبب الذى لم يفطن له أحد من هؤلاء الجلاس فانه لم يحقق لديّ ما يذكرون من أن الخليفة قد نكبه لما كان من سبقه اياه الى الحج ولا لادعائه أنه من ولد العباس ولا لتصدير اسمه قبل اسم الخليفة في الكتب التى كان يبعث بها اليه ولا لافراطه في القتل الكثير وانما نكب أبا مسلم ما كان من ميله مع أهل البيت وامداده اياهم بالرأى فيما يدبرونه لامر

(١) كان يقيم بها المنصور قبل بناء بغداد (٢) الابشيهى ٢*٣٠٩ والاتليدى ١٠٩ (٣) أبوالفداء ١٩٢ وابن خلكان ١*٦٤٧ والخميس ٢*٣٣٣

أنفسهم حتى اذا علم الخليفة منه ذلك وخاف من فتنة صماء تعصف ريحها في الدولة استقدمه الى المدائن وفي نفسه أن ينكب به على غرة وكان أبو مسلم على حذر من ذلك كما ظهر من كتاب له الى أبي جعفر ومما كان من استصحابه للجنود في سيره اليه ولكن طلع عليه وهو بين يدى الخليفة جماعة من حيث لايدرى فاعتوروه بالسيوف ومن يعلم هذا كله ولكن لايقوله اجلالاً لامير المؤمنين .

وأما مايقولون من انه خامل السلالة فليس ذلك الا من باب التدليس لموافقة أرباب الدولة على أهوائهم على أنه لو صح ادعاؤهم لما منع من أن تكون به خصال لاترى في عامة الناس فانك لتعلم انه ملك خراسان (١) وهو ابن تسع عشرة سنة وأبدى من السياسة وهو بذلك العمر ماعجز عن تدبير مثله الحكماء وكان ثبت الجنان اذا جاءته الفتوحات العظام لم يغلب عليه السرور واذا نزلت به الحوادث الفادحة لم يظهر فيه اكتئاب (٢) وكان أقل الملوك طمعاً (٣)وأبعدهم بين الناس شهرة حتى كان اذا حج هربت العربان من وجهه ولم يبق في المناهل منهم أحد لما كانوا يعرفون من شدة بأسه ودهائه وهو أكبر ملوك الاسلام. والرجال عندى ثلاثة وهم الذين قاموا بانشاء الدول . الاسكندر الرومى . وأردشير الفارسى وأبو مسلم الخراسانى

(ذكر) صاحب العقد الفريد ١*١٢١ أنه ربما جرى عليه لقب أمير المؤمنين (٢) ابن خلكان ١*٣٩٨ (٣) أبو الفرج ٢١٦

﴿ لمعة من أخبار أبي جعفر ﴾

ومن المقربين الى أبي جعفر غير من لقيته من الامراء المقدم ذكرهم الربيع بن يونس حاجبه ومولاه وهو حظيّ عنده ومكين لديه من حيث انه مقدم على الموالى وهم المقدمون في هذه الدولة لبلائهم مع يزيد بن المهلب على ملوك بنى أمية بجرجان(١) وما اليها من البلدان . ولاستمرار أبي جعفر على تقديمهم في الرياسة تحفظا على نفسه من العرب الذين يميلون مع أهل البيت وهو يجد عليهم أشد مما يجد على بنى أمية ولو استطاع أن يستأصل سلالتهم الطاهرة والعياذ بالله لفعل بهم أشد مما فعل بالامويين الذين كان يضربهم بالعصىّ حتى يموتوا ثم يمد عليهم بساطا يأكل عليه ويقول وهو يسمع أنينهم من تحت البساط انى لم آكل أكلة أهنأ من هذه الاكلة (٢) .

فتجد أكرمك الله أن أبا جعفر لم يقدّم الاغراب (٣) في مراتب الدولة الا بما هو مطبوع فى نفسه من التيقظ والسهر كما تجد أنه ما أبناه مدينته الا الخوف من أهل الكوفة أن يفسدوا جنده ويحملوهم على مناصرة أهل البيت فجمع المنجمين لذلك ولم يباشر بناءها الا بعد ما أعلمه نوبخت بسلامتها من الاعداء ولما فشت فيها العمارة وجمعت أخلاط الناس خاف قيام العدوّ عليه فقفل الدروب بالليل (٤) وأقام

---

(١) الاغانى ٩*٢١ (٢) السيوطى والفخرى والقناوي ٢٠٣ والاغانى ٤*٩٤ (٣) ابن الاثير ٦*٨ (٤) الاغانى ٧*٣٤

عليها الحراس وحوّل الاسواق الى جهة الكرخ كما تقدم حتى لا يبقى بجوارده من لا يأمن ناحيتهم وشرع قومه يقولون ان رسول الروم أشار بذلك اليه وقد سأله لما وفد عليه كيف وجدت بلدنا أيها الرسول (١) فقال انى رأيته أعز على الطالب من بيض الانوق بعد أنى رأيت الغريب يطرقه ويبيت فيه وربما كان فيهم العين والجاسوس. وهذا كلام فيه بعض المرية عندى لان من أبناه الخوف مدينة حاطها بسور بل سورين (٢) وأدارهما بخندق بعيد المهوى غنى بما في نفسه من الخوف عن أن يخوفه أحد كيد العيون ومحالهم

ثم انا لنجد له هذا التيقظ في البخل الذى ليس هو فيه عن لؤم (٣) يغلّ يده عن الخير لانه وصل أعمامه بعشرة آلاف ألف درهم لكل واحد ألف ألف درهم (٤) وهو أول خليفة وصل بأمثال هذه الهبات وانما أمسك يده عن العطاء مخافة أن يقع ماله في يد المتربصين به من المخالفين كما أنه أقل من أعطية الجند ليأمن عصيانهم (٥) واستغناءهم عنه كأنه يعمل بالمثل السائر الذى يقول جوّع كلبك يتبعك (٦) والا فانا لا نرى هباته واقعة الا على من هو خلو من الاغراض السياسية من أهل العلم والادب وان

---

(١) ابن الاثير ٥*٢٣١ (٢) ابو الفوج ٢١٩ والمسعودى ٢*٣٨٧ (٣) الفخرى ١٨٨ وأمر البخل فى أبى جعفر معروف ومتفق عليه (٤) المسعودى ٢*١٩٤ والمستطرف ١*٢٠٠ (٥) فى ابن الاثير ٦*٥ ان المنصور عرض جنده في السلاح وهو لابس درعا وبيضة (٦) الفخرى ٦٩

كان لا يتعدى هذا العطاء الى الكرم بما نعلم من خروج(١) الشعراء في أيامه من الحضرة الى غير وجهة يسترفدون بها صلاتهم .

وأما دليل تخوفه من ولاة الاقاليم فكونه يذكى عليهم العيون ويتدارك عزلهم من قبل أن ترسخ في الامارة قدمهم ثم يستولى على مايصل اليه من أموالهم ويجعله في بيت سماه بيت مال المظالم (٢) حتى يقعدهم عن القيام عليه في ثورة أو مخالفة وليس ذلك حبا في جمع المال وادخاره كما يزعم كثير من الناس لانه لولا بخل عن رأى له في السياسة لما حنق على معنٍ حين جاد بماله على أهل اليمن ليسهّل من أمرهم ماحزن (٣) كما أنه لو طمع في حفظ هذه الاموال المغتصبة لما أوصى ابنه بردها الى أربابها في كلام من الوصية يقول فيه(٤) انى لأحُضك يوم تدركنى الوفاة أن تدع من أخذت ماله وترده عليه فانك ستحمد بذلك اليهم ولكن اياك أن تعود الى توليتهم المناصب لانى مارأيت الوفاء طبيعة الا في الموالى والاعراب

ثم انه طمح من هذه السياسة الى أن يأخذ التجارة بالشدة ويضرب عليها المكوس تثقيلا على التجار فوضع على الحوانيت خراجا (٥) لم يسبق

---

(١) الاغانى ١٣*٩١ وفى العقد الفريد ١*١٢٢ أن حاجب الخليفة قال له أن الشعراء ببابك وهم كثيرون طالت أيامهم ونفدت نفقاتهم (٢) ابن الاثير ٦*١١ (٣) ابن الاثير ٦*٩ (٤) الفخرى ١٨٧ وابن الاثير ٦*١٢ (٥) المقريزى ١*١٠٣

له عهد فى الاسلام وربما أعطى ماله بالربا (١) حتى يأمن ضيق تجارتهم عليهم بهذه المزاحمة من غير ما رحمة له أرادها بأهل الزراعة بدفع الخراج ورقا على الحنطة والشعير وتصييره عليهم مقاسمة (٢) تسهيلا عليهم في تأدية الخراج اذا لم يكن بين أيديهم مال يحملونه فكان له في ذلك مأثرة تستنطق الافواه بالثناء وان كانت بعيدة عن رفع الفساد الذى يعم الامصار بضرب المكوس على التجارة .

هذا نزر يسير من أخبار أبي جعفر وفيه دلالة قاطعة على الخوف الذى يدعوه الى التيقظ والناس يقولون انه صالح النظر في السياسة وربما جاريتهم على ذلك فيما هو آخذ بتدبير أمره غير ان صلاح النظر عندى ما لا يكون فيه خروج عن العدل والا فان حبس النفس الزكية محمد بن عبد الله بن حسن بن الحسين رضى الله عنهم وقتل أخيه ابراهيم بن عبد الله وكلاهما براء من الذنوب لمن أقبح الظلم ولست أرى لابى جعفر فيما وقع له من الظفر بهما على سبيل الاتفاق وجها تطمئن به نفسه لان فشل العلويين الى هذا اليوم انما نشأ عن تفرق دعاتهم على أغراض لم تجمعهم غاية واحدة في جميع البلدان بل كان بعضهم منقطعا عن بعض وكان كل واحد منهم منفردا الى نفسه فيما يطلبونه من ثار شهدائهم المشرفين عليهم صلوات الله ورضوانه فغلبهم أبو جعفر من هذا الوجه وظفر بالواحد منهم بعد الآخر كما كان شأن الامويين في مقاتلتهم من ذى قبل ولوأنهم

---

(١) المستطرف ١*١٢٥ (٢) الماوردى ١٣٦

جمعوا دعاتهم الى الوحدة وأثاروا العراق وخراسان والحجاز في غرض واحد كما فعل أبو مسلم رحمه الله في اظهار الدعوة الامامية لاعاد الله اليهم الخلافة التى غلبهم عليها الامويون وهم الذين عرفت لهم الفضائل التى لا يستطيع المكابرون من أعدائهم (١) انكارها والله يؤتى ملكه من يشاء وهو العليم الحكيم لا شريك له .

《 ذكر الفتوح وأن العدل هو الذى حفظها للمسلمين 》

ولما حدثنى لسان الشريعة بهذه الاخبار وافق قوله ما في نفوسنا من التحسر على أهل البيت لضياع حقوقهم وقد كنت استزدته الحديث عن أخبار العرب وأيامهم فحدثنى عن فتوح الاسلام خبرا أحببت أن أسرده اليك في هذا الكتاب . وأسلك فيه سبيل الاطناب . ليكون فخرا للاعراب . باقيا الى منتهى الاحقاب . فان الله تعالى لما أراد أن ينشر فيهم رحمته بعث اليهم رسولا منهم عزيزا عليه ومعه كتاب من الله ناطق بالهدى ودين الحق ليجيرهم من الملمات التى وقعت فيها جاهليتهم لمخالفتهم سياسة الشرع وتباين عقائدهم فى الدين اذ لم يكن منهم الموحد

(١) قال عمر بن عبد العزيز من ملوك بنى أمية ان الذين حولنا لو يعلمون من علىّ مانعلم لتفرقوا عنا الى أولاده . ابن الاثير ٥*١٧ وكذلك الحجاج بن يوسف جلس يوما يعطى الناس على بلائهم فقام رجل يطلب العطاء وكان من قتلة الحسين بن على رضى الله عنه فلما علم الحجاج ذلك قال له انك لاتجتمع أنت وهو فى مكان واحد ثم أخرجه ولم يعطه شيأ . ابن الاثير ٤ * ٢٣٩

المقر بالخالق المصدق بالبعث الموقن بالثواب فى الآخرة الا نفرقليل (١) فجمع بالرسالة كلمتهم ونزع الكعبة من يد الجاهلية الذين وضعوا بها تماثيل آلهة (٢) غير الاله الواجب الوجود من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشدا . (٣)

ولقد كان النبي صلى الله عليه وسلم مأمورا في بدء رسالته بأن يدعو العرب الى الاسلام ثم جاءه الوحى بدعوة الناس كافة اليه فلما قبض صلى الله عليه وسلم وهو مشكور سعيه مرفوع منزلته انقبضت نفوس العرب وباتوا في موقف التردد ساعة يخفون أن يدخلوا في ولاية أحد من بعده يطلق يده في الامر بما يشاء وعهدهم قريب من الجاهلية في تباين الأميال والاهواء فلما رأوا من الخلفاء الراشدين رضى الله عنهم بعدهم عن الاغراض النفسانية والتماسهم من الخلافة السلوك في سنة الله ورسوله دون شئ آخر من حاجات الدنيا الا هداية الناس اجتمعوا على كتاب الله أمة واحدة في دين وسياسة حتى غلبوا الملوك على أمرهم وابتزوا الاعاجم سلطانهم وحازوا معظم العالم في شرق وغرب .

وانما صال المسلمون كالسباع . وشدوا على الحصون والقلاع . وتراموا على ممالك الحضر . واقتحموا المشاق والغرر . بما حضهم عليه الكتاب من الجهاد وما رغبوا في نيله من غنائم البلاد . ولأن المائت منهم في ساحة الحملات . شهيد له في دار الخلد جنات . وعدهم الله تعالى ذلك بقوله «ومن

---

(١) المسعودى ١*٢٣٩ (٢) المقدمة ٣١١ (٣) سورة الكهف

يخرج من بيته مهاجرا الى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله » (١) فلما انتدبهم أبو بكر رضى الله عنه الى فتوح الشام أقبلوا بنسائهم (٢) وولدهم وبيوتهم وماشيتهم وسائر ما يملكون وعلى وجوههم سمات الفرح والابتهاج . (٣) كأنما النصر مستقر في النفوس صرفا بغير مزاج . ويقال ان الشيوخ الفانية قد قدموا مع أولادهم ليطأوا الارض التى وعدهم النبي صلى الله عليه وسلم حتى اذا رآهم أبو بكر ابتدرهم بالسؤال أن لم أقبلتم ومعناه يزيد على كلامه بأن ليس لكم عزم ولا فيكم بقية فقالوا قدمنا ياخليفة الرسول رغبة في ثواب الله وحبا في فاكهة الشام واستعذابا لمائه الزلال (٤) فتفاءل منهم بالخير وقال ان ربكم يعطى النصر العزيز لمن يشاء . فاذا كان هذا عزم المسانّ واقدامهم فما الظن ببسالة الفتيان الذين هم ضراب السيوف . (٥) وشراب الحتوف . فان تنظر الى ما تعرف لهم من الاشعار . ويروى عنهم من الاخبار . تجد أنهم لا يبتغون بغير الكفاح الفخار . وتستدل على أن قوتهم في مهاجمة الديار . أشد من عدو تمنعه القلاع والاسوار .

ومن المعلوم أن الفتوح الاسلامية لم ينفرد العرب المسلمون بمباشرتها الا بمعاضدة عربان النصرانية من قبائل تغلب وتنوخ ووائل وغيرهم

---

(١) سورة النساء (٢) ياقوت ٤*٣٢٤ (٣) المقدمة ٢٣٢ (٤) الواقدى

(٥) ذكر الطرطوشى ١٧٣ أن من فرسان المسلمين من ضرب عدوه بسيفه فقطع البيضة الحديدية التى على رأسه

ولـكن من غـير أن يكون لهم ماللمسلمين من القيـادة والامارة وانما طلبوا تسريحهم معهم الى القتال لانهم أهل وطن واحد ولهم عادات بينهم مألوفة وقد طمعوا في نوال الغنائم التى يصيبونها من البلدان بعـد ما وصفت لهم صـناعة الروم ولآلئ الهند وكنوز الفرس وخيرات مصر وطيبات الشام حتى اذا امتزجوا بالمسلمين ردحا من الدهر دانت منهـم جماعة بالاسلام اما حبا في الدين واما طمعا فى الغنائم التى لا ينالون منهـا بقدر ما يناله المسلمون وقد كانت قسمة الفارس المسلم في بعض الغزوات ثلاثين ألفا من الذهب (١) . وربمـا كان في أهل الاعواز من المسلمين شيء من هذا الطمع الذي كان يدفعهم الى طلب الغنائم تحت القتـل اذ كنا نجد الـكثير منهم بعد ذلك اذا أصابوا حظا من المال وبسطوا جوانبهم على مهاد الدعة والرخاء لم تدفعهم النخوة الى مثـل الاعمـال التى ظهرت منهم في صدر الاسلام .

ومما حفظ هذه الفتوح للمسلمين أن البلدان التى دخلت في حوزتهم لم تبـد اشارة ثورة ولا أمارة فتـنة لانها كانت قبـل ذلك في سـلطان الفرس أو الروم فـكان لديها سواء أحكمها كسرى أم أمير المؤمنـين . وربمـا مالت الى عمال الخلفاء أكثر من ميلها الى عمال الروم لمـا وجدت قبلهـم من وفور العـدل والقيـام على مراعاة العهود ممـا أمر به الخلفاء الراشدون رضى الله عنهم وحرضوا على التشبث به حتى لقد عزلوا خالد

---

(١) المقدمة ١٨٧

ابن الوليد عن الامارة من أجل أنه أراد أن ينقض الامان الذى أعطاه أبو عبيدة المعروف بأمين الامة لاهل دمشق اذ دخل مدينتهم صلحا بينما كان خالد يدخلها بالسيف . وأمثال هذه الرعاية المنصفة كثيرة في سير الخلفاء وكانوا اذا أوصوا عمالهم باستعمال العدل والاحتراس من المعصية والاستنكاف من القتل الكثير قالوا لهم « انه لولا ذلك لم تكن لنا بالاعاجم قوة اذ كان عددنا دون عددهم وعدّتنا دون عدّتهم فان استوينا فى المعصية كان لهم الفضل علينا بالقوة والاّ نُنصر عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوّتنا » فيظهر لك انه انما عم الاسلام بما عدل الخلفاء الراشدون رضى الله عنهم في زمن الفتح وما أوجد الله فيهم من حسن السيرة التى ذهبت فضائلها مثلا بين الناس حتى أن الخلق الكثير من الاعاجم كانوا يدينون بالاسلام على بعد الديار وليس ذلك الا لما يسمعونه من عدل الخلفاء وعفاف أنفسهم . فلعمرى انه لولا انقلاب خلافة الملّة الى ملك فسد في يد الأمويين لما بعد أن يعم الاسلام العالم بأسره والله تعالى أعلم بالغيب وله في قضائه حكمة تعالت عن أن يدركها العباد .

هذا هو السر فى اتساع الفتوح وحفظها في يد المسلمين والاعاجم يعلمون ذلك ولكنهم يقولون ان الاسلام غلب أمما لا مدنية عندها ولا نظام لملكها فقوى عليها . وهذا مردود من وجوه كثيرة ولا سيما ان فارس كانت من أضخم الدول سلطانا وأبعدها فى الحكمة أعراقا فلم يصعب عليه منالها كما لم يعسر عليه غلب الروم في الشام وهم بمكان من المدينة

لا يرام . ولست أقول الا أنه لما نشأ الاسلام كانت القياصرة في تلاش وانحلال . وكانت الفرس يمزقهم ظلم العمال . فكان ذلك داعيا الى انتزاع ملكهم من غير أن يناله اخفاق قد تحاماه الخلائف الاولون بجهدهم وهم بمكانهم من صلاح الرأى وحكمة السياسة . فلم تهزم للاسلام راية في أيامهم الى أن ذهبت الخلافة من بيت علي عليه السلام فذهبت سذاجة الملة وانقلب أمر الامة من الخلافة الى الملك كما قال النبي صلى الله عليه وسلم (الخلافة بعدى ثلاثون سنة ثم تصير ملكا عضوضا) ولله في خلقه شؤون وهو يقدّر الليل و لنهار .

وكان الفراغ من تقييد هذه الرسالة في أول يوم من رجب من السنة السابعة والخمسين بعد المائة من الهجرة النبوية المشرفة على صاحبها أشرف السلام وأزكى التحية .

﴿ لقائي وليّ العهد وحظوتي لديه ﴾

هذا كتاب اليك أبدأ فيه بذكر لقائي وليّ العهد فانا لفي بعض الايام . ونحن جلوس الى فقيه الاسلام . اذ دخل علينا البيت خادم من خدم الخليفة فتخوف الفقيه من شيء لم أدر ماهو . وكذلك الناس يغشاهم الخوف والانقباض كلما دخل عليهم خادم الخليفة على غير موعد (١) فقال له أبو يوسف سبق وهمي الى انك تطلبني لامر جلل قال أجل ان الامير يدعوك الساعة اليه لامر أقلقه الليل كله ولم يجر في خاطر أحد من

(١) هو أمر معروف في الحكايات وكتب التاريخ

العلماء التصرف في وجه يكون به كشف الغمة وتحقيق المسئول فدعا خالد بن برمك اليه فقال له عليك بتلاميذ ابى حنيفة وما فيهم أحفظ لعلمه من أبى يوسف (١) .

فلما سمع ذلك طابت نفسه وذهب ما كان يجده من الخوف ولم يلبث أن استوضح هـذا الخادم الخبر فأعلمه أن الامير حنق على الخيزران أم أولاده ليلا وقال لها فى سورة الغضب أنت طالق ثلاثا ان بتّ الليلة في مملكة أبى فلما سكن غضبه ووجدها براء من التهمة راعه أمر الطلاق فاستدعى الاعيان والفقهاء فلم يكن عندهم مايرجوه من الافتاء الذى يطيب له نفسا ففكر يوسف برهة فلم يفتح الله عليه بشيء .

وكنت في ذلك الوقت أجيل الفكرة فى امر الخيزران وأذكر مآثرها في الدولة وذلك المسجد الذى زينت به الزوراء فوقع فى نفسى مايكشف هذه المهمة فقلت لابي يوسف ان المساجد بيوت عبادة الله تعالى ولا تدخل في ملك أحد فلو بات الامير فيها الليلة ماحسبته يبيت فى مملكه ابيه فما كدت أنتهى من كلامى حتى كاد ينخلع من ثيابه لشدة الفرح وهو يقول لقد ظننت والله ان أعمال الفكرة في مثل هذا التخلص الجميل . جهد من غير تحصيل . وعناء للنفس ليس له من سبيل ، فأما اذ ابتدعت هذا الرأى الميمون فعلىّ عهد الله لاذكرنك عند الامير ليقربك اليه بما انت اهله من الخير ثم خرج وأنا أحسب للامير مسرة عظيمة مما

(١) الشريشى ٢*٣٦٧

رزقني الحظ استنباطه ليكون في حل من يمينه ومبرة له من قسمه .

فلم تكن الا ساعة حتى عاد الىّ نصيرٌ ذلك الحاجب قائلا (١) أجب الامير فقمت لساعتي أمتثل الامر فلما صرت في باب الدار وجدت جماعة من الغلمان قد أعدّوا لي بغلة فارهة من مطايا الامير مجلّلة بالديباج عليها حلية من الفضة فركبت وسار الغلمان بين يديّ حتى وصلنا الى دور الخلافة وقد كان أخبرني نصير عما جرى بين الامير وأبي يوسف من الحديث وانه لما مثل بين يديه كاد ألاّ يقبل عليه بالاستفتاء ظنا منه أن لا يكون من فتواه جدوى « والخلفاء وأولادهم يبدؤن الناس بالكلام وليس للناس أن يفتتحوه معهم » (٢) فلما استطلعه رأيه فيما أهمه من الامر وذكر له الرأي الذي تقدمت به اليه غلب عليه السرور حتى كاد لا يستقر به المجلس من القيام والقعود ثم سأله أذلك من معقوله أم من منقوله فقال له أبو يوسف لا والله وانما قائل هذا صديق لي من أبناء الفرس وأخذ يذكرني عنده بما استطاع من جميل الكلام .

فلما أقبلنا على دور الخلافة جزنا باب السور الكبير وسلكنا ممراً مفروشا بالحصباء الحمراء تحيط به حدائق القصر وجنان قد اتخذ فيها أحواض يتصوب منها الماء وعليها عمد من الرخام تقلّ قبابا مغشاة بالرسوم الموسومة بماء الذهب . ورأينا في طرف هذه الجنان صناعا يرفعون (٣)

---

(١) ذكره الاغاني ٣*٥٧ والعقد الفريد ٢*٩٩ (٢) ابن خلكان ١*٣١ (٣) الاغاني وابن الاثير ٦*٥

قصرا سماه أبو جعفر قصر الخلد (١) وأضافه الى قصر السلام (٢) الذى يسكنه فى هذه الايام فانتهينا من هذا الممر الى باب القصر وهو معقود تحت القبـة التى كانت مزينة فى عيد الفطر وهى علم الزوراء ومأثرة بنى العباس فلما جاوزناه انتهينا الى دار مسورة بالعمدان وبها مقاصير منجدة أرضها وحيطانها بالارمنىّ (٣) وفي أطرافها دهليز ينبعث اليه الضوء من شمسيات قد اتخذت في قباب بديعة الشكل حافلة الزينة فجزناه فاذا نحن في دار أفسح من الدار الاولى ولها باب عليه مسامير من الفضة والذهب (٤) وفيها كثير من العمدان التى يوجّه الخلفاء عنايتهـم الى تزيينها بالرسوم والاكثار منها فيما يبنون من القصور حتى انى عددت فى صحن من صحون دور الخـلافة سبعا وأربعين سارية ولو أن ثمـانين غـلاما وقفوا وراءها ما رآهم من هو في صدر الدار .

ثم انتهينا من هذا الدهليز الى سلّم من الرخام ينتهى بالراقى (٥) عليه الى مجلس الامير وناهيك به مجلسـا قد فرش بالرخام المجزّع وبين كل رخامة قضيب من الذهب يشد بعضها الى بعض (٦) وقد اتخذ فرشه من الديباج والبسط الطبرية (٧) عليها أبيات (٨) في مدح الامير وفيه كراسىّ

(١) القزوينى ٢١٠ (٢) الاغانى ٩*٤٥ والسـيوطى (٣) الاغانى ٥*١٧٣ والاتليـدى ٢٢٦ (٤) الاتليدى ١٤٦ (٥) فى الاغانى ٦*٧٨ ما يشير الى أن قصور الخـلافة طابق فوق طابق (٦) الاغانى ٥ * ١٦٦ (٧) المسعودى ٢*٨٢ والاغانى ٥*٥٩ و١٢٨ (٨) الـكتابة على البسط مذكورة في الاغانى ٥ * ٨٦

مرصعة باصداف اللؤلؤ وعليها جماعة من الاعيان خافتون كأنّ على رؤسهم الطير (١) وفى صدرهم الامير جالساً في قبة قد اتخذ لها فرشاً مبطناً بأنواع الحرير والديباج المنسوج بالذهب والابريسم (٢) واذا به أسمر طويل القامة معتدل الخلق مليح الشكل جعد الشعر بعينه اليمنى نكتة بياض وعلى رأسه خصيّ واقف بالمظلة وهو من الخدام المقربين الى السلطان وأهل بيته ومن يستميلهم الناس بالمال الكثير ليذكروهم عنده أو يخاطبوه في حاجاتهم

فلما أقبلت على المجلس غلبنى البهر من جلالة المهدى فسلّمت عليه بالامارة فردّ عليّ السلام بخفض الجناح وأظهر ما حسب لى عليه من المنة وقال لى انه يأنس بي ويحب أن يصيّر الى تأديب ولديه موسى وهارون لما بلغه عنى من العقل فدنوت من كرسيّه وقبلت الارض بين يديه وقلت له في موقف الشكر على جزيل ما أولانى من النعمة انك قد جعلت لى بهذا شرفاً لم ينله أحد قبلى من العلماء فقال لي أحسن الله عنا جزاءك فما الكثير من فعلنا بك بجزاء لليسير من حقك (٣) ثم انه دعا أبان بن صدقة كاتبه فوقف بين يديه (٤) فقال له اكتب له بدارنا على دجلة وأقطعه من ضياعنا الخاصة ما تقيمه غلّته على السعة ثم أمر لابى يوسف بخمسين ألف درهم معجلة (٥) وكان هذا أول اتصالى بولىّ العهد أصلحه

---

(١) الفخرى ٥ (٢) المسعودى ١* ٢٣٤ (٣) الاغانى ٩ * ٣٠ (٤) المسعودى ٢*١٨٢ (٥) الاغانى ٣*٩٥

الله وتولى عنى مكافأته بما هو واسع من الجميل .

﴿ في تأديبي الاميرين وما توالى عليّ من نعمة بنى العباس ﴾

ولما اتصل هذا الخبر بالخيزران وقد كانت في دار لها تسمى باساس(١) عادت الى دور الخلافة في موكب عظيم من الغلمان المزينة والخيل عليها القطوع من الديباج والحلية الثقيلة من الفضة حتى تظهر ما عندها من الابهة مع تقرير موضعها من السلطان . وأقام الامير فى ذلك اليوم مأدبة صرف في زخرفتها وسعه وجلس فيها لعطاء قريش (٢) وسائر الناس حتى امتلأت المدينة باسباب المسرة والافراح ثم جاءنى من لدن الامير من ينطلق بي الى الدار التى وهبنى على دجلة فاذا هى مشيدة على أساطين رفيعة وحنايا مقوسة وقباب مخرمة ولها روشن (٣) بديع الحسن يشرف على دجلة وما وراءها من الرصافة وفيها من السدلات والأستار الحريرية والبسط الديباجية والقماقم النحاسية المنزلة والآنية المزخرفة والخزائن(٤) المجزعة ما ليس مثله الا في أمتعة الملوك وجلسائهم مما (٥) يتكرمون به عليهم في سبيل الهبات حتى لقد كانت الاوتاد التى تدق بجانب الباب ليعلق فيها الداخل (٦) ما ثقل عليه من ثيابه متخذة من العاج الاصفر وعليها رسوم منزلة بالذهب تمثل ثماراً تجتنى بالابصار لحسنها ولفرط ما أبدع فيها الممثل من الصناعة .

---

(١) المسعودى ٢ * ١٩٦ (٢) الاغانى ٧ * ٩ (٣) الاغانى ٥ * ١٠ (٤) الاغانى ٥ * ١٠٩ (٥) الاغانى ٥ * ٤٠ (٦) الاغانى ٤ * ٥٢

ثم جاءنى من لدن الخيزران خادمان للمهدى لم تكن نوبتهما (١) في ذلك اليوم بملازمة بابه ووضعا بين يدىّ اناءين من الذهب في أحدهما منثور (٢) بضيعة في السواد وفي الآخر مخنقة في وسطها جندارة عن يمينها ويسارها أربع يواقيت وأربع زمردات وما بينها من شذور الذهب (٣) ثم جاءنى وصيف آخر للمهدى اكرمه الله يحمل الىّ رقعة بالضيعة التي سبق لى بها العطاء وهى في السواد من جوار الحيرة يقال لها العمرية (٤) ثم بعده وصيف لأم المهدىّ وهى بنت منصور الحميرية ومعه اناء من ذهب قد انتثرت عليه اللآلئ (٥) ثم وفد للغالية أخته ومعهم جام (٦) فيه دنانير وخاتم من العقيق قد رسمت فيه أم القرآن ولكن بأحرف صغيرة لا تبصرها العيون المجردة وذلك أحسبه من محاسن الاشياء التي لا تكون الا عند الملوك فهطلت علىّ النعمة غيثا من الذهب وليس ذلك الا لأنى وجدت منصرفا في القول لحلّ تلك اليمين

وأخذت من ذلك اليوم في تأديب الاميرين موسى وهرون بما أحب أبوهما وأوصانى به يحيي بن خالد وزيرنا ولكن كنت الى الصغير أميل منى الى الكبير بما وجدت من انصبابه الى المطالعة (٧) واعتباره بأقوال الحكماء ووددت أن يكون هو السابق في الولادة لتكون له

---

(١) الاغانى ٣*١٨٤ (٢) المستطرف ١*٢٤٣ (٣) الاغانى ٧*٣٦

(٤) ذكرها الاغانى ٩*١٠٣ (٥) ٦*١٣٣ (٦) ابن خلكان ٢*٤٥٥

(٧) الفخرى ٢٣٠

حقوق الولاية قبل أخيه بما هو جدير به من تعمير البلاد . وتقويم العباد. لانى رأيت الكبير صعب المرام شكس الاخلاق وقد عرفت ذلك ذات يوم من أمر لم يتدبر معناه فلما استطلعته فيه رأيه حرد عليّ وطار طائره من الغيظ فحفظت له ذلك وأخذت أشغله من العلم السهل بما لايحتاج الى كبير مطالعة ولا الى تكلف عناية به فسرّ لذلك وأوسعنى عما بدر منه في وقت الحدة اعتذارا . فعرفت من ذلك انه صعب المرام (١) وأن من توقاه وعرف أخلاقه دخل فى رضاه ومن فتح فاه فاتفق له أن يفتحه بغير ما يهواه اطّرحه وأقصاه (٢) وهذا كما ترى خلق غير محمود في أولاد الملوك الذين يتجافون عن الحكماء والوعاظ الى تقريب من يداهنهم بالثناء على ماليس فيهم من الخلال فان ذلك دليل واضح على بعد الحزم منهم وضعف البصيرة عندهم .

أما هرون رعاه الله فانى عرفت فيه من الرقة واللطافة وسجيّة الحلم ماأعظم في عينيّ منزلته ولم أر في أولاد الملوك أجمل منه خلقا وخلقا وفيه مماثلة للفضل بن يحيي بن خالد فى الصورة وهما في سنّ واحد ونشأة واحدة حتى أنهما تبادلا لبن الرضاعة من ثدى واحد (٣) فكانت أم الفضل ترضع هرون والخيزران ترضع الفضل وهو أبيض

---

(١) المسعودى ٢*٢٠٢ (٢) الاغانى ٥*١٦ (٣) ابن الاثير ٦*٣٩ وأبو الفدا ٢*٥ وفي الفخرى ان من بعض ماقيل في مديح الفضل بن يحيي قولهم.
كفى لك فخرا أن أكرم حرة * غذتك بثدى والخليفة واحد

(١) اللون واسع العينين عالى الجبهة منطوٍ على خير وصلاح وسلامة قلب واذا تألم من أمر لم يستفزه الغضب ولا يزيد على هاه هاه (٢) كلمة غيظ واحدة وأنا أتشرف بتأديبه (٣) الى هذا اليوم وهو سنة ثمان وخمسين بعد المائة وقد أتى عليه من العمر أربعة عشر عاما أصلحه الله ووفقه الي مابه صلاح الملة والدولة بمن الله وكرمه .

ولست اكتم عنك انه لما صارت اليَّ نعمة بنى العباس تحدث الناس بها كثيرا في الحضرة وأحدثت في النفوس غصصا يثيرها الاشفاق على دولتهم من المهدىّ أن يجرى على سنّة أبيه فى تقديم الاغراب عليهم في المراتب الى أن تخلو منهم مناصب الدولة غير أن مايخافونه من هذا الامر لا يتعدّى الى غير مصلحتهم الخاصة فانما يعظم الاسلام بانضمامنا وجميع المسلمين اليه في غرض واحد حتى تشتد صولته ويروج فيه سوق الادب

(١) العقد الفريد ٣*٥٤ والخميس ٢*٣٣١ (٢) الاغانى ٥*٦٦ (٣) قال فى مروج الذهب انه لما أسلم المهدى ولديه الهادى والرشيد الى المؤدب أوعز اليه ان يصير يده عليهما مبسوطة وطاعته منهما واجبة وأن يقرئهما القرآن ويعرفهما الآثار . ويرويهما الاشعار . ويعلمهما السنن ويبين لهما فضل الحكماء فى مواعظهم ويبصرهما بمواقع الكلام ويمنعهما الضحك الا فى أوقاته ويأخذهما بتعظيم الامراء من بنى هاشم ورفع مجالس القواد وأن لا تمر به ساعة الا وهو يغتنم فيها فائدة يفيدها من غير أن يقسو عليهما فيميت ذهنهما ولا يتوسع فى مسامحتهما فيستحليا الفراغ ويألفاه وأن يقومهما مااستطاع بالقرب والملاينة فان أبياها فعليه بالشدة والغلظة .

بمـا يوجده له العجم من فوائد العلم ومحاسن الصـناعة ولو أن الخليفـة لم يقدمنا لهذه الغاية لم يكن له مع ماسبق من خوفه من الامويين الا أن يتجافى عن العرب ويقصيهم عن المراتب الى أن ترسخ في قبائلهم دولته من غير حاجة الى قتـل المسلمين بالمسلمين في فتن صعاب لا يرجو بها بلوغ أمنيته وانمـا رزق من السياسة الحـكمة في تقديم الاغراب واستمالتهم الى غرضه حتى يستظهر بهم على تقويم ملـكه بما يظهر في نفسه وهو محروس برجالهم من الجبروت الذى لا يلتمس الى تمـكين مهابته من المخالفين له سواه كدأبه فى الانقطاع عن اللهو (١) وبعـده من البهرجة التى تبعـده عن شعائر الملة وتوجّسه من الناس ريبة يتهم فيها كثيرا من أهل بيته أنفسهم وتجافيه عن الجلاّس والندماء الا على ستارة يضرب بها فيما بينه وبينهم على بعد اربعين ذراعا (٢) الى امور غيرها تدل على أن مثله في التيقظ مثل الذين يستقلون بالملك على غير استرضاء الناس ثم يمر بهم زمانهم فى أشد مايكون من الخوف والريبة .

﴿ بقيـة من أخبـار أبى جعفر ﴾

وقد عرفت بترددى الى دور الخـلافة كثيرا من أخبار أبي جعفر وسياسته فوجدته ينظر (٣) في أحكام الدولة وأمور العمال دون أن يدع

---

(١) الخميس والعقد الفـريد وابن الاثـير ٦*٨ والفخرى ١٨٧ (٢) السيوطى (٣) ابن الاثير ٦*١٠

لنفسه فرصة يستريح فيها من الاعمال فاذا طلع النهار جلس في ايوانه ونظر في حال الامة وعزل الولاة الذين يريبه منهم مخالفته ونصب (١) من يعرف فيه الامانة وتظهر منه النجابة والفطانة مكانهم لا يزال آخذاً في ذلك بما يروم من اذلال المخالفين له الى قبيل الظهر فاذا تناول الغداء عاد الى النظر في المصالح والاهتمام بأمر الجند فاذا صلى العصر جلس لاهل بيته وفاوض أعمامه وغيرهم فاذا صلى العشاء نظر في كتب العمال مما تجمع في النهار وشاور (٢) من يركن اليه من سمّاره تلك عادته من يوم ولى الخلافة .

وان تذكر رعاك الله ما وصفته لك من نحوله في الرسالة السالفة ثم تضف الى ذلك ما أنا ذاكر لك من سهره على تدبير المملكة تمثل لك صورته بما هو مطبوع فيها من آثار المجاهدة العظيمة التى أفنى عليها عمره وطال منها عناؤه فان أيامه قد انقضت بين مخالفة الامة له والتياث الجند عليه حتى اقتضت الحال أن يوجد الفرقة فيهم بين مضر وربيعة والخراسانيَّة (٣) ليملك البعض بالذى هو واجد على البعض الآخر فترى أن ما لقى من تصاريف الزمان هو الذى جعله على سوء ظن من الرعيّه فهو لا يركن في أموره الا الى وزيرنا خالد أعزه الله ولولاه ما استوى له الملك بين تغلب الاكراد (٤) في فارس وظهور الخوارج فيما اليها من البلدان .

وقد علمت مما تقدم اليك من الكلام أن البرامكة يميلون بطبعهم

---

(١) الماوردى ١٣٧ (٢) المسعودي ٢*١٨٤ (٣) ابن الاثير ٥*٢٣٩

(٤) ابن خلكان ١*١٤٩

مع أولاد عليّ عليه السلام فلما بعُد خالد عن الحضرة لحرب الأكراد (١) تمادى أبو جعفر مع وزيره أبى أيوب المورياني (٢) في سياسته مع أهل البيت من القتل والعنف وجاء بالنفس الزكية وأخيه ابراهيم وقتلهما على حنق كثير من اهل بيته عليه ولا سيما عمه عبدالله الذى غلب بنى أميّة في الشأم فانهُ لما أحس منه بالانحراف أسكنه في قصر بنى أساسه على الملح حتى اذا دجا الليل أرسل الماء حوله فذاب الملح وسقط البيت عليه (٣) وهذا من الامور التي يتناقلها الناس عنه بسوء الاحدوثة كما يتناقلون ذكر قتله لابى مسلم داعية الامامية فى خراسان ، كلاهما من القواد الذين غلبوا الامويين وأقاموا ملكه فى فارس فالعراق فخراسان فما بين المسجد الاقصى الى البلد الحرام . ولقد فاوضت أبا يوسف يوما فى هذا الشأن فحدثنى عن جبروت أبى جعفر بعد أن ذكر قتله (٤) الكثير للخلق وتقويم ملكه بسفك الدماء أن سلامة أمة لما حملت به رأت في منامها كأن سبُعا خرج من قبلها فأقعى وزأر فأقبلت عليه السباع من كل ناحية وكلما انتهى اليه سبع سجد له (٥) فصح تعبير منامها بما يراد من معنى الملك والظفر والسبعُ وان كان بمكان من القوة فانه أقرب الى الغدر منه الى سلامة الطويّة .

ولقد دخلت على أبى جعفر مرة واحدة بعد رجوعه من الحيرة وهى

---

(١) ابن الاثير ٥*٢٣٦ و٦*٦ (٢) المسعودى ٢*١٨٢ (٣)الفخرى ١٩٨ وابن الاثير ٥*٢٣٥ والمستطرف ١*٩٦ (٤) الخميس ٢*٤٢٣ (٥) المسعودى

المدينة التي يقصـدها (١) حين يشـتد عليه الحر في الزوراء اذ ليس في جوارها ما يصلح لسكنى الملوك غيرها (٢) فلما أذن للناس بالدخول عليه صحبت لسان الشريعـة أبا يوسف فأصبناه في مجلس من الامراء وفيهـم شاعر مقرب اليه يقال له أبو دلامة وهو يدنيه ويضحك منه على بيتين من الشعر (٣) قالهما في استهجان الزيّ الذي عم استعماله في لباس الخواص والعوام كما تقدم كأنهم في كتابة الآية بين أكتافهم ينبذون كتاب الله وراء ظهورهم (٤) فلما أدينا فروض السلام أمرنا بالجلوس وقال لي بعـد أن قمنا بالواجب من اجلاله انى رأيتكم « يريد الفرس » أهل وفاء (٥) وفطانة فوليتكم المناصب في دولتـنا ولم أر بنى مروان قـد انتبهوا لذلك ولا تكلفوا العناية في تجميل الدولة بانتفاعهـم من آداب العجم فقد كان عبد الملك جباراً لا يبالي بما يصنع وكان سليمان همه بطنه وفرجه ثم أفضى أمرهم الى أولادهم المترفين فكان همهم الشهوات وركوب الملذات من معاصي الله عز وجل جهلا منهم باستدراجه وأمنا منهم لمكره مع اطّراحهم صيانة الخلافة واستخفافهم بحق الرياسة .

فلما ذكر ذلك عنهـم جعل يضرب الارض بمخصرة كانت في يده فوقع على بنى أميـة ممن حضر المجلس قذف شديد يرومون به موافقـة

---

(١) وفى ابن الاثير ٦*٥٥ ان الرشيد سكنها أيضا برهة من الزمان (٢) الاغانى ٢*١٢٥ (٣) البيتان هما قوله

وكنا نرجى من امام زيادة . فجاد بطول زاده فى القلانس . تراها على هام الرجال كأنها

دنان يهود جللت بالبرانس . (٤) العقد الفريد ١*٩٨ (٥) ابن الاثير ٦*١٢

السلطان وقالوا انهم كانوا يعاقرون الخمر ويظلمون العباد حقوقهم ويستحلون أخذ أموالهم بغير استحقاق ويكلفون اهل القرى اذا خرجوا الى الصيد بما لا طاقة لهم به من الضرب والاهانة ولا يقنعهم ذلك حتى يحطموا زرعهم في طلب درّاج قيمته نصف درهم ثم انتقل بعضهم من هذا القذف الى ان يحث الخليفة على تتبع الهاربين منهم فى جميع الوجوه وسمعت من انشده هذين البيتين المشهورين اللذين قالهما سديف لابى العباس لما تم له الغلب عليهم .

لا يغرنك ما ترى من رجال　　ان تحت الضلوع داء دويّا
فضع السيف وارفع السوط حتى　　لا ترى فوق ظهرها أمويّا

فامتلأ وجه الخليفة غضبا وقال لعمرى ان الامويين اهل مظالم قد غمطوا النعمة واستحلوا ما حرم الله عليهم فخوى نجمهم وثلّ عرشهم ولله فيهم(١) نقمة ساتتبعها فيهم حيث لقيت منهم عاتيا فعجبت من مظاهرته بهذا الكلام وبين يديه كثير من الذين يتقربون اليه بالتدليس والمحال . وانا لا اقول ان الامويين منزهون عن هذا الطعن ولا عن أشد منه ولكنى أرى انهم لو لم يكونوا حقيقين بمثله لرماهم كثير من هؤلاء الجلاس بأنكى منه تقربا من السلطان فيما يحب من القدح فى اعدائه وكان ذلك اول ما لقيت أبا جعفر ثم لم اره بعد ذلك لانه ركب (٢) الى مواطن الحج المباركة شرفها الله بكرمه واحسانه .

---

(١) ابن الاثير ٥*١٦٧ والقزوينى ١٦ (٢) ابن الاثير ٦*١٦ .

في ركوب الخليفة الى الحج

كان لخروج الخليفة الى الموسم موكب ليس أحفل منه في مواكب الملوك فقد أقبل أهل المدينة الى باب الكوفة (١) حيث اجتمع من النافرين الى الحج الشريف من العراقيين والخراسانيين والفرس وغيرهم مالا يحصى عدده الا الله وكلهم مجهز ابله وكسوته وقِرَبه وخُرثيّه وطعامه وهو الاخبصة اليابسة والخشنكاج والاقراص المعجونة باللبن والسكر والكعك المنضد والفواكه اليابسة وغيرها من طعام الحاج (٢) ومعهم قطعة من الجند تحوطهم (٣) في نزولهم وارتحالهم وفي طليعتهم هوادج تظلّلها قباب من الديباج المخوص بالذهب (٤) وفيها يقيم الامير المولّى على الحجاج وله في إمارته النظر في أمور عشرة وهى أن يجمع الحجاج فى مسيرهم ونزولهم حتى لا يتفرقوا فيخاف عليهم التوانى . وأن يرتبهم في المسير ليعرف كلّ منزله ويألف مكانه اذا أناخوا في بلد . وأن يرفق بهم في المسير حتى لا يعجز عنه ضعيفهم ولا يضل عنه منقطعهم . وأن يسلك بهم أوضح الطرق وأخصبها . ويتجافى أوعرها وأجدبها . وأن يرتاد لهم المياه اذا قلّت والمراعى اذا انقطعت وأن يحرسهم اذا نزلوا ويحوطهم اذا رحلوا . وأن يمنع عنهم من يصدّهم عن المسير بجهاد لا بمال . وأن يصلح بين المتشاجرين لانهم يكونون تحت ولايته كأهل مدينة تحت ولاية

(١) هو من ابواب بغداد (٢) المسعودى ٢*٥٦ (٣) الاغانى ٩*٦٤
(٤) ابو الفداء ١*١٥٧

رئيسهم . وأن يؤدب خائنهم ويلزم الناس آدابهـم . وأن يراعى فوات الوقت فلا يخشى عليهم ضيقهُ لانهم اذا لم يصلوا عرفة في يوم عرفة مابين زوال الشمس الى طلوع الفجر فقد فاتهم الحج (١)

ولما صارت الشمس على ارتفاع قامة وقـد غصّت بالناس المواقف وضاقت بهم الساحات ضرب البوق ايذانا بركوب الخليفة ثم لم يلبث أن أقبل مرتفعا على فيل أبيض قد استرسلت عليـه الفضـة (٢) في الحلية الثقيلة وهو جالس في هودج (٣) منزل بالاصداف اللامعة وعلى القبة أستار من الديباج يتخللها رسوم من الذهب وفي يده قضيب الخلافة وفي الاخرى الخاتم وعليه جبّة وشى (٤ من فوقها بردة خضراء للنبى صلى الله عليه وسلم وهى غير البردة التى كانت لملوك بنى أميّة يلقونها على أكتافهم في جلوسهم وركوبهم لانها فقدت بفقدان الخلافة منهم وكان قد اشتراها معاوية من آل زهير بن أبى سلمى بأربعين ألف درهم (٥) وانما هـذه البردة هى التى أعطاها النبى صلى الله عليه وسلم لاهل الابلّة لتبقى عندهم بركة فاشتراها أبو جعفر بثلاثمائة دينار (٦) واتخذها في شعار الخلافة موضع البردة التى كانت عند الامويين . وأما الفيلة فانه لم يسبق أحد من ملوك العرب الى اتخاذها فى المواكب وقد أخبرنى نصير ذلك الخادم الذى مضي فى هذه الرسالة ذكره أنه انما اتخذها مركبا له لما كان من تعظيم الملوك

---

(١) الماوردى ١٨٧ (٢) المقدمة ١٤ (٣) الكشكول (٤) كذا في العقد الفريد ٣*١٥٦ (٥) أبو الفداء ١*١٥٦ (٦) السيوطى

السالفة اياها واقتنائهم لها واعدادها للحروب والزينة فى الاعياد وغيرها اذ كانت أوطأ مراكب الملوك وأمهدها (١) . وكان يصحب ابا جعفر جماعة من الامراء ورجال بيت الخلافة ووراءهم الابل التى يظّعنها حريمه واهل بيته وفيهم موسى ابن المهدىّ حاجا (٢) ومعهم حرس خاص بهم يحملون الرايات السود .

فلما وصل موكبهم الى موقف الحجاج ارتفعت اصواتهم بالدعاء وعلا ضجيجهم بالتكبير والتهليل فكان الواقف يستشعر من عزة الاسلام مالا يخالج النفس أعظم منه اذ ليس من فروض العبادة ماتظهر فيه ابهة الدولة غير حج البيت الحرام فلما وقف الامراء والعظماء الى وداع الخليفة اوصاهم بالسهر على الرعية (٣) وأن يسألوا الله له النعمة ويوفقه عطائهم ويلهمه الرأفة بهم . ثم انه عزم على وليّ العهد ان يصحبه الى قصر عبدويه على مسيرة يومين (٤) من الحضرة لتتم له الخلوة به على انفراد اذ كان يحسب من هذا الموسم اتيان مالا مرد له وقد كان يرى فى منامه كأن نجوما تهوي من السماء (٥) فيتشاءم من ذلك . فلما نفخ البوق ايذانا بالنفير زحف الحجاج كالبحر المتلاطم الأباب . كان سفنه الركاب . وشرعها الظلائل المرفوعة والقباب . وفى مقدمتهم هودج الخليفة قد لمع ذهبه وقصبه كأنه الشمس تشرق على الناس نورا من جلال الخلافة .

---

(١) المسعودى ١*١٨٥ (٢) ابن الاثير ٦*١٣ (٣) السيوطى (٤) أبوالفرج ٢٢٠ (٥) ابن الاثير ٦*٦

ولما كان بعد ذلك عاد المهدى الى الحضرة وشرع في مباشرة الاحكام على الوجه الذى يريده أبوه حتى كانما نحن اليوم فيولايتهأشبه بنا في ولاية أبيه الا فيما يصير الينا من العطاء الذى لم نتعوده من أبي جعفر وأما ماسوى ذلك من أمور السياسة فلم يكن له الا أن يقتفى فيها أثره وقد أوصاه وهو يودّعه في قصر عبدويه الوصية التى هى من أحسن ماأوصى الملوك به أولادهم فى السياسة بدأ فيها بتحريضه (١) على سكن الزوراء وان لا يستبدل بها غيرها وان يظهر كرامة أهل بيته(٢)ويحسن الى مواليه ويستكثرمنهمولاسيما أهل خراسان اذ كانوا شيعتهم وأنصارهم ومن لاتخرج محبتهم من قلوبهم (٣)وأنلا يستعين باحدمن بنى سليم(خوفا من ميلهم مع أهل البيت) وأن يحفظ النبى صلى الله عليه وسلم فى أمّته ويلزم حدود الله والآدميين ويعف عن البغي الذى لاحاجة به اليه مع ماخلفه له من المال وأن يشحن الثغور ويضبط الاطراف ويعدّ الكراع والرجال ويسيء الظن بالعمال وأن لايدخل النساء فى امره (٤) ولا ينام الا وهو مستيقظ الى آخر ماأطال به فى هذه الوصية التى ذهبت مثلا بين وصايا الملوك

---

(١) ابن الاثير ٦*٧ وابو الفداء ٢*٧ (٢) ابو الفرج ٢٢٠ (٣) العقد الفريد (٤) الفخزى ٤٨

﴿ فى ذكر من لقيته من الشعراء ﴾

يحسن بى في ختام هذه الرسالة أن اذكر لك عن الشعراء الذين زهت بهم دولة أبى جعفر ما ورد على الخاطر الفاتر ولكن بايجاز يدل على موضعهم من الاجادة في مذاهبهم دون اطناب ينتهى الى مالا تسعه الصحف من ذكر أبياتهم ونوادرهم · فأبدأ منهم بذكر بشار بن برد البصرى وهو ضرير قد لقيته في مجالس البرامكة (١) لاول قدومى الى الزوراء وكان خالد أعزه الله قد أحب أن يطلق عليّ اسم الزائر ويبطل عنى اسم السائل الذى كان ينعت به الغرباء في ذلك الوقت (٢) لقوله لى انى والله لا أحب اسم السائل الا لطلاّب الاحسان وأرفع قدر الكريم عن أن يسمى به أمثال هؤلاء المؤملين لان فيهم الاحرار والاشراف ومن لعله خير ممن يقصد وأفضل أدبا ولكنا نسميهم الزوار فوجد بشار لنفسه نصيبا من كلام الوزير فأطلق لسانه في الانشاد بما دل على سرعة خاطره الى النظم وسرعة تصرفه في فنون الشعر .

وقد رويت لبشار هذا الشاعر نحواً من مائة قصيدة ورأيت له في أكثرها ابتداء يرفعه الى مساماة المقدمين من شعراء العرب فلقد سمعت من لا أحصى من الرواة يقولون أحسن الناس ابتداء في الجاهلية امرؤ القيس حيث يقول (ألا عم صباحا أيها الطلل البالى) وحيث يقول (قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل) وفي الاسلام القطامى حيث يقول

---

(١) الاغانى ٣*٣٦ (٢) الاغاني ٣*٣٦ الوطواط ٢٤٩ والفخزى ١٨٥

(انا محيّوك فاسلم أيها الطلل) ومن المسلمين بشار حيث يقول .

أبى طلل بالجزع أن يتكلما   وما ذا عليه لو أجاب متيما
وبالفرع آثار بقين وباللوى   ملاهى لا يعرفن الا توهما

ووجدت له من جمال التشبيه ما يعجز البصراء عن الاتيان بافضل منه وفي قوله .

كانّ مثار النقع فوق رؤسنا   وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

سموّ لم يعلُ عليه أحد من المتقدمين ولا المتأخرين وهذا من الغريب الذي لم يسمع بمثله عن أحد من العميان لان قولهم منحصر فى الزهد والمديح والهجاء وما يتصرفون به من أبوابها بخلاف هذا الشاعر فانه يتوسع منها الى سائر المذاهب من غير أن يقع فى الانحطاط الذي لا يؤمن على من يدخل نفسه فيما هو غريب عنه من الوقوع به وان كان المتبادر الى العقل أن يكون بعيدا عن تصور الحسن والاشراق فما هو الا أغزل الشعراء (١) حيث يقول .

أنا والله أشتهى سحر عينيك وأخشى مصارع العشاق .

وهذا أحسبه من المواهب الطبيعية والملكات النفسانية ولذلك أقدمه على جميع الشعراء من هذا الوجه الذى يجلّه عن التكلف ولا أجد فيه من انتقاد عيب (٢) بشعره الا استرساله في الهجاء واختلاقه بعضاً من الالفاظ

---

(١) الاغانى ٦*٤٩ وابن خلكان ١*١٢٥ (٢) الاغانى ٣*٤١ و ٥٣ و ٧٣ وابن خلكان ٢*٢٥٢ وابن الاثير ٦*٢٧

التى يحتاج اليها لقيام أبياته على القافية من غير أن ترد في لغات العرب .

ولقيت من الشعراء المقدمين مروان بن أبي حفصة وهو منقطع في شعره الى مديح معن بن زائدة (١) لانه كفاه مؤنة الاستعطاء من غيره ولما أتى في بعض مديحه له على ذكر بلائه في حرب الراوندية بقوله .

ما زلت يوم الهاشمية معلنا   بالسيف دون خليفة الرحمن
فمنعت حوزته وكنت وقاءه   من وقع كل مهند وسنان

أعطاه مائة ألف درهم وذلك أعظم ما أعطى الملوك من الجوائز حتى أن أبا جعفر لما علم بذلك اكبره وقال في سبيل التعجب من سماحة معن لله درّه من أعرابى ما أهون عليه ما يعز على الرجال وأهل الحرَم (٢)

وقد انتهت بلاغة هذا الشاعر الى القصيدة اللامية التى يقول فيها مادحا هذا الامير .

بنو مطر يوم اللقاء كأنهم   أسُود لهم في غيل خفّان أشبل
همُ يمنعون الجار حتى كأنهم   لجارهمُ بين السماكين منزل

الى أن يقول .

تجنّب لا في القول حتى كأنه   حرام عليه قول لا حين يسأل
تشابه يوماه علينا فاشكلا   فلا نحن ندرى أى يوميه أفضل
أيوم نداه الغمر أم يوم بأسه   وما منهما الا أغر محجَّل

(١) الاغانى ٩*٤٤ (٢) المسعودى ٢*١٨٣ والاغانى ٩*٤٤ وابن خلكان ٢*١٦٠ والمستطرف ١*٧٣

ولكنى سمعت من يقول انه رفعها في حول كامل (١) فقالها في اربعة اشهر وانتحلها فى اربعة وعرضها في اربعة فجاءت كانها السحر الحلال (٢) يعجز عن مثلها الشعراء ولكن هذا يدل على ان علمه اكثر من عقله وان الشعر عنده صناعة ينال نفسه منها عناء شديد وانما يحب من الشعراء سرعة الخاطر الى النظم كمثل ما نعلم عن العربان قولهم الشعر ارتجالا فى المجالس والاسواق.
ومن كلام مروان.

طرقتك زائرة فحىّ خيالها   بيضاء تخلط بالجمال دلالها (٣)
قادت فؤادك فاستقاد ومثلها   قاد القلوب الى الصبّا فأمالها

وممن لقيته من شعراء هذه الدولة ابو اسحق اسماعيل « من قبيلة عنزة (٤) » ويعرف بابى العتاهية وهو من المطبوعين المجيدين يقول المائة والمائة والخمسين بيتا فى اليوم الواحد حتى ليس الي الاحاطة بجميع شعره من سبيل وله كلام لم يسبق اليه احد (٥) كقوله.

النـاس فى غفلاتهـم   ورحى المنيـة تطحن

وله من بعض كلام (٦)

لا تأمن الدنيا على غـدرها   كم غدرت قبل بامثالـكا
أجمعت النـاس على ذمهـا   وما أرى منهم لها تاركا

---

(١) الاغانى ٩*٤ (٢) ابن خلكان ٢*١٣١ (٣) في العقد الفريد . بيضاء تنشر بالحباء دلالها . (٤) الاغانى ٣*١٢٧ (٥) الاغانى والعقد الفريد ١*٣٧٤ (٦) المسعودى ٢*٢١٨

وهو يأخذ في ذلك على أسلوب سهل يروم أن تفهمه العامة وترضى به الخاصة وان كان منحطا عن لغة الاولين في فصاحة الالفاظ الا أن تصرّفه في الشعر مقصور على وصف الآخرة (١) ولم أحفظ له من المديح غير بيتين قالهما في عمر بن العلاء .

ان المطايا تشتكيك لانها * قطعت اليك بسابسا ورمالا

فاذا وردن بنا وردن خفائفا * واذا صدرن بنا صدرن ثقالا

وهذا أحسن مايقال فيمن يتوسع بالكرم الى حد الممدوح اذ لايخفى أن وراءه من المديح مايترك البلاد والعباد والحيوانات العجم ناطقة بما له من الجميل .

ولقيت منهم أبا دلامة زند بن الجون وهو من الشعراء المجيدين لكنه قد أضاع شعره في استعطاء أبي جعفر وهو بمكانه من الامساك كما علمت وقد قال فى الثناء عليه .

لو كان يقعد فوق الشمس من كرم * قوم لقيل اقعدوا يا آل عباس

ثم ارتقوا فى شعاع الشمس كلكم * الى السماء فأنتم أكرم الناس

وهذا كلام يسمو به الى جمال الشعر ويملك العقول بما أودعه من وصف السعادة التى صوّرها محفوفة بالنور ولكن قد ضاع تأثيره في النفوس يبعد الممدوح عن محاسن الكرم التى يروم ان تكون فيه بما يتحببه لنفسه من الصلة . وقد وجدت أبيات هذا الشاعر محلاّة بالخلاعة كما أنى وجدته

---

(١) الاغانى ٣*١٢٦

يتوسع فيها الى المجون (١) وكثيراً ما كنت ألقاه في مجالس المهالبة يلتمس نصيبه من عطائهم بما يتصرف به من الهزل والمزاح .

ومن الشعراء المجيدين محمد بن المولى الاعرابيّ لقيته في مجالس المهالبة مرة واحدة وقد قصدهم من البادية وقال فيهم المدائح الرنانة فأجزلوا عطيته من المال وقد حفظت له من جملة أبيات يقولها في مديح روح بن حاتم من أمرائهم (٢)

انى لأرجوان لقيتك سالما * أن لاأعالج بعدك الاسفارا

وكان روح عند ماأنشده اياه قد غلبته الاريحية فأمر بافراغ المال عليه حتى تثقل به فقلت للامير ماأنت الامن يقول فيه زهير .

تراه اذا ماجئته متهللا * كأنك تعطيه الذى أنت سائله

فقال والله لأن أعطى أحب اليّ من أن أمدح . ولابن المولى كلام يقرب أن يكون مثل أقوال الجاهليين لمقامه في مواضعهم من البادية بعيداً عن حضارة الامصار ومن شعره في النسيب .

أحنّ الى ليلى وقد شطّت النوى   بليلى كما حنّ اليراع المثقّب
تقربتُ ليلى كى تثيب فزادنى   بعاداً على بعدٍ اليها التقرب

(وقوله)

وأبكى فلا ليلى بكت من صبابة   اليّ ولا ليلى لذى الود تبذل

---

(١) ابن خلكان ١*٧١ ٢ والاغانى ٩*١٣٢ والمستطرف ٢*٤ والشريشى ٢*٢٦ (٢) الاغانى ٣*٩٠

وكان الحسن بن زيد رضى الله عنه وهو عامل على المدينة (١) قد دعاه وأغلظ له وقال أتشبب في حرم المسلمين وتنشد ذلك فى المحافل والمساجد ظاهراً فقال امرأتى طالق ثلاثا ان كانت ليلى الا قوسى هذه ذكرتها على سبيل التشبيب لان القريض لايحسن الا بالنسيب . على أنى وجدت شعره الى فصاحة البداوة أقرب منه الى حلاوة الحضارة وفى قوله .

سلا دار ليلى هل تبين فتنطق ... وأنّى ترد القول بيداء سملق
عفتها الديار الدامسات مع البلى ... باذيالها والرائح المتعبّق
بكل شآبيب من الماء خلفها ... شآبيب ماء مزنها متألق

مايبعد تناوله على سكان الامصار الذين ينقطع عهدهم بمحاضرة اهل البادية وانما يدخلون في لسانهم كلام السوقة (٢) وألفاظ الاعاجم الذين يخالطونهم في أسفارهم وتجاراتهم حتى تصبح لغتهم في أشد المباينة للسان العربان.

وممن لقيته من الشعراء المجيدين السيد الحميرىّ وهو من الواقفية القائلين بالامام المنتظر (٣) يأتى في شعره على غرضه في السياسة ويفرط في سبّ أصحاب النبيّ (٤) صلى الله عليه وسلم ممن كان يرغب عن آل البيت وربما وقع عليه من الناس تجافٍ عن شعره من هذا الجنس الا انه ليس لاحد من الشعراء ماله من عذوبة الالفاظ وجودة السبك ورونق

---

(١) ابن الاثير ٥*٢٤٣ (٢) يقول فى الاغانى ٣*١٧٣ ان الالفاظ السوقية لاتمنع أن تكون القصيدة جيدة (٣) العقد الفريد ١*٢٦٦ والمقدمة ١٧٣ وذكره المسعودي ٢*٨٠ وسمي شيعته بالكيسانية (٤) ابو الفداء ٢*١٥

الشعر وطلاوته . وقد جمعني معه الى هذا اليوم اكثر من مجلس ووجدته حسن الكلام جميل الخطاب اذا تحدث بين القوم أعطى كل رجل في مجلسه نصيبه من حديثه (١) وله في النسيب كلام رقيق فمن ذلك قوله

ولما رأتني خشية البين موجعا   اكفكف مني أدمعا بيضها درر
أشارت باطراف اليّ ودمعها   كنظم جمان خانه السلك فانتثر

ومن الشعراء المقدمين أشجع بن عمرو السلميّ (٢) وقد نزل الشعر في صدره موهبة من الله فانتهضت به قيس لذلك اذ لم يكن بها في الاسلام شاعر قبله وانما كان الشعر في ربيعة واليمن فلما نجم اشجع وقال الشعر افتخرت به قيس على العرب (٣) ومما أستحسنه من نظمه سهولة القول التي لا يعاني الى البراعة فيها تكلفا وقد حفظت له في مديح ولي العهد بيتين من جيد الشعر وهما قوله (٤)

وعلى عدوك يا ابن عم محمد   رصدان ضوء الصبح والاظلام
فاذا تنبّه رعته واذا غفا   سلّت عليه سيوفك الاحلام

هذا ما أذكره عن شعراء هذه الدولة بوجه الاختصار وقد رأيتهم يتسابقون الى ابتكار المعاني الحسان من غير أن ينتحلوا مذاهب من تقدمهم في عصور الجاهلية الا فيما كان أقل من النادر (٥) وحتى لو أنا

---

(١) الاغاني ٧*٣ (٢) الاغاني ١٥*١٠٨ (٣) الاغاني ١٧*٣٠ (٤) البيتان قيلا في هرون الرشيد (٥) انظر ابن خلكان ١*١٠٢ والاغاني ٣*٤٩و١٤٨و٥*١٧٨والحصري ٢*١٦٧

رأينا لهم ما سُبقوا اليه لما صح أن نتهمهم بالانتحال لأن العقول قد تتوافق وتتوارد وان كان المتقدمون من الجاهلية أشرف منهم لفظا فانهم لألطف منهم صنعا واكثر من المعانى حظا . وهؤلاء هم أشعر العرب قد اجتمعوا فى الزوراء الا ابن هرمة وسلم الخاسر وكلاهما شاعر مجيد أيضاً الا أن أبياتهما لم تصل الىّ فلم أعلِق أخبارهما في هذا الكتاب .

وقد كتبت هذه الرسالة في منتصف ذى الحجة من السنة الثانية والخمسين بعد المائة من هجرة نبينا المكرم والله المسؤول في توفيقنا الى السداد وهدايتنا الى الرشاد . بمنه تعالى وكرمه .

﴿ الرسالة الرابعة ﴾

﴿ جلوس المهدىّ على دست الخلافة ﴾

أفتتح هذه الرسالة اليك بذكر جلوس المهدىّ على دست الخلافة عند وصول الخبر بوفاة أبي جعفر وقد كان لذلك يوم عظيم في الحضرة والاسلام كله لأن العقلاء من اهل السياسة كانوا يرون زوال الخلافة عن ولد العباس الى الائمة من أهل البيت أو تعذر مصيرها الى المهدىّ والمشايخ من أهل هاشم حاضرون فجرى الامر على خلاف المظنون بحيلة علمتها من البرامكة سراً لم تنكشف للناس الى هذا اليوم . وذلك أنه لما أودى أبو جعفر غفر الله لهُ كتم الربيع موته الى الصباح عمن كان معه في الحج واستدعى عيسى بن علىّ عمه وعيسى بن موسى ولىّ العهد بعد

المهدىّ وجماعة من القواد والامراء وتقدم اليهم بأمره فيما كان يزعم أن يجددوا البيعة لابنه من غير أن يعلمهم بوفاته فلم يتجرأ أحد على مخالفة الامر ظنا منهم بصدوره من السلطان . ولو أنهم علموا بوفاته ماتسارعوا الى تجديد بيعتهم لابنه . فلما بلغ مراده ولم يبق له غرض من كتمان موته دخل عليه كمن لايعلم أمراً مما نزل به ثم خرج اليهم مشقوق الجيب باكيا ينعى وفاته فلم يكن فيهم الا من أخذت عليه البيعة وركب رجال المهدى الى مكة وبايعوا أهل الحل والعقد من أهلها (١) فصارت الخلافة الى المهدى بهذه الحيلة التى تعاب على الربيع من وجه الظلم وان كان فيها حقن لدماء المسلمين .

وكانت وفاة أبي جعفر في بئر ميمون مع السحر لست خلون من ذى الحجة وهو محرم بظاهر مكة (٢) ولذلك دفن مكشوف الرأس دون أحد غيره من الخلفاء لان النبي صلى الله عليه وسلم منع المحرم من لبس القمص والعمائم والبرانس (٣) وغير ذلك من أنواع المخيط وحفر له أهله مائة حفرة بين الحجون وبئر ميمون (٤) ليعموا على الناس ثم دفنوه في غيرها . ووجه الربيع منارة (٥) الخادم الى الحضرة بالبيعة وأمره بالسرعة خوفا من أمر يحدث في الاسلام فجاءها في أحد عشر يوما (٦) من مكة .

وقد كنت في مجلس هرون الرشيد حين سمعت الجلبة في مقاصير

---

(١) ابن الاثير ٦*١٣ (٢) ابن الاثير ٦*٨ (٣) الزرقانى ٢*١٤٨
(٤) الخميس والعقد الفريد ٣*٥٣ (٥) المسعودى ٢*١٩٤ (٦) ابو الفداء ٢*٩

الحرم فاستعلمت عن الخبر فنبئت أن أبا جعفر قد مات فأسرعت الى منازل البرامكة لأشهد مجلسهم في ذلك الوقت فأخبرني نافذ أحد الحجاب أن المهدىّ قد دعاهم اليه فنزلت الى السوق فلقيت أستاذى أبا يوسف سهما حاميا فأبنت له ما انا تائق اليه من حضور البيعة فأشار الىّ بالبقاء معه الى قبيل الظهر وهو الوقت الذى يجتمع فيه اهل الحل والعقد لمبايعة المهدىّ .

فلما سرنا الى دور الخلافة راينا الساحات غاصة بجماهير الناس فولجنا باب السور بين ازدحام تضيق منه الانفاس حتى انتهينا الى باب القبة الخضراء فجاوزنا الحجاب الى المجلس الذى تقام فيه البيعة فاذا به قد جمع الامراء من بنى العباس وجلة القواد والاعيان واهل البيوتات الاميرية مثل البرامكة اعزهم الله وآل المهلب وآل طاهر وآل قحطبة وآل نوبخت وغيرهم . وكان المهدى مستويا على عرش مكلل باللؤلؤ والياقوت وأنواع الجواهر وعلى رأسه قبة تتدلى منها أستار من الديباج(١) وعلى يمينه ويساره غلامان قد التحفا بالذهب ووقفا بمظلتين من الريش الاسود مرفوعتين على رمحين مكسوين بعروق من الذهب قد نزل فيها الياقوت والزبرجد والفيروز ودونهما بنو هاشم على وسائد قد ثنيت لهم(٢) ولباسهم خز أسود وكذلك كان لباس المهدىّ وكانت عليه الطرحة وعلى كتفه بردة النبي صلى الله عليه وسلم التى استصحبها أبو جعفر الى الحج وفي يده القضيب وفي الاخرى خاتم الخلافة.

وكان على يمين العرش منبر مزخرف بأنواع الزينة والجوهر والديباج

(١) المسعودى ١*٢٣٤ (٢) الاغانى ٤*٩٣

قد وقف به كاتب المهدى في خلافة أبيه (١) أبو عبد الله معاوية بن عبد الله الاشعرى وهو الكاتب المشهور بالبلاغة قد اتخذه وزيرا (٢) له فى سياسة الملك . وكان سلامان الابرش حاجبه واقفا على بعض مرقاة (٣) هذا المنبر بالبيعة التى جاء بها منارة من مكة وتحت يد الخليفة أمير من البرامكة (٤) قد أخذ في يده البيعة على أمراء الحضرة الذين لم يروا الا متابعة الناس بعد أن بايعت مكة والمدينة وبايع القواد والوزراء واكابر المسلمين .

وكانت عادة الناس في مثل هذا الموقف أن يبدؤا الخليفة بتعزيته فى أبيه ثم يهنؤونه بجلوسه على تخت الخلافة فلما أخذوا في تعزية المهدى خلعوا قلانسهم ونبذوها وراء ظهورهم لان الخلفاء لايعزون بالعمائم (٥) ثم وقف وزيره أبو عبد الله يبايعه عن المسلمين ولفظ البيعة قوله (٦) انا نبايع سيدنا ومولانا الامام المفترض الطاعة على جميع الانام أبا عبد الله محمد بن عبد الله المنصور على كتاب الله وسنة نبيه واجتهاد أمير المؤمنين وأن لا خليفة سواه . ثم بايعه كل من حضر المجلس حتى لم يكن يسمع الا دعاء له وتنويه باسم بنى العباس .

ثم تناول الوزير منشورا كتبه الربيع عن لسان أبى جعفر استنهاضا

---

(١) الفخرى ٢١٥ (٢) الاغانى ٣*٤٦ العقد الفريد ٣*٥٣ والمسعودى ٢*١٩٦ (٣) السيوطى (٤) يفهم من ابن الاثير ٦*٦ أن خالدا ويحيى كانا غائبين عن بغداد لما توفى المنصور (٥) الاغانى ٩*٩٧ (٦) السيوطى

للناس الى مبايعة المهدى (١) فتلاه على مسمع من الامراء وفيه يقول.
بسم الله الرحمن الرحيم من عبدالله المنصور أمير المؤمنين الى من خلف من بنى هاشم وشيعته فى خراسان وعامة المسلمين . أما بعد فانى كتبت هذا وأنا حيّ في آخر يوم من أيام الدنيا وأول يوم من أيام الآخرة . اقرأ عليكم السلام وأسأل الله أن لا يفتنكم بعدى ولا يلبسكم شيعاً ولا يذيق بعضكم بأس بعض وأوصيكم بمحمد ولىّ عهدكم وأذكّركم البيعة له واستنهضكم للوفاء بعهده واجتماع كلمتكم عليه فانما قوّتكم تكون بالاجتماع الى رأيه وقد أوصيته بكم وبالرأفة عليكم والاحسان الى المسلمين والسلام .
فترقرق الدمع في عينى المهدى (٢) ولم يتمكن من اطالة الخطبة التى يقولها الخلفاء لما غلب عليه من تأثير النفس فصرّف الامراء وهم يدعون له بالسلامة .

سياسة المهدىّ وخلعه عيسى ابن عمه عن الولاية

ولما كان المساء أقيمت في المدينة زينة حافلة فصرفت العناية الى تزيين مشرع الزوايا (٣) بالانوار لقربه من موضعى ليكون في ذلك قضاء الواجب من شكر الخليفة على ماأولانى من الجميل ودفع لالسنة الوشاة عن السعاية بى اليه فيما استقر بنفوسنا من الميل مع أهل البيت وامتلأت الزوراء في تلك الايام من أرباب الملاهى ومما يعرضون من صور الطين

(١) ابن الاثير ٦*١٢ (٢) الاسحاقى ٨٨ (٣) موضع ذكره ابن خلكان ١*٤٦٤

التي يصنعونها للعب الصبيان في المواسم والاعياد (١) ولا أطيل لك الكلام على عادات العامة وسذاجتهم لأنها في جميع الامم عامة ومتماثلة وانما اخبرك بما عرفته للمهدي اصلحه الله من حسن السيرة التي يروم بها استبدال رعب الناس من ابيه ورغبتهم عنه بمحبتهم له وميلهم اليه فأقول.

انه بعد ان اظهر من الابهة بافتتاح خلافته بما يعظّم موضعه من السلطان صنع لبني هاشم وسائر قريش طعاما جاوز فيه الحد بسعة النفقة (٢) حتى انه أطعم الناس الطير وخبز السميذ. وكان يحمل معه بدر الدراهم والدنانير في ركوبه فلا يتعرض له احد الا اعطاه (٣) فكان يخاف ارباب الدولة نفاد مافي بيت المال (٤) اذا استمر على هذا العطاء (٥) ولا سيما بعد أن نقص دخل الدولة برفعه المؤن والكسور وهو الامر الذي كان يفاوضني فيه أيام خلافة أبيه فان الناس في صدر الاسلام كانوا يؤدون مافي ايديهم للخراج من دراهم ودنانير مضروبة على وزن كسرى وقيصر لا يفرقون في الاوزان فلما ساد فيهم العمران وأفسدهم التجار والصيارفة صاروا يؤدون الدينار الطبريّ الذي هو اربعة دوانيق ويمسكون الوافي الذي هو مثقال فلما أمّر زياد صار يطلب الوافي ثم أمّر الحجاج فطلبه كذلك فلما صار الامر الى ابي جعفر ازال الخراج عن الحنطة والحبوب وصيّره على الناس مقاسمة كما ذكرت لك في بعض رسائلي السالفة ولكن من

---

(١) ابن خلكان نقلا عن كتاب احياء علوم الدين للغزالي (٢) الاغاني ٣*٩٤
(٣) المسعودى ٢*٤٠١ (٤) المسعودى٢*١٩٦ (٥) الحصرى والخميس ٢*٣٣٠

غير ان يسقط الكسور فلما ولى المهدى قال معاذ الله أن ألزم الناس ظلما في ذلك فقيل له ان اسقط امير المؤمنين هذا ذهب من امواله في السنة اثنا عشر الف الف درهم (١) فقال عليّ ان اقرر حقا وأزيل ظلما لأن العدل موفر للجباية كفيل بعمران الامصار.

ولقد اعظمت للمهدى هذه المأثرة التى احسبها له من اجمل آثار العدل وأحسن سياسة الرفق فان لنا في سقوط الدول التى قامت في هذا المكان نفسه من النبط والكلدان وغيرهم مايدلنا على أن الظلم يقتل العباد والبلاد جميعا فانما كان غرض الناس من الاجتماع تحت لوائهم القيام بأعمال الزراعة والمقام في بلدان الخصب لما يتسع بين ايديهم من اسباب الكسب والارتزاق وقد تناسلوا فى ظلال العدل وبلغوا من الكثرة فيما مضى من الزمن الغابر بحيث كانوا اذا اجتمعوا لحرب أو لغزوة بلغوا ألوف الالوف من الخلائق ثم لما غفلت الدولة عن مصلحتهم وأوقعت عليهم المكوس الفادحة لسد مادعاها اليه مطالب الترف لم يبق في نفوسهم شيء من حب البلاد وهم لا يبتغون منها الا تحصيل القوت الذى يأتيهم على اجهاد النفس (مع قيام الدولة بحقهم ولزوم العدل بينهم والحنان لهم من جانب ملوكهم) فضعفت فيهم اسباب الهمة ولم يكن للدولة طاقة على مردّ العدو بهم وقد ماتت نفوسهم من الظلم فخلت البلاد منهم والله يرث الارض ومن عليها

---

(١) الماوردى ١٣٧

وكان وفود البلدان يردون على المهدى من الاقاليم الاسلامية الاقرب فالاقرب لتهنئته بالخلافة فاجتمع ببابه كثير من أشراف العرب وملوك الاقاليم وكانوا يتبركون به ويتوسمون فيه الخير لانهم رأوا منه عدولا عن سيرة أبيه سيرة الظلم والجبروت وانما كان للناس محسنا اليهم (١) محبا لهم وساعيا فيما تصلح به أمورهم فاتخذ لهم من هذا الوجه مجلسا لرد المظالم (٢) (لم يكن قبله فى الدولة العباسية) من بنظر في تعدى الولاة على الرعية وجورهم فيما يجبونه من الاموال (٣) ولقد وجدت له في استمالة الناس اليه غايتين تصبو اليهما نفسه ولا يهدأ له بال الا بقضائهما على ما يروم وهما اذلال العلويين الى أن يكون بأ من من تغلبهم عليه ثم جعل الخلافة من بعده في ولده ممنوعة على غيرهم من بنى العباس . فأما أمر العلويين فما كان يشتد عليه وقعه بعد ان رماهم أبو جعفر بالخسائر التى يحتاجون معها الى زمن يلمون به شعثهم ويجمعون اليهم أطرافهم فكأنما هو يقارعهم بسيف أبيه الى هذا اليوم . وأما خلع

---

(١) الخميس ٢*٣٣١ (٢) السيوطى وابن الاثير (٣) فى الماوردى ومقدمة ابن خلدون ان هذا المجلس ينظر من غير ما ذكر الرحالة فى كتاب الدواوين اذا وقع بها تزوير وفى تظلم المسترزقة من الجند من نقص ارزاقهم أو تأخرها عنهم وفى مشارفة الوقوف ورد المغصوب الى أصحاب الحقوق وتنفيذ ما وقف من أحكام القضاة لضعفهم عن انفاذه وعجزهم عن المكتوب عليه لقوة يده وعلو خطره وامضاء ما يعجزون عن امضائه في البينات والتقرير واعتماد الامارات والقرائن وتأخير الحكم الى استجلاء الحق وحمل المتخاصمين على الصلح

عيسى ابن عمه عن ولاية العهد فانه كان يتعب منـه البال وقد دخل عليـه يحيي بن خالد أعزه الله فأصابه في قلق شـديد يقعـد مرة ويضطجع أخرى . قال لى يحيي فعلمت من ذلك انه يريد أمراً عظيما فقال اجلس قريبا مني لانى أريدك لمشورة (١) ان النبي صـلى الله عليه وسـلم مات في غير وصية وترك الامر شورى بين المسلمين فما لبثوا أن أجمعوا على أبي بكر ولـكن بعـد فتنة كادت تقع بين المهاجرين والانصار لقولهـم منا أمير ومنـكم أمير ثم مات أبو بكر وقد صير الامر الي عمر بمحضر من الصحابة فلم ينازعه فيه احد ثم عهدها عمر الى الستة نفر الذين مات النبي صـلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض فأجمع رأى الامة على عليّ وعثمان (وكان عبد الرحمن بن عوف أحد الستة المنوّه عنهم يميل مع عثمان وفي وصـية عمر الى المسلمين أن يتبعوا رأيه فبايعوا من أراده) فاستقر عثمان في خلافته الى أن ثارت عليه الفتنة (لاقصائه ولد أبي بكر واقباله على أقاربه من الامويين بالصلات الطائلة وعهد المسلمين قريب بضبط (٢) أبي بكر وعمر فقتلوه وكانت تلك اول فتنة في الاسـلام) (٣) ثم أجمع العرب على عليّ عليـه السلام (وكان الفرس يميلون معه فاستوثق له الامر من العراق واليمن والحجاز ومصر وفارس وخراسان الا الشام لاستواء معاوية فيها فلما قتله الخوارج لم ير الحسن ابنه مقاومة الأمويين بالقتال ضنا ببذل الدماء فنزل له عن الامر) وصارت الخلافة الى غير اهلها بما قد بلغك من الفتن

---

(١) المسعودى ٢*٢١٥ (٢) الفخرى ١١٦ (٣) السيوطى

فأخاف اليوم ان صارت الى ابن عمى أن تذهب من بيتى بلا رجوع ثم يكون من الفتن مالا يؤمن غائلته على المسلمين فأشر عليّ ياأبا الفضل في هذا الامر الذى لا يتعاظمه امر فانك بحمد الله مبارك الرأى لطيف النظر .

فقال له يحيي ياأمير المؤمنين انى أرى الزلة في هذا الامر لا تستدرك والخطأ فيه غير مأمون فان تكتب بالولاية لاولادك بعد ابن عمك كان ذلك أوكد في البيعة . فقال له المهدى كنت أفعل هذا لولا أنى اخاف من عيسي نكث العهود ولكنى أرى ان اخلعه عن الولاية واخذ البيعة لموسى على المسلمين فقال له يحيي على أمير المؤمنين أن يعلم شيعته ومسانّ أهله بذلك ولم يتعمق في هذا البحث الى أبعد مما أشار بهِ لان موقفه بين العلوية والعباسية من أشد ما يكون من الصعوبة وانه وان كان يأخذ في تعظيم العباسيين لرسوخ دولتهم في المشرق الا ان له في حبه للعلويين ما يرى به عدولهم عن العراق الذى تزهق النفس دون التمكن من أهله وانما يلتمس لهم من المغرب أمما ترسخ فيهم دولتهم الي أن يأتيهم الله بالنصر القريب .

ولما جمع المهدى اكابر الدولة وفاوضهم فى هذا الامر وقع بالموافقة من نفوسهم (١) ولكن على أن يجيبه ابن عمه الى الانخلاع وانتهى بعض من يستخدم الفقه في رضى الملوك الى أن يقول ان أباجعفر لم يكتب لعيسى بالولاية الا لتبقى الخلافة في بيته بعد المهدى فلما رزقه الله

(١) ابن الاثير ٦*١٦

أولادا كانوا أحق بها من أعمامهم فكتب المهدى الى الرحبة يستقدم ابن عمه اليه فلم يصل منه خبر أو وصله انه يعتل بالشكوى وما بنفسه اعتلال ويستنكر الخروج اليه الا أن يكره بالقتال فعمد اذ ذاك الى مكيدة الحرب وأرسل الجند على ذلك الوجه مأمورا بأن لا يأخذه بالقتال بل يستعمل الرفق والملاينة في ترغيبه عن المخالفة الى أن يجيبه الى الخضوع . وكان على هذا الجند قائد نبيه الصوت في الحروب يقال له ابو هريرة محمد بن فروغ فرأى أن يفاجئ الحصن في آخر الليل ويصف العساكر صفوفا متعارضة ويضرب وراءهم مصاف الخيام ليوهم باستكثار العدة والعزم على مثابرة الحصار ثم ينزل بالجنود الزعقة العظيمة التى اذا سمعها عيسى وهو في نومه خامره الجزع وافزعه الهول فلما فعل ذلك استيقظ عيسى على رعب من الصيحة ثم اشرف من الحصن سحرا ورأى سواد الجيش فامتلأ قلبه من الوحشة ولم ير السلامة الا بالاستسلام فأخذه ابو هريرة الى المهدى فلم يفتر عن استعمال الحيلة في تعويضه عن الولاية بالمال الى ان اجابه الى الانخلاع ولكن بعد شدة ما لحقه من الضيم الذى ينطق بجور العباسيين وتطاولهم في امر الخلافة (١) التى هى أعظم أمر في الاسلام .

ولما تصرف المهدى في أمر البيعة بما أراد ثار في قلوب المخالفين (٢) له ما كان يخمده فيهم حلمه وسعة عطائه فحصل في نفسه منهم خوف

---

(١) انظر العقد الفريد٣*٣٧ (٢) ابن الاثير والفخرى والسيوطى

شديد ولكنه لم ير مقاومتهم بالقتل وفيهم كثير من اهل السيف لئلا يتسع الفتق وتعود عليه الفتنة بغير ما يحبّ وانما رجع الى من يلوذ به من العلماء وامرهم بتصنيف الكتب في الرد عليهم واخذ في استصلاح الزوراء والنظر في حسن السيرة الظاهرة من اهلها باكراه العزّاب على الزواج والاحسان الى المتعففين من الشبان مما جرى له قيل وقال بين الناس كمثل ان نسبوا ذلك منه الى غيرة به على النساء (١) وهم قدغفلوا عن الغاية التي يرومها من صلاح امره بصلاح الزووراء وموازنتها مع مكة مهد الاسلام حتى يعظم فيها امر الدين . وتصبو اليها افئدة المسلمين .

ظهور المهدي بمناصرة العلم

انى وان لم اكن على غرض العباسيين في السياسة ولا تطيب نفسي بما ينفردون به من الملك (لانى الى قوم سواهم لأميل) فانى لاوفي المهدى حقه من الثناء على ماله من جميل العناية (٢) في تعظيم العلم وتكريم العلماء . فهو يتخذ لاهل الادب وارباب الصناعة والغايات اياما (٣) معلومة من السنة يعرضون فيها بضاعتهم من علم او فن او ادب او صناعة حتى يحصل بينهم التنافس . ويصدروا ما عندهم من النفائس . ثم يجزيهم على ذلك بما هو واسع له من الكرم .

ولقد رأيته اصلحه الله اعطى الخلفاء نوالا للشعراء وهو يأذن لهم

(١) في الاغانى ٣*٤١ ان المهدى من أشد الناس غيرة (٢) الاسحاقى ٨٨
(٣) المستطرف ١*٣٧

بالدخول عليه مرة فى السنة (١) فيجتمعون ببابه ويتفاخرون بما عندهم من محاسن الشعر وفصاحة الكلام. وقد حضرت اجتماعهم بداره لاول ماولى الخلافة وقد قصده ابن المولى من البادية (٢) وسلم الخاسر من البصرة وابن الخياط من مكة وأشجع السلمى (٣) من الحجاز فقالوا فيه الشعر الذى لم يمدح بمثله أحد من الملوك . ومن جملة ماحفظت لابى العتاهية فى تهنئته اياه بالخلافة قوله.

أتته الخلافة منقادة — اليه تجرر أذيالها
فلم تك تصلح الا له — ولم يك يصلح الا لها
ولو رامها أحد غيره — لزلزلت الارض زلزالها
وان الخليفة من بغض لا — اليه ليبغض من قالها

فأصاب لذلك حظاً وافراً من المال. وكان بشار المقدم فى الرسالة ذكره السالفة واقفا فى صفوف الشعراء فلم يتمالك أن يقول لمن حوله ويحكم انظروا هل طار الخليفة عن سريره.

وكان المهدى يقدم عليهم سلم البصرى ومروان بن أبى حفصة ويعطيهما عطية واحدة. فأما مروان فانه يلتمس الفصاحة فى كلامه تشبهاً بأكابر الشعراء (٤) وأما سلم فانه يودع أبياته المجون والخلاعة لتكون أنسا فى عيون السلطان. فوقع فيما يتصرفان به من مذاهب الشعر بون

---

(١) الاغانى ٩*٤٤ (٢) الاغانى ٣*٨٨ (٣) ابن خلكان ١*١٠١
(٤) الاغانى ٩*٤١

يشبه أن يكون ناشئا عما وجدت فيهما من تباين المشرب بين الافراط والتفريط فان مروان بخيل يضن بماله (١) عند الواحد والتفريط عند الآخر فان مروان بخيل يضن بماله وسلم سمحٌ ببذل المال يأتى الى دار المهدى على برذون قيمته عشرة آلاف درهم ولباسه الخز والوشى (٢) ويأتى مروان بأثواب رثة على حمار يكتريه بدرهم لايخرج من يده الا بعصب الريق مع كثرة ماأصابه من المال (٣) فى صلات تجاوزت خمسة آلاف دينار فى عطية واحدة كما علمت.

ولئن تكن الفصاحة فى كلام مروان أجل منها فى شعر سلم فانى لاعيب عليه المداهنة التى يلتمس بها مرضاة الخليفة بقدحه فى أهل البيت على غير حكمة وعقل كانه يجزم بما يراه عن يقين لارجوع فيه كقوله فى ثبوت الخلافة للعباسيين وبُعد العلويين عن وراثة النبى صلى الله عليه وسلم.

ياابن الذى ورث النبى محمدا دون الاقارب من ذوى الارحام
أنّى يكون وليس ذاك بكائن لبنى البنات وراثة الاعمام (٤)

وهذا مردود من وجوه كثيرة لان الخلافة انما هى مصلحة دينية لاوراثة دنيوية فحيث توجد المصلحة الدينية فهناك تكون الخلافة ثم

---

(١) الاغانى ٩*٣٩ والوطواط ٢٩٥ (٢) الاغانى ٩*٣٩ (٣) ابن خلكان ٢*١٣١ (٤) الاغانى ١٢*١٧ والعقد الفريد ١*١١٨ والمسعودى

ان النبي صلى الله عليه وسلم صرح بأن الحسن والحسين هما ذريته فاذا وجدت الذرية لم يبق مدخل للاعمام فى الوراثة اللهم الا اذا رجعنا الى شريعة الجاهلية التى انتسخت بمجىء الاسلام ولو أنّا ضربنا عن ذلك كله صفحا لما وجدنا أصلح للاسلام من أن تجتمع كلمته على من لا ينصرف عن طاعته أحد من المسلمين الى ردود كثيرة ما أنا من ذكرها الآن فى شيء وانما أعود الى الحديث الذى جرى به القلم عن سيرة المهدىّ فانى شهدت بداره أيام الشعراء وأيام القصّاص وأيام الندمان وأيام المغنّين وأيام الرماة (١) وأيام جرى الخيل وقد سبقه اليها الخلفاء الا يوم السباق فانى لا أعلم عن أحد من بنى العباس أنه أقام الحلبة وأجرى بين يديه الخيل فى محفل من كبراء الدولة قبله. وكان له فرس سبّاق الاضاميم يقال له الغضبان (٢) فكان أول خيل الحلبة فى ذلك اليوم فلما قلّده الشعراء أصاب جائزتهم العمانى وقد ارتجز.

قد غضب الغضبان اذ جد الغضب وجاء يحمى حسباً فوق الحسب
من ارث عباس بن عبد المطلب وجاءت الخيل به تشكو التعب
له عليها ما لكم على العرب

ولكن هذا من الامور التى تكفى المشاهدة لها مرة واحدة وأما الذى ترتاح اليه النفس على التماس الكثير منه فى دور الخلفاء فهو يوم

---

(١) ذكرها المستطرف ١*٢٧ (٢) الاغاني ١٧*٨٢

الغناء وكان المهدى اذا اتخذ له مجلساً بداره ضرب للمغنين ستارة يجلسون وراءها فى صفوفهم بحيث لا يرونه(١) الافليح بن أبى العوراء وهو أوضح الناس غناء وأعرفهم بالالحان والاصوات (٢) وان هو لم يكن أحسنهم صوتا فانما يحسن الغناء عند من يشبع الالحان ويملأ الانفاس ويعدل الاوزان ويفخم الالفاظ ويعرف الصواب. ويقيم الاعراب. ويستوفى النغم الطوال ويحسن مقاطيع النغم القصار ويصيب أجناس الايقاع (٣) فهو يحسن ذلك كله لمحله الجليل من هذه الصناعة وليس له فيها شريك الا مغن آخر يقال له عطرد (٤) قد أدرك دولة الامويين فى آخر مدتهم وأما ماسواهما من المغنين فليس لهم من الصناعة ما للمتقدمين من الفرس وأنا لا أعيب ذلك عليهم لان الزمن الذى مضى عليهم فى صدر الدولة كان مضرجا بدماء الحروب فانصرف الخلفاء عن النظر فى مطالب اللهو والترف الى التماس الاسباب التى يؤيدون بها ملكهم من الحكمة والسياسة. ثم ان نقل الغناء الى العربية (٥) ليس بقديم عهد عندهم حتى يتمكنوا من صناعته وفنونه لأنهم نقلوه من الفارسية فى خلافة معاوية بن أبى سفيان وهو الزمن الذى أخذ فيه العرب بسكنى

---

(١) الاغانى ٤*٩٩ وذكر المسعودى ١*١١٨ أن الاوائل من بنى العباس ما كانوا يظهرون للندماء (٢) الاغانى ٤*٨٨ (٣) الاغانى ١*١٢٦ (٤) الاغانى ٤*٩٩ (٥) الاغانى ٣*٨٦ والمسعودى ٢*٣٥٧

الامصار وانقلب أمر الامة من سذاجة الخلافة الى ترف الملك فلقد نقلت الينا الاخبار السالفة أن الخلفاء الراشدين رضى الله عنهم لم يقيموا أبهة الملك ولا كان لهم على المسلمين سلطان دنيوى يتوسعون منه الى التماس النعيم من الدنيا (١) وانما كانوا مظهر الفضيلة ومثال القناعة والعفاف وكانوا يلبسون الثياب المرقعة (٢) ويتخذون فى أرجلهم نعالا من ليف (٣) ويمشون فى الاسواق كبعض الرعية رجالا (٤) وكان لباس أبى بكر الشملة والعباءة ولباس عمر جبة الصوف مرقعة بالاديم ومركبه الابل (٥) وكان علىّ عليه السلام يتجافى عن جمع المال ويقول يا صفراء ويا بيضاء غرّى غيرى (٦) وكان مطعمهم على مثل هذا الوجه من الكفاف يلتمسون به الغذاء من غير تأنق فى الاطعمة حتى ان المناخل كانت مفقودة عندهم فكانوا يأكلون الحنطة بنخالها ولا يعرفون من الالوان الا اللحم يطبخونه بالملح والماء (٧) وكان أبو موسى الاشعرى يتجافى عن أكل الطير والدجاج (٨) وكذلك كان العرب فى سذاجة دولتهم على بُعد من ترف المتمصرين فى جميع معايشهم وأحوالهم حتى

---

(١) وكانوا يقولون فى خطبهم للمسلمين أطيعونا ماأطعنا الله فيكم فاذا عصيناه فلا طاعة لنا عليكم (٢) الطبقات ١*١٩ والمقدمة ١٨٥ (٣) الفخرى ٣٣ (٤) الفخرى ٨٩ (٥) المسعودى ١*٣٢٠ (٦) الطرطوشى ١٢٤ (٧) الابشيهى ١*١١٤ (٨) المقدمة ١٧٨ وفى البخارى وشرحه للقسطلاني مايخالف هذا

انه لم يكن عندهم من الغناء الاحداء الركبان أوضرب من النصب أرق منه فلما ساد فيهم العمران فى عهد الامويين وألقيت عليهم أصوات الفرس نبغ الكثير منهم فى محاسن هذه الصناعة ثم فتقت الفتن فى دولة العباسيين وقد طالبوا الخلافة من دون الملك فلم يتهيأ لهم مجلس بدورهم الى هذا الزمان.

ولوع المهدىّ بمزاولة الصيد

تجد فيما أنا ذاكر لك عن المهدى أنه يجمع الى خلافة الامة أبهة الملك وهما أمران لم يجتمعا فى خليفة غيره وربما التمس الطيبات فى هذه الابهة والتأنق فى فنون المعيشة الى الغاية التى لم يبلغها ملوك بنى أمية من قبله فاذا جلس الى الندماء أحب أن يمتع نفسه من لذة أحاديثهم (١) واشاراتهم دون ستارة تحجبهم عن نظره واذا خرج الى الصيد ركب فى المواكب العظيمة المزينة وربما كان ذلك من أحب الاشياء اليه.

وأنا لا أعد الصيد من الملاهى التى تعاب على الملوك الا متى فرطوا فيه وكانوا أقرب به الى الاشر منهم الى النزهة والرياضة كما نعلم عن صبية الامويين الذين أجلوا أهل الزراعة من حولهم لتحطيمهم زرعهم فى طلب الصيد. وهذا بعيد عن أن يكون فى المهدىّ أصلحه الله وانما هو كلف به (٢) من غير تفريط فيه لانى رأيت من الامراء من يتأنق

---

(١) السيوطى (٢) ذكر حب المهدي للصيد فى الاغانى ٣*١٥٠ وابن الاثير والاتليدي وابن عون

اكثر منه فى اتخاذ العدة المكافة له الى أن يصنعوا نصال سهامهم من الذهب كما ورد عن بعضهم فى كلام الشعراء.

ومن جوده يرمى العداة باسهم　　من الذهب الابريز صيغ نصالها
لينفقها المجروح عند انقطاعه　　ويشترى الاكفان منها قتيلها (١)

وهذه مباهاة لا ينظر اليها الخليفة من مزاولة القنص وانما عنى باتخاذ القصور والبيزان وتربية الكلاب التى تسبق الظليم فى عدوها يلبسها أطواقاً من ذهب (٢) ويوكل بكل كلب عبدا يخدمه كما يفعل كثير من الامراء وأهل النعمة (٣) فى تربيتها للتحريض على الصيد اذ كان لا ينهى الشرع عن اتخاذها الا فيما كان لغير الصيد والحراسة. وأما البيزان والصقور فانه لم يسبق الى اتخاذها بل كانت معروفة عند العرب منذ ملوك كندة وقد وقف أحدهم يقانص بالحبالة فانقض بازى وحمل عصفورا وعلق واياه فى الحبالة فأخذه الملك وأتى به وهو يأكل العصفور ورماه فى كسر البيت فرآه قد دجن ولم يبرح مكانه واذا رمى اليه طعاما اكله واذا رأى طيرا طار اليه فاتخذه فى عدة الصيد وطاب به الطير وصار العرب يؤدبونه (٤) لذلك ثم يؤدبون العقبان أيضاً ويقولون انها تعمل عملا لا يدركه اكثر الصقور (٥).

وقد ركب المهدى يوما الى الصيد وكنت فى خدمته مع الامير على

---

(١) الاتليدي (٢) ذكر الفخرى ٦٧ هذه الاطواق الذهب (٣) الاغانى ٦*٧١
(٤) المسعودي ١*٩١ والاغانى ٧*٤٥ (٥) الدميرى ٢*١٥٢

بن سليمان ابن عم أبيه وأبى دلامة الشاعر وكان خروجه من القصر فى آخر الليل وفى طرف الافق شفق من الفجر وكان يحوطه فرسان من الحرس متنكبون قسيهم متقلدون سيوفهم يتبعهم قطعة من الجنود وطائفة من الغلمان قد حملوا المؤنة على الخزائن (١) الخفيفة وبينهم عدد من الوصفاء فى أخف كسوة وأجمل لباس وكان مسيره محاذيا للنهر ارتيادا للخضرة التى تجنح اليها الطيور وتسرح فيها المَهى والغزلان حتى اذا انجلى النهار وقد رمى شيأ من الطير تقدم الى من بين يديه من الفرسان أن يضربوا حلقة فى أرض مطمئنه ممرعة ثم يضيقونها رويدا رويدا الى أن يؤخذ الصيد بين جموعهم من كل جهة (٢) فلما أحاطوا بذلك الموضع وقع فى حلقتهم غزال قد نفر ومر وكان الخليفة قد نشط للصيد وخف له فى ذلك اليوم فمال هو وابن عمه اليه ورشقاه بالسهام فأصابه سهم فى صدره وأصاب السهم الآخر بعض الكلاب فصرعه فلما جلسا للاستراحة حمل اليهما هذا الغزال فوجد فى صدره سهم الخليفة فارتجل أبو دلامة وهو يريد المزاح (٣).

قد رمى المهدىّ ظبيا شك بالسهم فؤاده
وعلىّ بن سليما ن رمى كلبا فصاده
فهنيئا لهما كل امرئ يأكل زاده

وقد اتفق للمهدى فى ذلك اليوم نادرة ليس أظرف منها فيما يتفق للملوك

---

(١) ابن الاثير ٦*٣٠ (٢) الفخري ٦٥, ٣ (٣) الاغانى ٦ *٤٧ والشريشى ٢*٢٦١ والعقد الفريد ٣*٤٤٥

من النوادر وهي (١) أنه أخذته السماء وهو منقطع عن عسكره منتبذ من أصحابه فركض فرسه ملئ فروجه حتى لا يابده المطر فانتهى الى بيت أعرابيّ ملاّح (٢) فبادر الى نزع ما ابتل من ثيابه وجلس بجانب نار موقدة ثم قال يا أخا العرب هل من قرى قال عندى فضلة نبيذ فى ركوة فقال له هات اسقنى فشرب قعبا وسقاه فلما شرب قال له يا أخا العرب أتدرى من أنا قال لا والله قال أنا من خدم أمير المؤمنين الخاصة قال له بارك الله فى موضعك ثم شرب قدحا وسقاه فلما شرب قال له يا أعرابيّ أتدرى من أنا قال زعمت انك من خدم أمير المؤمنين قال لا بل أنا من قواد أمير المؤمنين قال رحبت بلادك . وطاب مرادك . ثم شرب قدحا وسقاه فلما شرب قال له يا أعرابيّ أتدرى من أنا قال نعم ذكرت أنك من قواد أمير المؤمنين قال فلست كذلك قال فمن أنت قال أنا أمير المؤمنين فأخذ الاعرابى الركوة وأوكأها فقال له الخليفة مالك ياشيخ فقال مكانك والله ما آمن أن أسقيك القدح الرابع فتزعم أنك رسول الله فضحك المهدى حتى استلقى وأقبل الجند عليه . ونزل الاشراف اليه . فطار قلب الاعرابى من الخوف فقال له المهدى لا بأس عليك ولا خوف ثم أمر له بمال وكسوة ولم يلبث أن رجع الى الحضرة بعد انكماش ناله من العدو السريع ونزول المطر وهبوب الريح الباردة .

(١) المسعودى ٢*١٩ وابن الاثير ٦*٣٠ والفخري ٢١٢ والمستطرف ٢*٣٠٦ والشريشي ٢*٢٥٧ والاتليدى ٨٦ (٢) الاغانى ٣*١٥٠

في تتمة أخبار المهدي ورسالتي الى خراسان

نعود الى ذكر المهدى في دولته وسياسته فانه لما حقق البغية بما أراده من البيعة لاولاده بقي عليه أن ينظر فى أمر العلوية وقد بقي منهم فى السجون جماعة لم يطلقهم منها فيمن أطلقه عند ماولى الخلافة (١) بل أبقاهم مع الذين عندهم تبعات من دم أو مال وهذا من شر مايلاقيه أهل البيت من الذين خلفوا جدهم عليه الصلاة والسلام ثم انه لم يكتف بهذا الظلم حتى تعمد مضرتهم باستمالة جماعة من أشياعهم يطلعونه على أمورهم فيما يسرون ويعلنون وفيهم رجل من بنى سليم يقال له يعقوب بن داود طوقه أمر الوزارة ومكنه من بيوت المال ليطلعه على أمورهم ويعلمه بمكان الحسن بن ابراهيم بن عبد الله بعد خروجه من السرداب الذى حفره الى محبسه ذوو النخوة من رجال الشيعة ولكن يعقوب كان ذا عقل ورأى وفتوة ومن لا يستبدل المال بغرضه غرضا آخر فبقي ميله مع أهل البيت والمهدى وأبو عبد الله يظنان انه على خلاف ذلك (٢)

ولما استوثق للمهدى أمر العراق رأى أن يستميل أهل الحرمين فركب الى الحج فى كثير من عظماء دولته واتخذ من الابهة مالم يسبق له مثيل فى الاسلام واستصحب معه هرون ابنه ويعقوب بن داود المقدم ذكره وجماعة من أقاربه المقربين واستخلف فى الحضرة موسى ابنه

---

(١) في ابن الاثير ٦*١٥ والاغانى ٣*٣٩ انه عند ماولى الخلافة اطلق المسجونين (٢) ابن الاثير ٦*١٤

ويزيد بن منصور الحميرى خاله وحمل معه خمسين ألف ألف درهم ومائة وخمسين ألف ثوب (١) يفرقها فى أهل الحرمين وكان عازما فى تلك الحجة أن ينكب بالامام الحسن بن ابراهيم بن عبد الله من أولاد على عليه السلام وقد علم أنه فى جوار مكة فتقدم يعقوب بالشفاعة اليه والحيلة المباركة عليه حتى نال رضاه عنه فأطلق له الامان (٢) الذى كان مقبوضا عنه وعن آل بيته فى خلافة ابى جعفر .

ولما قدم الى مكة نزع كسوة الكعبة وطلى جدرانها بالمسك والعنبر ثم كساها كسوة جديدة من الحرير لانه كان يخاف عليها أن تتهدم لكثرة ما عليها من الديباج الذى كساها اياه هشام بن عبد الملك ثم أمر بانشاء رواقات المسجد الحرام وحمل لها الاعمدة الرخام من البحر (٣) وأتم بناءها على عناية يلتمس بها استمالة أهل الحرمين مع ما أولاهم من الاحسان واتخذ لهم مأدب أفرغ الوسع فى زخرفتها وتنميقها للدلالة على عظم ملكه حتى انه سقاهم الماء المبرد بالثلج المحمول من الشام (٢) (وكان الذى حمله الى مكة محمد بن سليمان الهاشمى الذى تقدم فى الكلام على البصرة ذكره) وهذا من الامور التى توسع أهل البادية تعجبا من اقتدار الملوك على الغريب ثم انه رد عليهم الوظائف التى قبضت عنهم فى خلافة أبيه وفرق عليهم غير ما حمله من الحضرة ثلاثمائة ألف دينار حملت اليه من مصر ومائتى ألف دينار من اليمن وغير ذلك مما جاءه من الجهات

---

(١) الخميس ٢*٣٣٠ ,٢) ابن الاثير ٦*١٨ ,٣) الخميس ٢*٣٠

فبلغ المنفق فى هذا الحج على كسوة الكعبة وصلة الناس وبناء القصور بطريق مكة واتخاذ المصانع فى كل منهل منها وتجديد الاميال والبرك وحفر الركايا وغير ذلك نحوا من ستة آلاف ألف دينار واصطفى لنفسه من الانصار خمسمائة نفر أجرى عليهم الارزاق الواسعة واتخذهم لمراتب السيف فى العراق كأنه يعارض أباه فى تقديم الموالى على العرب ليستبدل جفاءهم له بمحبتهم اياه واتفق أن كانت هذه السنة سنة رخص وخصب بعد جهد أصاب الناس فى العام لما دهمهم الوباء (١) الجارف فأحبه الناس وتبركوا به وقالوا هذا هو المهدى ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وسميه (٢)

ولما عاد الى الحضرة وقد وجد فى تجوله فى البلاد اختلالا لم يأمن معه على الدولة من الفساد صرف الهمة فى النظر الى تدبير الولايات ورتب أناساً يؤدون رسائله الى العمال ويترقبون لهم فى انفاذها وسماهم الامناء (٣) ووجههم فى جميع الامصار فكان لا ينفذ كتابا الى عامل فيجوز حتى يكتب يعقوب الوزير الى بعض الامناء بانفاذ ذلك. ثم نظر فى أمر الرعية فوضع لهم ديوان الازمة (٤) وأقام على الشرطة من تبين فيه حسن النظر والتدبير فاستوثق له الملك من الوجه الذى يرومه فى استمالة الناس اليه

---

(١) ذكره ابن الاثير فى حوادث سنة ١٦٠ (٢) الاغانى ٣*٩٤ (٣) ابن الاثير ٦*٢٠ ويقول فى موضع آخر ان المنصور كان يحب أن يوجد فى دولته مثل ذلك ٦*١٠ (٤) ابن الاثير ٦*٢١

الا انه تواترت عليه فى منتصف هذه السنة والدهر له صاف رسائل من أبى عون عامله على خراسان يشكو فيها ضعف جنده واعتلال دولته وتغلّب رجل أعوز من مرو قد ادعى الربوبية وأغوى الخلق وقامت له فى الصفد وبخارى أنصار قد عاثوا فى البلاد واتخذوا البياض فى شعارهم لمخالفة السواد فتخوف المهدى أمرهم وأخرج اليهم معاذ بن مسلم موعزا اليه بأن يأتم مع الحرشى الذى هو أمير الجيش فى خراسان حتى اذا كان على انتظار البشائر منه وصله من أبى عون أن قد وقع الخلاف بين الجيشين فعزم على توجيه رسول يكشف قناع الفتنة ويصلح بين الامويين فوقع الخلاف بين يعقوب وأبى عبد الله فيمن يطوقانه أمر هذه الرسالة فرام يعقوب أن يقلدنيها وأحب أبو عبد الله أن يصيرها الى أمير من آل قحطبة وكان الربيع حاجب أبى جعفر راغبا فى توجيهى بها أيضاً لا حبّاً لى ولكنه وقعت نفرة (١) بينه وبين أبى عبد الله فاشتغل فى معاكسته وبلوغ المكروه منه.

ثم ان المهدى وقع رأيه على أن يبعثنى الى مرو لانظر فى أمر هذا المقنّع الاعور وجعل لى التصرف فى ما أرى حلّه وعقده من خلاف القوّاد اذ يكون خير الجيش المرجوّ مالم تتقلب بامرائه الاغراض ولا سيّما ان لـ[illegible] فى خراسان عدوّين يتفقان جميعا عليه . جماعة خارجيّ يقال له يوسف البرم (٢) وشيعة هذا المقنّع الذين يدعون الوهيته ويقيمون دعوته على

---

(١) الفخري ٢١٦ وابن الاثير ٦*١٩ (٢) ابن الاثير ٦*١٦

بذل الدماء. فأما جماعة البرم فلم يكن لهم وجه بالثورة الا فى أمر من السياسة ولذلك كانوا أقل على الدولة خطرا من رجال المقنع الذين أقاموا دعوتهم بأمر الدين وزعموا ان الله تعالى خلق آدم فتحوّل فى صورته ثم فى صورة نوح ثم فى صورة غيره من الانبياء حتى تحول فى صورة هذا المقنع بعد أبى مسلم رحمه الله. وقد نقلت الاخبار السائرة أنهم يسجدون له من جميع النواحى ويزعمون أنه أراهم فى السماء قمرا آخر يراه المسافرون على بعد شهرين ويستضيئون بنوره والعياذ بالله من شرور الاعمال وغابة الرجال.

وانما زعم هذا المقنع أن الله تعالى تحول قبله فى صورة أبى مسلم ليستميل الناس اليه كما استمالهم داعية الامامية رحمه الله وان كان بعيدا عن اظهار دعوة أهل البيت. فكان استخدامه الدين لنيل مناه وجها من السياسة يريد منه شيوع المعجزات عنه بين العوام وهم بمكانهم من السذاجة والغفلة ليتسارعوا الى الانضمام اليه وقد رأى أن عصر موسى عليه السلام كان مقدما بالسحر فغلب السحرة وعصر عيسى عليه السلام مقدما بالطب فغلب الاطباء وعصر النبى صلى الله عليه وسلم مقدما بالبلاغة ففضل البلغاء فرأى أن عصره مقدم بالكيمياء فأراد أن يبهر الناس فيما يستنبطه من المركبات.

وقد فرغت من تقييد هذه الرسالة فى ختام السنة الحادية والستين بعد المائة من الهجرة المشرفة وأنا على أهبة السفر الى خراسان وسأصدر لك منها كتابا أودعه ذكر الشيعة فيها وأخبار أممها من الفرس والديلم

وغيرهم. وبالله نعتضد فيما نعتمد. وهو حسبنا ونعم الوكيل .

﴿ الرسالة الخامسة ﴾

﴿ طرف من أخبار المهدى والهادى ﴾

(١) ولما وصلت الى بغداد قصدت باب البرامكة لأقرأ عليهم سلام الفضل (٢) أعزه الله وأطفئ ما بنفسى من الشوق الى الانس بقربهم المحبوب اذ كانت المكاتبة بيننا طول هذه الايام لم تزدنى الا شغفا بمحاسنهم واستطلاعا الى محيا جمالهم. ثم انى قصدت باب فقيه الاسلام وقد اتخذه المهدى رحمه الله قاضى قضاة المسلمين وصارت اليه جوائز الهادى والرشيد من بعده حتى بنى لنفسه فى درب أبى خلف (٣) من ناحية الكرخ الدار التى لم يبن مثلها الا ملك أو أمير فألفيته فى مجلس حافل بالادباء والامراء وعليه (٤) المبطنة والطيلسان وقلنسوة طويلة (٥) قد أحاطها بعمامة سوداء دعته الحاجة من خدمة العباسيين الى اتخاذها على لون شعارهم وهذا هو الزى الذى يروم ان يكون مخصوصا بالفقهاء (٦) لتمييزهم عن سائر الناس فكان للقائنا موقف يستبكى الحمام

(١) الرسالة المكتوبة فى خراسان لم تطبع والحديث هنا تابع لها موصول بها كما تراه

(٢) كان فى ذلك الوقت عامل خراسان من لدن الرشيد كما هو مذكور في ابن الاثير (٣) محلة ببغداد ذكرها ابن خلكان ١*٣٠ (٤) المسعودي ٢*٣٣٧

(٥) وجدت في العقد الفريد ٣*٤٣ و٢٣١ لفظة الطويلة بمعنى القلنسوة (٦) ابن خلكان ٢*٤٥٠ والاغانى ٥*١٠٩

لفرط ما بنا من الاشواق ٠ وصرفت اليوم بقيته بحضرته أجاذبه أطراف الحديث وقد نبأني بماجريات القوم في المدة التي كنت منفصلا فيها عن دار السلام لان القضاة قد يرد عليهم من طرائف الاخبار (١) مالا يرد على غيرهم من أرباب الدولة مثله ولا سيما من كان بمنزلة هذا الفقيه عند الخليفة حتى انه ليجلسه على سريره بجانبه (٢) ويقوم له اذا دخل عليه ولا يقلد القضاء (٣) ببلاد العراق والشام ومصر وخراسان الا من أشار به اليه ٠

ولقد ذكرت لك في رسالتي من خراسان ما اتصل بي من أخبار المهدي والهادي رحمهما الله فيما يتعلق بأمور الدولة . أما أخبارهما الخاصة فقد حدثني بها لسان الشريعة على اسهاب لا موضع له في هذا الكتاب على أن المهدي ما برح مستمرا الى انقضاء خلافته على ما ذكرت لك من استمالة الناس ومقاومة أهل البدع فيما به تعزيز الملة والدولة ولقد جرت الشريعة في ايامه والى هذا اليوم على أحسن منوال معروف لانقطاع النظر فيها الى أبي يوسف من دون الخلفاء بحيث لم يتول القضاء الا أهل العلم ومن لا يميل به طمع النفس الى الخروج عن جادّة العدل . وقد أقر رجاله في وظائفهم الا وزيره يعقوب وقد وضح له ميله مع أهل البيت (٤) ورفع اليه المفسدون بيتين من الشعر أغروا بشارا على قولهما . وأطاروا ذكرهما كل مطار .

---

(١) الاتليدي ٧٩ (٢) الاتليدي ١٤١ (٣) الماوردي والاسحاقي ٩٠

(٤) ابن الاثير ٦*٢٦ والمسعودي ١٩٦٥٢ والفخري ٢٢١

بنى أمية هبّوا طال نومكم ان الخليفة يعقوبُ بن داود
ضاعت خلافتكم ياقوم فالتمسوا خليفة الله بين الناى والعود

فنكبه لذلك وألق فى بئر عمى فيها وهو يتوسد التراب الى أن مات فى خلافة الرشيد قبيل عودتى من خراسان .

وكانت مأثرة المهدى فى آخر أيامه وضعه البريد (١) ابلا وبغالا فى كثير من البلاد مما استنفق أموالا طائلة ولا سيما فيما بين مكة والمدينة الى العراق وهو أول من أقام البريد من الحجاز الى الحضرة لما يروم من تناول الاخبار ومناولة الرسائل على وجه السرعة اذ كان على تيقظ من العربان فى مناصرتهم لاهل البيت بالمواطن المشرفة كما كان على حذر من أهل الشام فى استظهارهم على عماله بمن يجاورهم من العربان الذين ما كانوا بحكم العباسيين راضين سوى نفر قليل كانوا يحملون الضيم لمخالفة السواد الاعظم من قبائلهم ولذلك كان يرى المهدى امداد عماله بالعمال والعربان بالمال حيناً بعد حين حتى دعته الحال الى الشخوص بنفسه اليهم فزار دمشق (٢) وبيت المقدس (٣) وأخذ فى ازالة الخلاف الذى كان واقعا بينهم فى بادية الشام . بما فرق فيهم من الاموال الجسام .

أما الهادى رحمه الله فانه نسج على منوال أبيه وقد رسم له بتتبع

---

(١) ابن الاثير ٦*٢٦ وابو الفداء ٢*١٠ والسيوطى والكنز ١٠٦
(٢) قضاة الشام (٣) الاغانى ٦*٦٧ والانس ١*٢٥١

الزنادقة فمضى على ذلك وافتتح خلافته بقتلهم ووكل بهم رجلا يقال له عبد الجبار (١) وهو المعروف بصاحب الزنادقة فاقتص أثرهم في الزوراء حتى لم يدع منهم عينا تطرف . فما كان الزنادقة فيما أخبرني أبو يوسف الالزاز شرفي عقيدتهم وان بدا للناس ظاهر لهم من الظرافة وحسن السيرة (٢) كما يشير لذلك بعض الشعراء بقوله في رجل قد اتهم بالزندقة (٢)

لست بزنديق ولكنما   أردت أن توسم بالظرف

فانما يتعدون مذهبهم من التكذيب بالانبياء وتعليم الناس البغض في الخلفاء الى أن يمسوا الشرع الشريف بما لايحلاه كتاب الله فقل للمفترين على الله انه يحضرهم في يوم لايغني عنهم شيء ولا هم يرحمون . واعلم انه لم يل الخلافة قبل الهادي أحد في سنه ولكنه لم يستكمل ستا وعشرين سنة حتى مات فكانت مدة ولايته سنة وشهرين الا أياما وكان ذا ظلم وجبروت (٣) واذا ركب مشت الرجال بين يديه بالسيوف المشهرة والاعمدة والقسيّ الموترة ولذلك كثر السلاح في عصره وأحرز منه الشيء الذي كان يحب التباهي به حتى قيل انه أعطى لشاعر مدح سيفا عنده كان لعمرو بن معدى كرب يقال له الصمصامة عشرين ألف درهم على هذه الابيات .

حاز صمصامة الزبيدي من بين جميع الانام موسى الامين
سيف عمرو وكان فيما سمعنا   خير ماأغمضت عليه الجفون

---

(١) الاغاني ٣*٧٢ (٢) ابن الاثير ٦*٣٨ (٣) الاغاني ١٧*٧٢
(٣) الخميس والمسعودي والسيوطي

أخضر اللون بين خديه برد ... من ذعاف يميس فيه المنون
أوقدت فوقه الصواعق نارا ... ثم شابت به الذعاف القيون
فاذا ماسللته بهر الشمس ضياء فلم تكد تستبين
مايبالى من انتضاه لحرب ... أشمال سطت به أم يمين
يستطير الابصار كالقبس المشعل ماتستقر فيه العيون
وكأن الفرند والجوهر الجا ... رى على صفحتيه ماء معين
نعم مخراق ذا الخليفة فى الهيجاء يقضى به ونعم المعين (١)

وقد صارت المراتب فى أيامه الى المنتشئين من البرامكة والطاهريين والمهالبة وغيرهم ممن كنت أعرفه صبيا قبل نزوحى الى هذه الرحلة التى امتدت بى سيرًا . وكان على وزارته الربيع بن يونس حاجب أبى جعفر غفر الله له وعلى بيت ماله المعلّى بن طريف (٢) وعلى حجابته الفضل بن الربيع وعلى جنده آل أبى العلاء وقد حدثنى بأخباره معهم بعض من كان مقربا اليه من الندمان ومنهم رجل من أهل الحجاز يقال له عيسى بن دأب وقد بلغ عنده من الحظوة لديه والجلوس بحضرته على المتكآت مالم يكن يطمع به غيره فى ذلك (٣) فكان يصف لى أخبار مولاه بما يرفعه الى مساماة العظماء من أهل الرأى والتدبير غير أنى ما عرفت له شيئاً من هذه المحاسن وهو صبي ولا رأيت فى دولته الزهاء الذى أشرق على دولة المهدى قبله ثم الرشيد من بعده لانه كان منهمك النفس بحب اللهو ومجالسة

---

(١) الحصرىّ (٢) الاغانى ٣*١٥٣ (٣) المسعودي ٢*٢٠٢

النساء حتى قصف عمره من فرط التمتع بهن وولد له فى فتاء سنه أولاد كثيرون وفيهم ولد أعمى (١) فيما سمعت . ولذلك كان الطامعون اليه من غير أهل المراتب اكثرهم أهل لهو وطرب . وكان أقربهم اليه مكانا وأفضلهم عنده منزلة ابراهيم الموصلى النديم وهو فارسى الاصل بارع فى جميع فنون العلم والادب الا أنه غاب عليه الغناء بعد أن تخرج على جوانويه (٢) وسياط فبلغ من الاجادة فيه المكان الذى لم يبلغه المغنون من أهل الحجاز ولذلك كان الهادى اليه أميل منه الى سواه من الندماء يقال انه كان اذا استعطاه خمسين ألف درهم أعطاه مائة ألف (٣) وقد قال لى اسحق ابنه والله لو عاش لنا الهادى لبنينا حيطان دورنا بالذهب (٤) .

(جمال بغداد بالرشيد والبرامكة)

ولما تجولت فى المدينة بعد طول الغيبة عنها وجدتها فى سعة من العمران ما كنت أعهدها قبل هذا الوقت فما كفى اهلها الموسرين ما رفعوا فى مدينة المنصور من المبانى المشرقة حتى توسعوا الى سكنى الجانب الشرقى المعروف بالرصافة فبنوا فيه القصور الرفيعة والمنازل المزخرفة واتخذوا الاسواق والجوامع والحمامات (٥) وتوجهت عناية الرشيد

---

(١) العقد الفريد ٣*٥٤ (٢) الاغانى ٥*٤ (٣) الحصري ٢*٢٠١ (٤) الاغانى ٥*٦ (٥) قال ابن خلدون نقلا عن الخطيب ان الحمامات بلغ عددها فى بغداد لعهد المأمون خمسة وستين ألف حمام وكانت مشتملة على مدن وأمصار متلاصقة ومتقاربة تجاوز الاربعين ولم تكن مدينة وحدها يجمعها سور واحد لافراط العمران

والبرامكة الى تزيينها بالبنايات العامة حتى أصبحت الزوراء بجانبها كأنها البلد العتيق تجتمع محاسنه فى جزء من محاسن المدينة التى أحدثت فى جواره.

ولقد اكبرت من بغداد بلوغ العمران فيها بما رأيت من ازدحام الناس بأنحائها وتموجهم كالبحر فى أرجائها يقال ان عددهم يزيد عن ألف ألف وخمسمائة ألف (١) وهذا جمع لم يكن مثله ولا قدر نصفه فى مدينة من العالم قط فانما يدل اجتماع الناس الى هذا القدر العظيم على أن ليس فى المدن أيمن (٢) ولا أيسر من الموضع الذى يتكوفون فيه تكوف الرمال . ثم أعظمت بلوغ النعيم فى أهلها بما رأيت من توفر أرباب الغايات عندهم من الفنون التى لا تقتصر الحاجة منها على ضروريات العمران وانما تتوسع المنفعة من صناعتها ومصنوعتها الى مطالب الترف الذى يقع فى الامم عند استكمال دولتهم واستفحال أمرهم .

وانه يتعذر عليّ بهذا القلم الذى لامادة فيه أن أصف مفاخر المدينة(٣) التى أقل ما تصيبه من الشرف أنها تزهو ببهاء السلطان . وتضم اليها من عيون الاعيان ما ان لقى السائر منهم جماعة فى الطريق لم يفطن لهم من حيث الكثرة مع أن أقلهم فى الثروة والجاه يتعذر على اكبر المدن أن تحمل سكناه وتسع جنده وغاشيته والطامعين اليه من كافة الوجوه(٤)

---

(١) في الاتليدي انهم ألف ألف وخمسمائة ألف (٢) ابن الاثير ٦*٩٦ وابو الفداء ٢*١٩ (٣) يقول الحصرى ان أدباء العصر يصفون الجمال بقولهم كان بغداد مسروقة من حسنه وظرفه (٤) الاغانى

فلقد يمشى أهل النعمة فيها بالغلمان (١) والحاشية الى عدد يتوهمه السامع بعيدا عن الصدق فشاهدت فى محلة العتابية (٢) أميرا قد ركب فى مائة فارس وأحدق به الغلمان حتى ملؤا الطريق وسدّوا على الناس سبيلهم الى أن مر وشاهدت فى مشرع القصب (٣) على دجلة فتى من أهل النعمة قد سار بموكب عظيم من الخيل والرجل كأنى به قيصر على مركبه أو كسرى فى جلال موكبه . وربما عدّ المحصى فى ولد العباس اكثر من ألف رجل (٤) يركبون بمثل هذا الجمع وكلهم فى سعة من الثروة وترف من الحضارة . وانما ساد العمران عند البغاددة الى حد الترف تشبها بما يرون من الرشيد فى اقباله على الدنيا بطلب النعيم حتى يصدق المثل الذى يقول « الناس على دين الملك » فهو الذى ألبس الدنيا هذا الجمال بسعة عطائه ولم يسمع عن الخلفاء من كان أسمح منه ببذل المال . (٥) يقال انه ينفق على طعامه فى كل يوم عشرة آلاف درهم (٦) وربما اتخذ له الطباخون ثلاثين لونا من الطعام (٧) وقد أخبرنى أبو يوسف أنه لما بنى بزبيدة بنت جعفر اتخذ وليمة لم يسبق مثلها فى الاسلام وجعل الهبات فيه غير محصورة حتى كان يهب أوانى الذهب مملوءة بالفضة وأوانى

---

(١) الاغانى ٤*١٠٤ و ٥*٨٤ وابن الاثير ٥*١٤١ و ٢٣١ والمستطرف ١*٦٥ (٢) ذكرها ابن خلكان ١*٧٤١ (٣) ذكره ابن خلكان ١*٧٩ (٤) فى مروج الذهب ٢*٢٥٩ أن المامون أحصى ولد العباس سنة ٢٠٠ فكان عددهم من رجال ونساء وصغير وكبير ثلاثة وثلاثين ألفا (٥) الفخرى ٢٣٠ والخميس ٢*٣٣١ (٦) المسعودي ٢*٣٤٢ و ٢٢٠ والمستطرف ٢*٣٤١

الفضة مملوءة بالذهب ونوافج المسك وقطع العنبر(١) وبلغ جملة المنفق فيها من بيت المال خمسة وخمسين ألف ألف درهم وأمر أن تجلى زبيدة فى درع من الدر لم يقدر أحد على تقويمه بثمن وزينها بالحلى حتى لم تقدر على المشى لكثرة ما عليها من الجوهر وهذا شئ من الاسراف لم يسبق اليه أكاسرة الفرس ولا قياصرة الروم (٢) ولا صبية الامويين مع ماتقلبوا فيه من المال الكثير .

ومن جمال الدنيا فى هذه الايام ان الرشيد لا ينفرد وحده فى كثرة الانفاق والتبذير فان زبيدة زوجه تصنع أعمالا تفوق مقدرة الملوك كمثل اصطناعها بساطا من الديباج جمع صورة كل حيوان من جميع الاجناس وصورة كل طائر من الذهب وأعينهما من يواقيت وجواهر يقال انها أنفقت عليه نحوا من ألف ألف دينار (٣) وكمثل اتخاذها الآلة من الذهب المرصع بالجوهر والثوب من الوشى الرفيع يزيد ثمنه عن خمسين ألف دينار والقباب من الفضة والابنوس والصندل عليها الكلاليب من الذهب الملبس بالوشى والديباج والسمور وأنواع الحرير وكمثل اتخاذها

---

(١) السيوطى والعقد الفريد وتزيين الاسواق والمقدمة (٢) وجدت في بعض الكتب أن المأمون بن الرشيد اتخذ في قصوره ثلاثة آلاف وثمانمائة بساط منها ألف ومائتان مزركشة بالذهب وغيرها مطرز بالحرير واتخذ سبعمائة خصيّ منهم ثلاثمائة عبد أسود فان صحت الرواية فليس لذكر ترف الروم ولا الفرس موضع في جانب العظيم من ترف العباسيين (٣) المستطرف ١*٩٨ وذكر ان التى صنعته هى ام المستعين

شمع العنبر واصطناعها الخف مرصعا بالجوهر واتخاذها الشاكرية من الخدم يختلفون على الدواب فى جهاتها ويذهبون فى حوائجها ورسائلها (١) الى غير ذلك من الامور التى تدوّن فى سير الملوك لتعظيم موضعهم من السلطان وذكر ما تقلبوا فيه من الطيبات .

ولم أر مثل هذا الترف فى غير دور الخلافة الا عند البرامكة الامجاد واليهم ينتهى جمال الملوك واشراقهم فاذا عزموا على الركوب جلس الناس لهم حتى يروهم اكثر مما يجلسون للخليفة . ولقد رأيت بعض صبيتهم بباب محول من الجانب الغربىّ (٢) فى موكب عظيم وقد طرز فى ملبسه وبين يديه الجند والغلمان . والحفد والاعوان . وهو واضع طرفه على معرفة فرسه والناس ينظرون اليه وهو لا يلتفت اليهم كبرا وجلالة وكان الرشيد نفسه اذا حضر مجالسهم وهو بين الآنية المرصعة . والخزائن المجزّعة . والمطارح من الوشى والديباج والجوارى يرفلن بالحرير والجوهر ويستقبلنه بالروائح التى لا يدرى ما هى لطيبها خيل له أنه فى الجنة بين الجمال والجوهر والطيب .

وقد انتهى ترف شبابهم الى الغاية التى لا وراء بعدها من التمتع بسعة النعيم وربما كانت مجالس الطرب فى دورهم أجلّ منها فى دار الرشيد واجمع لمعدات اللهو (٣) لان عندهم الغوانى (٤) اللواتى ليس

---

(١) المسعودى ٢*٤٠٢ (٢) ذكره الاغانى ٦*٧٨ والمسعودي ٢*٢٣٧ (٣) الاغاني ١٥*١٤١ (٤) الاغانى ١٥ . ١٤١

مثلهن فى البلاد ولا سيما فوز وفريدة (١) ومنة (٢) وهن أظارف القيان غناء وأحسنهن ضربا بعود .

واعلم أن الغناء من قبل البرامكة ما كان يعلم فى دور الامراء لغير الصفر والسود (٣) فلما نشأ أولادهم أحبوا أن يعلموه للجوارى الحسان (٤) ليزيد جمالهن فى الغناء تأثيرا على النفوس. وقد أخبرنى نافذ من بعض حجابهم انه لما زارهم الرشيد فى يوم من أيام لهوه أخرجوهن الى البستان فاصطففن أمامه مثل العساكر صفين صفين وغنين له وضربن بالعيدان ونقرن على الدفوف الى أن طلع الى مقاصير القصر .

فهذا شىء من الترف لم يصل اليه غيرهم من الامراء سوى ما بلغنى (٥) عن بعض نساء بنى هاشم أنها عشقت المأمون من أولاد الرشيد فاستدعته اليها وقد أعلمته أنه يصطاد عندها صيداً لم يصطد الملوك مثله فأدخلته فى قصرها بستانا زينته بأفخر أنواع الزينة واتخذت فيه ألوان الطيور القمرىّ والفاخت والهزار والشحرور والطاووس وغيرها وقد كانت زيّنت مائة جارية من الابكار وكلهن آية من آيات الحسن والجمال وقد اتخذن فى أوساطهن مناطق من ذهب وأمرتهن أنهن اذا رأينه تدادين بين الاشجار فلما دخل المأمون البستان ووقع عليهن نظره اختبأن وراء الاشجار وتوارين فى ظلال الكرم المعرّش بين الرياحين والرمان فأعجبه

(١) الاغانى ٣*١٨٣ (٢) الاغانى ٤*٨٧ (٣) الاغانى ٥*٩ (٤) الاغانى ٥*١٤ و١٧ (٥) الاتليدي ٢٢٥

ذلك منهن وقضى معهن يومه في أطيب اللذات . وأهنأ المسرات .وهذا غاية مايكون من الانغماس في ملذات العيش ولا نعلم عن أحد من الملوك السالفة أنه نال من طيباتها ماهو موفور عندملوكنا فى هذا الزمان فكان بغداد قد ألقت جوانبها على مهاد الدعة ووجدت لأهلها أسباب النعيم والكبر (١) بما توفر عندهم من المال.

﴿ ترف البغاددة وانغماسهم فى طيبات العيش ﴾

يتوفر الترف عند العظماء من أرباب الدولة ثم ينقص شيأ فشيأ عند من هوأقل منهم فى الجاه الى أن يبقى منه نصيب لعامة الناس . وهم وان لم يكونوا بموضع هؤلاء الملوك من جلالة قدرلهم واتساع نعمة عندهم غير انهم أخذوا يمتعون أنفسهم من الطيبات فى جميع وجوهها بعد أن تغربوا بالاسفار التى اكسبتهم التجارب وأرتهم العجائب. وأوجدت لهم التجارات والمكاسب . فصار الناس من الجهات يقصدونهم بأفخر ماعندهم من جميع الاجناس الى أن عمرت عندهم الاسواق وتطرقوا من التماس الحاجات لضرورة العمران الى اقتناء الاشياء للزينة والمباهاة كابتياعهم السلاح المنزل بالذهب وتنافسهم فى الجواهر الثمينة والآنية المزخرفة والمتاع الفاخر واقتنائهم العدد الكثير من الغلمان والقيان الى غير ذلك مما كانوا يوجهون رسلهم فى طلبه من الجهات

(١) ذكر ابن جبير ٢١٩ الكبر من عيوب بغداد

(١) فلما حمل اليهم كل غال ونفيس من البلاد. تحقق لدىّ أن محاسن الدنيا قد اجتمعت فى بغداد

ولقد شهدت سوق الجوارى بعيد عودتى من خراسان وقد أقيمت فى الموضع المعروف بسوق النخاسين (٢) وهم الرجال (٣) الذين يجلبونهن من أطراف الدنيا الى بغداد فرأيت فيهن الحبشيات والروميات والجرجيات والشركسيات والعربيات من مولدات المدينة والطائف واليمامة ومصر ذوات الالسنة العذبة والجواب الحاضر. وكان بينهن من الغانيات الاتى يعرفن بما عليهن من اللباس الفاخر الذى لاغاية بعده (٤) وبما يتخذن من العصائب التى ينظمنها (٥) بالدر والجوهر ويكتبن عليها بصفائح الذهب. كلاما يحلو لأهل الطرب . فرأيت على بعض العصائب « وضع الخد للهوى عز » ورأيت على بعضها « من كان لنا كنا له » (٦) ورأيت فى صدر جارية هلالا مكتوبا عليه.

أُفلتُ من حور الجنان   وخلقت فتنة من يرانى

وقرأت فى عصابة أخرى.

ألا بالله قولوا يارجال   أشمس فى العصابة أم هلال

ولقد يخال الناظر لاول وقوفه بهذه السوق أن بيعهن انما هو جار عليهن من قبيل الظلم والاسترقاق غير أنه لايستقر فى هذا الوهم الطارئ بعد

---

(١) ذكره تزيين الاسواق ١*٣ (٢) الاغانى ٩*١٢٨ (٣) الاغانى ٥*١٢٦ (٤) الاغانى ٢*١٧٥ والعقد الفريد ٣*٤٣٩ (٥) الكنز ٤٧

أن يرى تطارحهن على أهل النعيم. ولقد سمعت أن بعض الغوانى المترفات يتخلصن سراً من حيث لايحببن المقام ثم يأتين السوق متواريات عن عيون الرقباء الى أن يقع سوقهن على أحد من الناس ومواليهن بهن غير عالمين فيتصرف النخاسون في بيعهن مثل تصرف التجار ببضائعهم واذا وقع سوقهن على رجل قبض بيده على يد النخاس كما هى العادة المألوفة في البيع والشراء. ولقد وقفت فى ذلك اليوم والدلال ينادى بمن حوله من الراغبين ويصف لهم الجارية بعد الجارية بأحسن مايكون من أوصاف الجمال (١) وكانت الضوضاء مرتفعة والسوق رائجة والعيون تتبادل الحديث وتنبئ بما فى ذات الصدور .

أعود الى ما كنت بصدده من ذكر البغاددة فى ترفهم المفرط فانى رأيتهم يزينون مجالسهم بالفرش الفاخر والمتاع الثمين ويلبّسون حيطانها بالوشى والديباج ويعنون بغرس الزهور فى جنانهم حتى انهم ليجلبون لها الرياحين (٢) من بلاد الهند فيصير من هذه الجنان ما يقوم ثمن البستان الواحد بعشرة آلاف دينار (٣) ويتخذون خولهم وغلمانهم من أظرف الناس وأخفهم نشاطا ويميلون الى اللهو والطرب بما قدذكرت من اقبالهم على اقتناء القيان ويتفننون في ملذات الطعام الى ان يشتروا الصيد فى غير أوانه والثمار في غير ابانها بما يزن مثله فضة ويتمتعون بالذوق فى غير طعامهم

(١) الاغانى وحلبة الكميت (٢) ياقوت ١*٦٨٧ والمسعودى ١*١٨١ (٣) الاغانى ٥*١١٥

بما يمضغون من الطيب وورق التنبول الهندى الذى يمزجونه بالنورة المبلولة مع الفوفل لتطييب النكهة وتشهية الاكل واحداث الطرب والاريحيّة فى النفس (١) ويتخذون مقاعدهم فى أوان الحر بين الماء المتدفق من صور السباع واشكال الطيور وأشكال التفافيح وغيرها مما ينقشون فى الرخام فاذا ما أصابت الاجساد منها الرطوبة الوافية بترويح النفس اتخذوا فى السقوف مراوح (٢) يعملون لها حبالا تجرّ بها فيجذبونها فيهب عليهم النسيم البارد ويستجيدون فى اللباس والزينة وركوب الخيل بالديباج والحلية الثقيلة من الفضة الى الغاية التى لم تبلغها الامم المترفة من قبلهم.

ولما توسعوا فى الحضارة الى حد الافراط وقع فى شبانهم مرض من الانهماك فى الشهوات . والاسترسال فى الملذات. كالذى عهدناوقوعه فى الفرس والروم واليونان عند ما استفحل فيهم العمران وبلغوا أقصى درجات القدرة والسلطان . وهؤلاء الشبان يعرفون بالمخنثين وهم زينة بغداد المترفة فى حسن أزيائهم(٣) ورقة كلامهم وظرف معاشرتهم (٤) وسرعة خاطرهم الى النكات (٥) الغريبة وهم يبخرون ثيابهم ويتمسكون(٦) ويلبسون الحالى مصقولة (٧) واذا لم يكن بين أيديهم من المال ما يمكنهم من الثوب الذى يبلغ مائة دينار (٨) ثمنا اكتروا ثيابا بالاجرة عن كل

---

(١) المسعودي ١*١٠١ (٢) الكشكول والاغانى ١١*٩٩ والعقد ٣*٢٣٥
(٣) الاغانى ٤*٥٩ (٤) الاغانى ٣*١٢٨ و١٧*١٥ (٥) الاغانى ٣*١٢٨ (٦) الاغانى ٧*١٥٤ (٧) الاغانى ٤*٣٩ (٨) الاغانى ٣*١١٥ والمستطرف ٢*٣٥

يوم درهم ودرهمان (١ فيلبسونها أياما ثم ينتقلون الى غيرها . ورأيتهم يجتمعون في جنان النزهة سفراً حيث يقيمون الغناء على انفراد من الناس وهى جنان (٢) قد أنشئت فى محلة الكرخ واتخذ فيها حوانيت تخزن فيها النقول ويهيأ فيها الطعام لمن يريده من المتنزهين . يقول بعض أهل اللهو فى ذكرها على سبيل الصبابة اليها .

سقى الله باب الكرخ من متنزه   الى قصر وضّاح فبركة زُلْزُل
مساحب أذيال القيان ومسرح الـ   ـحسان ومثوى كل خرق معدّل

وربما كان فى هؤلاء المخنثين قوم فسقة (٣) يلتمسون من الملذات ما فيه خروج عن الشرع كمثل أن يشربوا الخمر ويطرقوا المنازل بالليل (٤) ويسرّحوا العجائز (٥) في طلب المتخففات من ربات الخدور فتأخذ الشرطة منهم من تطول اليهم يدها ثم تضربهم الحدود بالسياط فيتجلدون تحتها ليقال فلان صبور (٦) من الفساق وكذلك الرخاء يتسلط عليه مرض من انهماك أهله بالملذات وما العفة الا من عند الله يهبها للمتقين من عباده وهو العليم الحكيم لا رب سواه .

دخولى على هرون الرشيد

لقد ذكرت لك عن بغداد باليسير من الكلام مافيه دلالة على

(١) الاغانى ١٧*٣٤ (٢) العقد الفريد ٣٤٥ والاغانى ٣*٥٨ و١٣٣ و٥*٢٥ و٦*٦٦ و٩*٢٤ و١١٣ (٣) ذكرهم ابن الاثير فى حوادث سنة ٢٠١ وانهم كانوا يقطعون الطريق ببغداد (٤) المقدمة (٥) الاغانى ٥*١١٩ (٦) الاغانى ٤*٦٤ والمستطرف ١*١٠

عظيم ما صارت اليه في هذه الايام فاكتب الآن اليك ما يأتى به القلم عن دولة الرشيد وما يقابلنى به من جميل العاطفة والاحسان فانى مضيت الى داره فى غد اليوم الذى وصلت فيه الى الحضرة فأصبت ابن البواب جالسا في حجرات الحجاب وهو الذى يخلف الفضل بن الربيع على حجابة الخليفة (١) فلما رآنى أوسعنى سلاما وتحية ثم جاوزنى الى قصر الرشيد وهو قصر بناه (٢) لنفسه تجاه دار الضيافة (٣) من دور الخلافة وقد استجاد فرشه وأفرغ العناية فى تجميله بأفخر أنواع الزينة وأقام فيه الاساطين التى يصطف بجوانبها الغلمان (٤) وقد بناه على دجلة بحيث يسمع صوت الذين يعبرون فى الزوارق (٥) وكثيرا ما كنت اذا زرته بعد ذلك أصبته جالسا الى الشباك يستمع غناء الملاحين في الزلالات (٦) فلما دنوت منه بادرت الى يده فقبلتها فضمنى اليه بالتحية والسلام . وأقبل يلاطفنى برقيق الكلام .

وكان الرشيد طويلا عبل الجسم أشقر اللحية عليه مهابة الملوك وجلالتهم (٧) وعيناه وقادتان كأنهما لسانان ناطقان فاذا أصغى لمتحدث بين يديه حوّطه ببصره حتى لا يجد سبيلا الى أن ينطق فى حضرته بغير صدق .

---

(١) الاغانى ٢٠*٤٢ (٢) الاغانى ٥*٣٣ (٣) قصر من قصور الخلافة ذكره الاغانى ٦*١٣٣ (٤) الاغانى ٦*٧٦ و٥*٣٣ (٥) الاغانى ٩*٦٧ (٦) الاغانى ٣*١٧٧ (٧) العقد والخميس والسيوطى وابن الاثير

فلما وقفت بين يديه أمر الفراش (١) أن يأتى بما أتكئ عليه (٢) وهذا تعطف من الخليفة لا يكون الا للبرامكة وأبى يوسف وجلة المشايخ من ولد العباس. ثم انه استدنانى (٣) اليه واخذ يحادثنى بما يستعذ به من ماجريات صباه ويحفظ لى بنفسه من جميل الذكر وأنا أجيبه على ذلك بما تقتضيه جلالة الخلافة الى ان ذكر لى حديثه عن خرسان فاخبرته عما كان هناك من الاختلال . وان الفضل رتق الفتق الذى دبره اهلها بالمحال . واطلق يده فيهم بالضرب والنكال . وكنت عند ما ذكرت ذلك قد بادرت الى سيفى كما جرت العادة بأن لا يكلم الخليفة احد بمافيه الوهن الا بادر الى سيفه (٤) تعظيما للامر وقياما بواجب الاجلال . فقال سبحان الله لقد أوصينا الفضل بهم خيراً لانهم محبون لنا (٥) وهم سيوف دعوتنا وانصار دولتنا ومن لهم علينا حق الدالة بنا وحرمة الوسيلة عندنا فقلت ياأمير المؤمنين ان الفضل أخاك لم يمكن السيف فى رقابهم الا بموافقة القواد الذين اذا ماشاورهم فى الامر وقع بالموافقة من نفوسهم استاحام خوارج قد تراخت بهم الحال . وصارت فتنتهم الى سوء المآل . فلما ذكرت له ذلك اعرض عن الافاضة فى هذا الحديث وأخذ ينكت الارض بشىء فى يده ثم قال وهذه مصلحة التجارة فما الذى يكتب الينا الفضل عن لزوم حراستها بالجند فقلت له ان فى خراسان تجارة تباع بابخس الاثمان

---

(١) ذكره الاغانى ٩*٦١ (٢ ابن الاثير ٦*٣٨ والاغانى ٥*٢٣ و٩*٦١
(٣) الاغانى ٥*١٠٦ (٤) الاغانى ٥*٥٩ (٥) العقد الفريد وابن الاثير ٦*٧

فاذا أمن السابلة عليها من العربان جلبوا خيراتها الى العراق واتجروا بها مع أمم البحر فقال حسن ولكن لنا أعداء ينبغي أن نكون منهم على حذر ولا نرفع عنهم سيف الاسلام ونحن ساهرون عليهم ومرتقبون لهم بالجند اذ لا بد للراعى من حراسة الرعية (١) ولقد يكفى التجار ما أمنا لهم من السبل فى غير الديار العران . وما احتفرنا لركبهم من الركايا وأوجدنا لهم من المناهل فى البلدان العامرة التى نحب أن تكون سوق التجارة فيها دارّة وأما تجار خراسان وما اليها من البلدان النائية فانا لا نحسب زكاة أموالهم كافية لمصلحة الجند ووافية بأرزاقهم .

وكان الرشيد على مهمة هذه المفاوضة عنده يقطع حديثه مرة بعد مرة . ثم يقبل على نفسه بالتأمل والفكرة . فأوهمت أنه يرى فيها مسألة تنقبض نفسه دون بسطها الىّ فاذا الامر على خلاف ذلك وانما كان مشغول الخاطر بما أقلق أباه قبله من أمر الولد وايثار بعضهم على بعض بالخلافة (٢) فاتفق وأنا بالخلوة معه أن دخل عليه خادمه العبد فتفرسه الرشيد وقال له ما وراءك يا مسرور فقال ما تحب يا أمير المؤمنين ثم قام مقامه الذى كان اذا قامه علم الرشيد أنه يريد أن يساره بشئ (٣) فأومأ اليه بالدنوّ فألقى فى أذنه كلاما ثم تنحى فقال لى الرشيد هذا خادمنا الامين نرتاح اليه فى الاسرار والمهمات لم يحدثنا جهراً بحضورك ولكنه

(١) قالها الرشيد وذكرها الوطواط ١٠١ (٢) ابن الاثير ٦*٥٨

(٣) الاغاني ٥*٣٣

سارّنا فى أمر مما أخذنا فى تقديم المأمون على الامين بالولاية لاننا نرضى سيرته ونأمن ضعفه (١) ونعرف فيه حزم المنصور (٢) ونسك المهدى وعزة نفس الهادى مع أنّ بنى هاشم يميلون الى الامين وأنشد .(٣)

أخاف التواء الامر بعد استوائه وأن ينقض الحبل الذى كان أبرما

فلما رأيت بلوغ القلق في نفسه من هذا الامر تقدمت اليه فيما تقدم يحيى الى أبيه (٤) والفضل اليه (٥) من مبايعة الولد بعد الآخر مع علمى بأن ذلك أمر لايجرى فيه الوفاق ولا يتم على الوجه الذى يريده الرشيد بعد مارأينا من العباسيين تطاولهم فى أمر الخلافة ونقضهم العهود التى كانوا يكتبونها على نفوسهم فى حدود الله والآدميين . فهذا أبو جعفر(٦) لما رسخت دولته ومضت فى الناس كامته لم يجد من نفسه رادعاً له عن البغى فخلع ابن عمه من الولاية وصيرّها الى المهدىّ من بعده فلما ولى المهدىّ بحيلة الربيع وأخذ فى استمالة الناس بما فرّق فيهم من المال لم يجد منهم عند اظهار أغراضه فيهم الا المتابع له والموافق على خلع ابن عمه كما عامت . ثم لما صارت الخلافة الى الهادى وفى أعناق المسلمين المبايعة للرشيد بعده أراد أن يخلعه (٧) عنها ويصيرها الى جعفر من أولاده

(١) المسعودى ٢ * ١٥ والمستطرف ١*٩٣ (٢) الاغانى ١٧*٨٠ (٣) الحصرى ٢*٤٩ والمستطرف ١*٩٣ (٤) المسعودي ٢*٢١٥ (٥) الاغانى ١٧*٧٨ وابن الاثير ٦*٤٣ (٦) ابن الاثير٦*٥٨ وأبو الفداء ٢ * ١١ (٧) ابن الاثير ٦*٥٨

لولا ماأجراه يحيي رعاه الله من الدراية والحيلة المباركة كما علمت بعد الاوبة من خراسان .

وانما كان المأمون أحق بالولاية من الامين لانه اكبر منه بأيام وان لم تكن أمه هاشمية مثله فلو صارت الخلافة الى من هو أصغر منه وهو حاضر لم يصبر على ذلك فكان يحسب الرشيد من تقديم الامين عليه بالولاية وقوع الفتنة بينهما وزوال الخلافة عنهما جميعا الى الواقفين لها من أهل البيت أو الى من كان أقرب الهاشميين الى استخلاف ابي العباس فان عم عم عم الرشيد الى ثلاثة أعمام حاضرون فعبد الصمد بن على عم العباس بن محمد والعباس عم سليمان بن المنصور وسليمان عم هرون (١) فهؤلاء هم المرتقبون للخلافة والواقفون لها بالمرصاد فلا يسع الرشيد مخالفتهم فى تقديم المأمون على الامين وانما يرجع الى الرأى الذى تقدمت به اليه فتطمئن نفسه من بقاء الخلافة فى بيته ومصيرها الى من يحب (٢) من أولاده

الموازنة بين الرشيد وابى جعفر

هذا فصل أفرده لذكر سياسة الرشيد وبيان الموازنة بينه وبين أبي جعفر (٣) ان صحت المقابلة بينهما فانى لم أجد فى الملوك من جمع

(١) العقد الفريد ٣*٥٤ (٢) وهو المأمون عبد الله

(٣) أجمع المؤرخون على ان الرشيد كان يقتفى سيرة جده في السياسة ويطلب العمل بآثاره

فنون السياسة الى عقل الملوك وفضلهم (١) وحكمتهم ودهائهم مثله تجتمع محامده فى قربه من الخير وبعده عن البغي الذى كان طبيعة في أبى جعفر وبعض العباسيين حتى اذا صار اليه الامر كان أول ما أصدر من الامر أن تعاد الى الناس الضياع التى اغتصبها آباؤه وتردّ الاموال المغصوبة الى أهلها فى جميع النواحى والامصار(٢) فلو لم يكن له من المآثر غير هذا لكفى الناس فرجا ورحمة واسعة بعد ما شملهم من المكروه فى خلافة أبى جعفر وما استمر عليه المهدى من حفظ الضياع المقبوضة عنهم اما لطمع فى استغلالها واما استصوابا لسياسة أبيه حتى لا يقال عنه انه ظلم العباد فى أموالهم

ثم يصح تفضيل الرشيد على أبى جعفر بما هو آخذ فى سياسته من الصدق وحفظ المودة ومكافأة المحسنين على احسانهم حتى انه ليزيد عماله تجلة كلما عظم قدرهم واستفحل في الاسلام ملكهم فهذا روح من أمراء آل المهلّب لما عظم فى الدولة أمره ودانت الرقاب المتطاولة له أفرغ النعمة الواسعة عليه وجعل الولاية من بعده ارثا في ولده وكذلك ابراهيم من امراء الاغالبة لما تمكن سلطانه من أهل المغرب أمّره على افريقية الى أطراف الثغور وجعل له الولاية في بيته ليكون ممتنعا على العدو وكفيلا برد الفرنجة الى ماوراء البحر . وهذا أمر يدل على الحكمة التى فيها مصلحة الملة وان كان وراءه من استقواء الاغالبة خوف ما كان لا يصبر على مثله

---

(١) الفخري ٢٣٣ (٢) الماوردى ١٥٦

أبو جعفر مع ماعرفت له من التيقظ وسوء الظن بالعمال فان كان المنصور يحتال للامر حتى لا يقع فيه فإن الرشيد يحتال لما يقع في يومه من الامور على وجه يكون فيه توطيد الدولة وتعزيز الاسلام

ولقد سمعت من يقول في مجلس المراواة ان الرشيد يقتفى سيرة جده فى السياسة وذلك مردود عندى من حيث امتناع الممائلة بين الحلم والظلم والا فان كان الرشيد يمضى بالعدل أحكامه ليستميل الناس بالاحسان اليهم حتى لا ينصرفوا عن طاعته كما كان أبو جعفر يأخذهم بالعسف حتى لا يستطيعوا مغالبته فما الغاية المقصودة من سياستهما الا واحدة غير أن سياسة الحلم خير من سياسة القتل والظلم اذ يكون لصاحبها من دالة الرعية غبطة يحرمها البغاة الذين في نفوسهم مرض من الظلم اذ يحجبهم عن رعيتهم ستر الخوف ثم يقتلهم استنكار من حولهم من الناس والاشياء كما تقدم فى الكلام على أبى جعفر .

أما سياسة الرشيد مع أهل البيت ففيها خروج عن العدل لاستمراره على ظلمهم فى حقوق الذرية وان لم تكن مجراة على مارسم أبو جعفر من تتبعهم فى كافة الوجوه فانما كانت تختلف عنها بما تختلف فيه السياستان بين اللين والعنف . ولقد كنت أساير الرشيد فى بعض الايام فقال لى بلغنى أن العامة يظنون بى بغض علىّ بن أبي طالب فوالله وتربة أمير المؤمنين أبى انى ما أحب أحدا حبي له ولكن هؤلاء (يريد آله) أشد الناس بغضا لنا وسعيا في فساد دولتنا بعد أخذنا بثارهم من بني أميّة ومساهمتنا اياهم

ماحوينا حتى أنهم أميل الى بنى أمية اليوم منهم الينا . فكنت في ذلك الوقت بعيداً عن الوثوق بصحة هذا الايهام ولكن ظهر لى بعد ذلك انه لا يروم اقصاءهم الا على غير مكروه يصيبهم وأنه لو قدر أن يرفع عنهم الضيم الذى يلحقهم من جور العباسيين وهو موقن ببقاء الخلافة في يده من غير منازع له فيها لفعل وطاب بذلك نفسا فلقد علمت أن المكروه الذى ألم بيحيي بن عبد الله بن الحسن انما كان بسعاية أقاربه من العباسيين الذين لم يسعه مخالفتهم وهو بموقف يخاف منه الفتنة . وكذلك مقتل موسى ابن جعفر الامام لم يقع من نفسه برضاه لانه لم يكن متهما فى بدعة ولا ضنينا على دخلة مكروهة ولما قتلوه في حبسه أظهروا انه مات حتف أنفه ومشى الرشيد فى جنازته الى باب التبن حيث مقابر قريش فويق نهر عيسى الهاشمى فكنت احيط به في ذلك اليوم مع البرامكة فسمعته يترحم عليه ويظهر براءته من دمه غير ان تغاضيه عن هذه المؤامرة وان هو لم يدخل فيها غرر يسئل عنه يوم الحساب لأنه يجب على خلفاء النبي صلى الله عليه وسلم ان يتبعوا سنته التى هى العدل ولا يتسامحوا فى قتل الابرار الذين هم ذريته الصالحة وسلالته الشريفة رضى الله عنهم اجمعين .

هذا ماصحت فيه الموازنة بين سياسة الرشيد وابى جعفر الى الغاية التى يرجوانها جميعا من تأييد الدولة بها وان لم تتوافق اليها السبل وقد وجدت للرشيد اعزه الله فضلا فى تدبير المملكة احق بالثناء الجزيل .

وابقى للذكر الجميل . مما رأيناه لابى جعفر غفر الله له بما ينال الرشيد من المشقة في ركوبه الى اطراف المملكة لتفقدثغورها والنظر في تظلم الناس من ثقل يقع عليهم فى الخراج أو ضيم يلحقهم من جور العمال . فاذا صار الى البلدان العالية مما وراء خراسان حيث لايعرف اللسان العربى اخذ التراجمة (١) معه حتى لا يفوته شئ من امر الرعية فهو يحج سنة ويغزو سنة كذلك عادته من يوم ولى الخلافة (٢) قال الشاعر يمدحه على بعد هذه الهمة منه (٣)

فمن يطلب لقاءك أو يرده   فبى الحرمين أو أقصى الثغور

وقال الآخر (٤)

ألف الحج والجهاد فما   ينفك عن غزوتين فى كل عام

وربما رام فى أسفاره أو بالزوراء أن يعرف ما يدور بين الناس من الاحاديث والاخبار فيتخفى فى زىّ التجار (٥) ويطوف الاسواق مع جعفر وزيره ومسرور خادمه للاستطلاع على ما لا يصل اليه خبره من أمر السوقة والعوام فنجم عن عنايته بهذا الامر كثير من الفوائد

---

(١) المقريزى ١* ٨ (٢) هوأمر معروف تجده فى كتب المؤرخين وزاد في العقد الفريد على ذكر حجه ماشيا انه لما مشى الى مكة ومشيت معه زبيدة كانت تبسط الدرانك أمامهما وتطوى خلفهما (٣) أبوالفرج والخميس ٢*٣٣١ ٤) فوات الوفيات ٢ *٣٩١ (٥) الاغانى ٦* ١٣٧ والاتليدى ١٢٦ والاسحاقى ٩١

التي صلحت بها دولته ورعيته جميعا فقد قال جعفر أعزه الله انا ما ضبطنا بغداد بالشرطة ولا عنينا بتقدير الاوزان وتمييز المغشوش من السكة الا بما وجدنا من الاختلال في تطوافنا بين الناس .

البرامكة نكتة محاسن الملة وعنوان دولتها

وهذه السياسة التي باشرها الرشيد انما هي باشارة البرامكة الذين رفعوا منار الاسلام (١) بصلاح مشورتهم اليه في أمور الخلافة ولذلك صير اليهم النيابة في الدولة (٢) والنظر في ديوان الحسبان والترسيل لصون أسرار الدولة وحفظ اللسان في بلاغتهم بعد أن فسد عند الجمهور من أهل الامصار بعض الفساد (٣) فصار جعفر يسمى بالسلطان اشارة الى عموم نظره في عموم الخلافة لان الخطط كلها بيده الا الحجابة لم تكن له لاستنكافه عنها بما أن صاحبها يقف بالوفود عند الحدود في تحياتهم وخطبهم والآداب التي تلزم في الكون بين يدى أمير المؤمنين (٤) وذلك مما ينزه نفسه عنه وهو بالموضع الذى علمت من جلالة القدر والقيام بسياسة الدولة .

ولقد كان يحيي أعزه الله قائما بأود الوزارة من قبل وهو الذى قلد الرشيد الخلافة بحكمته ودرايته (٥) حتى اذا استوثق له الامر قال له

(١) العقد الفريد ٣*٢٧ (٢) المقدمة ٢٠٧ (٣) المقدمة ويتضح ذلك من كتب الذين دونوا اللغة في أيام الرشيد (٤) المقدمة ٢٠٧ (٥) ابن الاثير والفخزى والطبري

أنت أجلستني في هذا المجلس بيمنك وبركتك وقد قلدتني الامر يا أبت ثم دفع اليه خاتمه وقلده أمر الرعية بأن يحكم بما يرى ويعزل من يرى ويستعمل على الولاية من يرى وفي ذلك يقول ابراهيم الموصليّ النديم (١)

ألم تر أن الشمس كانت مريضة فلما أتى هرون أشرق نورها
تلبّست الدنيا جمالا بملكه فهرون واليها ويحيي وزيرها

فكانت سياسة هذا الشيخ المبارك منصرفة الى تقويم الدولة في المشرق حبا في الرشيد أن تعظم في الاسلام صولته على حين لا يحرم أهل البيت من قيام ملكهم فيما وراء البحر مع ما يكون في ذلك من حقن الدماء الطاهرة وسلوك السنن الشريفة فأنتج له حسن نظره ان يطوق امر الجند الى غير العرب الذين لا يقدرون بنفوسهم على كبح عنان الثائرين من اخوانهم بما يكون بينهم من القرابة والدالة فلقي دون بلوغ غرضه من هذا الامر صعوبة كادت تفضي الى الفتنة بما وقع من الضغائن بينه وبين يزيد بن مزيد (٢) وغيره من أمراء الجيش الا أن الرشيد كان على موافقته (٣) فيما يرى به مصلحته فاذا فتح الناس عليه باب الفرقة أرسل اليهم الفضل أو هرثمة بن أعين (٤) فجبرا الوهي في أقل من طرفة عين

---

(١) المسعوديّ ٢*٢٠٧ وابن الاثير ٦*٣٩ والاغاني ٥*٤١ والمستطرف ٢*٩٧ والاتابيدي ٩١ والمحاضرة ٢*١١٤ والسيوطي وابن خلدون (٢) ابن الاثير ٦*٥١ يذكر انحراف بني شيبان عن البرامكة كما مر (٣) المقدمة ١٥٩ (٤) راجع كتب المؤرخين

ثم استقال يحيي من الوزارة بعد أن أدركه الشيب ففوضها الرشيد الى الفضل ثم الى جعفر (١) بعده وعهد بالمراتب الى اخوته وأقاربهم (٢) وهم بمكان من الفطانة (٣) التى توارثوها مع المجد طرافاو تلادا فقاموا بأود الوزارة وجمعوا اليهم مراتب السيف والقلم يقول سلم الخاسر (٤) فى شرف الدولة بمحاسن عقولهم.

اذا ماالبرمكيّ غدا ابن عشر ‌ ‌ ‌ ‌ فهمته أمير أو وزير

الا أنه كان منتهى نظارهم فى السياسة (٥) الى جعفر هذا السلطان وهو حاضر الروية مؤيد البديهة جامع لخصال الخير مؤتمن على الاسرار بارع فى مهمات الامور وليس في أهل الادب من هو أذكى (٦) ولا أفطن ولاأعلم بكل شىء ولاأفصح لسانا ولا أبلغ فى مكاتبة منه (٧) خلق جميل. وأصل نبيل. وعلم جزيل. وكان الرشيد يقدمه على الفضل بما يسرع في استنباط الحيلة لتدبير ما يطرأ على المملكة من المهمات الصعاب كما يقول فيه الشاعر

وزير اذا ناب الخلافة حادث ‌ ‌ ‌ ‌ أشار بما عنه الخلافة تصدر

ووجدت فى نفس الرشيد من الميل اليه بحيث انه لم يكن له صبر على مفارقته في ساعة من نهار أو ليل (٨) واذا دخل عليه أجلسه على سرير

---

(١) (و٢) المقدمة والعقد الفريد (٣) ابن خلكان ٢*٣٦١ (٤) المحاضرة ٢*١١٤ (٥) العقد ٣*٢٧ (٦) الوطواط ٢٤٩ وابن خلكان (٧) الاغانى ٤*٨٥ والحصري ١*٣٧٥ والعقد ١*٣٧٢ (٨) الاتليدى

الخلافة بجانبه وأجلس بنى هاشم على الكراسىّ والوسائد (١) دونه وربما قدمه فى المشورة على أحب أهل بيته اليه حتى انه لايعهد اليهم بولاية ولا يصلهم بمال الا برأيه ورضاه. وقد وقع لعبد الملك بن صالح من كبراء بنى هاشم (٢) أن الرشيد غضب عليه فقصد باب البرامكة فقال له جعفر أنت تقصدنى فهل من حاجة تبلغها مقدرتى وتحيط بها نعمتى فأقضيها لك فقال عبد الملك بلى ان فى قلب أمير المؤمنين علىّ موجدة أحب ان تخرجها من قلبه وتعيد اليه جميل رأيه فىّ فقال له جعفر قد رضى عنك أمير المؤمنين وزال ماعنده منك قال عبد الملك وعلىّ أربعون ألف دينار دينا قال هى لك حاضرة من مال أمير المؤمنين لانى أجلّ قدرك عن أن يصلك بالمال غيره قال وابنى ابراهيم تخاطبه فيه حتى يرفع الالوية على رأسه قال لتطب نفسك ان الرشيد قد ولاه مصر أو قال ماشئت من البلدان فانصرف عبد الملك وهو يتردد بين العجب من جعفر والاعجاب به حتى اذا كان الغد دعاه الرشيد وأمر له باربعين ألف دينار وكتب سجل ابنه على مصر (٣) فهذا أمر يدلك على مكانة جعفر عند الرشيد وما له من المائة (٤)

---

(١) ذكر الوسائد يجلس عليها بنو هاشم بمجلس الخليفة الاغانى ٤*٩٢

(٢) هو من القواد الذين غزوا الروم وقد عقد الفداء مع نقفور فى اللامس على جانب البحر على اثنى عشر فرسخا من طرسوس واسترجع من أسرى المسلمين ثلاثة آلاف وسبعمائة * ابن الاثير ٦*٥٧ (٣) الاغانى ٥*١١٩ والفخرىّ والابشيهى ٢*١٩٢ والعقد الفريد ٣*٣٤ والاتليدى ١٦١ وابن خلكان ١*١٥٢

المرعية والشفاعة المقبولة عنده بحيث انه يضمن عنه ضمانات لا يجد بدّاً من وفائها كما يدلك على أن مشاركته في الملك لا تقف على حدّ السياسة فيما يبديه له من رأى جميل أو تدبير حسن وانما يتناولها في اكثر الاحيان بما بينهما من الدالة التي ليس مثلها بين الاخوان (١) فما أذكر أني رأيت الرشيد في مجلس يطيب له نفسا بغير محضره (٢) بل كثيراً ما رأيتهما يتبادلان لباس الحلة الواحدة (٣) ويجلسان معاً الى القيان. على طرب ولهو ومصافاة خلاّن

وان كان ليحيي فضل في تقويم هذه الدولة فان لجعفر فضلا في تدبير مملكتها أتم وأجمل في عين الرشيد وقد أغناه بنفاذ سلطانه في المشرق عن أن يطمع في الاستيلاء على بلاد المغرب ثم يبيت على خطر الفتنة التي لا يأمن ان حدثت أن تبقى الخلافة في يده فلم يكن بد لصلاح أمره من سلوك السبيل الذى مهّده له جعفر لتتم له الفائدة التي رامها أبوه في تقويم الدولة وبلوغ غرضه منها في المشرق فوقفت مصلحة الدولة والاسلام جميعا على أن يتبع الرشيد هذه الخطة التي كان ليحيي فيها الفضل السابق والمقدم . ولجعفر من بعده الفضل اللاحق والمتمم .

ولقد شملت عناية جعفر خطط الدولة كلها بين مراتب سيف وقلم. الا أنه كان الى تدبير المملكة وتنظيم الدواوين (٤) أشد منه عناية وأقرب

---

(١) الحصري ٢*١٠٢ (٢) الاتليدي ١٦٩ (٣) الاغاني والاتليدى وابن خلكان وابن خلدون (٤) انما دوّن العرب الدواوين عملا بطريقة الفرس من قبلهم ولفظة الديوان فارسية كما هو معروف

من نفسه ميلا الى النظر فى مصلحة الجند وهم الفرسان الذين لم ير لهم مع ماهو مطبوع فيهم من نخوة الجهاد التى لا يطيق الاعاجم مناجزتها فيهم الا أن يصرف اليهم أرزاقهم في اباناتها ويرضيهم بسعة العطاء من غير مال الخليفة (١) بما يقتصد فيه من نفقات الدولة . وأما مآثره فى تدبير المملكة فانها تتناول ضبط الاموال وترتيب ديوان الاعمال والجبايات (٢) على غير مارسم أبو عبد الله في كتابه (٣) على الخراج وانما اقتصد من النفقة على قدر أبقاه للزيادة في أرزاق الجند وأقام على السجلات قوما مهرة في الحساب (٤) ليجد الموازنة فيما يدخل بيت المال ثم يصرف منه وجعل لهذا الديوان شعبا ترجع مصالحها اليه كديوان الخراج وديوان الضياع والنفقات (٥) وغير ذلك وأحب أن تحفظ دفاتر الخليفة للمراجعة (٦) لينظر فيما يتصرف فيه بموازنة الدخل الذى ترتب فى سجلات الديوان .

ثم توسعت عنايته من الاهتمام بمصالح الدولة الى النظر فى أمر الرعية والرفق بهم وادخال الراحة عليهم وصح عنده مساواة الناس بالاحكام التى لا تفرق بين المسلم وغير المسلم (٧) الا فيما هو مأخوذ على أهل الذمة من العهود المحفوظة وأقام رجال العدالة فى جميع البلدان لكتابة العقود على روابط الشرع (٨) ليكون فى ذلك حفظ حقوق

(١) ذكر المسعودي ١*٨٢ أن الخليفة يعطى الجند من بيت ماله (٢) المقدمة ٢١٢ (٣) ذكر الفخري هذا الكتاب ٦١٦ (٤) المقدمة (٥) الاغانى ٩*٢١و٢٦ (٦) ذكر الاغانى هذه الدفاتر ١٤*١١٤ (٧) الماوردي ٣٩٣ (٨) العقد الفريد ٢*٢١١

الأمة وأملاكهم وديونهم وسائر معاملاتهم من الكفالة ونحوها (١) وأمرهم بأن يجلسوا فى الدكاكين والمصاطب ليسهل وصول الناس اليهم فتجرى معاملاتهم على سنن العدل الذى يروم ان يشملوا به نفوسهم كما تشملهم به الدولة فكان أعزه الله يقول (٢) الخراج عمود الملك ما استغزر بمثل العدل وما استنزر بمثل الظلم

ثم انه نظر في صلاح الزوراء ودس فيها العيون بامرة عبدالله بن مالك صاحب الشرطة (٣) لملافاة الخلل الذى يطرأ عليها من وفود الاغراب واختلاطهم (٤) وأقام العسس (٥) بالليل لمحافظة الدروب (٦) الى ان وقع الامن فى احيائها وخيم السلام على ارباضها وذلك ينـدر أن يكون فى مدن الاعاجم ومحاشد مللهم فلقد ينمى الينا عن قاعدة الروم أن المكروه واقع فيها كل يوم لا محالة مع أنها محتشد النصرانية ومباءة الملوك الذين حازوا معظم الدنيا فيما سبق لهم من زمن العز والصولة . ونحن لا نريد بذلك أن الروم قوم جهلة لا نظام لملكهم مع أنهم حملة العلم ومستقرون فى مهاد العمران على سعة واستقامة من الملك غير أن الترف قد غلب على عامّتهم حتى لا سبيل الى ردعهم عن معاقرة الخمر وكبح عنانهم عن ركوب الاهواء (٧)

---

(١) المقدمة ١٩٦ (٢) العقد الفريد ١*١٣ (٣) ذكره الاغانى ١٧*٤٦ والمسعودى ٢*٢١٢ (٤) ابن خرذاذبه ١١٦ (٥) الاغانى ٢ * ١٥٧ (٦) الاغانى ٧*١٩ والمستطرف ٢*١٨٦ (٦) المقدمة ٤١٩ (٧) وكان هذا من أسباب التوانى فى دولتهم

ولما وضح للرشيد فضل هذا السلطان فيما أصلح به الملة والدولة جميعاً بلغت منه الامانة فيه الى آن يطوقه السلطة التى تقارن سلطته وتشترك فيها معه ففوض اليه القضاء بمجلس المظالم وهو القضاء الذى كان يباشره الخلفاء (١) من الامويين بنفوسهم ثم المهدىّ من بعدهم كما رأيت فى موضعه من الكتاب فصار جعفر يجلس (٢) بجانب الرشيد على سريره ويشاركه في توقيعه على القصص التى يرفعها الناس اليه ولكن بالعبارة التى يتنافس (٣) فى بلاغتها العلماء (٤) فمن بعض ما حفظت له من هذه التوقيعات التى جرت مجرى الامثال توقيعه في قصة رجل شكاه بعض عماله اليه « قد كثر شاكوك . وقل شاكروك . فاما عدلت وأما اعتزلت (٥) وتوقيعه فى قصة قوم قطعوا الطريق « انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله » الآية (٦) ووقع الى بعض عماله « اجعل وسيلتك الينا ما يزيدك عندنا » ووقع فى قصة محبوس « العدل أوقعه والتوبة تطلقه » (٧) ووقع فى قصة متظلم « طب نفسا فكفى بالله للمظلوم ناصراً » ووقع لرجل اعتذر عنده من ذنب « قد قدمت طاعتك وظهرت نصيحتك ولا تغلب سيئة حسنتين » ووقع وقد قرأ كتابا فاستحسن خطه « الخط خيط

---

(١) أبو الفداء ٢ * ١١ وابن الاثير ٦ * ٢٩ وأبو الفرج والسيوطى والفخرى ٢١٢ والماوردى (٢) الاغانى ٤ * ١٦٢ (٣) الكنز ٩٤ (٤) ابن خلكان ١ * ١٤٧ والمقدمة ٢٠٧ (٥) ابن خلكان ١ * ١٤٧ (٦) العقد الفريد ٢ * ٢٣٣ (٧) العقد الفريد ٢ * ٢٣٢

الحكمة ينظم فيه منثورها . ويفضل فيها شذورها » ووقع فى قصة متنصح « بعض الصدق قبيح » ووقع فى قصة رجل تظلم من بعض عماله « انا لمثله حتى ينصفك » (١) ووقع فى قصة قوم شكوا سوء جوار بعض قرابتهم « يرحل عنكم » ووقع الى بعض عماله « أنصف من وليت أمره والا أنصفه منك من ولى أمرك » (٢) ووقع فى قصة رجل قد استأذنه فى الحج « من سافر الى الله نجح » الى غير ذلك من التوقيعات التى يتداولها الادباء (٣) الى أن تبلغ القصة الموقع عليها عشرين درهما ثمنا (٤) فى أيدى الناس . وهذا ما اكتفى بذكره من مآثر هذا السلطان الذى ليس له ند في الرجال وقد فضل الملوك قاطبة بالعلم والعقل والسياسة (٥) وزاد الرشيد عزة ومنعة كالذى لم نره قدما فى دول الخلفاء فتولى الله مكافأته عن المسلمين والاسلام بما هو واسع له من الجميل وجعل المجد لائذا بجنابه والسعادة حافة ببابه . آمين

﴿ صلاح التجارة والمعاملة ﴾

أخرج بك قليلا عن موضوع السياسة الى بيان المعاملة الرائجة بين الناس بقدر مايسمح لى المقام فانه لما توفرت فى أيديهم الاموال بما كسبوا من الفتوحات العظام وقد نزلوا الامصار التى كانت مستودع الدعة عندنا ومستقر ملذات للروم فيما مضى لنا ولهم من ذلك الملك الغابر فتحولت

(١) العقد الفريد ٢٣٣ (٢) الوطواط ٣٥ (٣) السيوطى (٤) المقدمة ٥ ٢
(٥) اعلام الناس وابن خلكان ٢*٢٦١

طباعهم من الخشونة الى نعومه العيش وأخذوا يتأثلون الكسب ويطلبون حاجات الترف من جميع البلدان بما تيسر لهم من أسباب المواصلة فى زمن الخلفاء الى أن أتم الرشيد العناية فى تأمين السبل لقوافلهم وتمهيدها للسفر من تجارهم حتى حملوا تجارة الدنيا الى العراق فحملوا من الهند آنيتها ومن أصبهان وشيراز ويزدشرابها (١) ومن خراسان حديدها ومن كرمان رصاصها ومن قشمير النسيج الملون ومن الصين الغريب والكمكمان والعود والمسك والسنور والسروج والغضار والطيالسج والدارصيني والخولنجان ومن اليمن العطر (٢) وأنواع الطيب ومن فارس السلاح والمصوغات ومن عيذاب اللآلئ (٣) ومن الوقواق الذهب والابنوس ومن الهند والسند القسط والقنا والخيزران والكافور والعود والجوزبو والقرنفل والفاغره والكبابة والنارجيل (٤) والثياب القطنية والمخملة والفيلة. ومن سرنديب ألوان اليواقيت وأشباهه والماس والدر والسنباذج الذى يعالج به الجوهر (٥) ومن ملى وسندان الفلفل والبلور ومن كله الرصاص القلعى. ومن ناحية الجنوب البقم الدارى. ومن البحر الغربى المرجان ويكون بأرض الفرنجة وهو السبد. ومن الروم المصطكى والجلود والغلمان والرقيق (٦) ومن الشام الفاكهة والسلاح والحديد الذى يقلع من جبل لبنان. ومن الروسيا جلود الخز والثعالب يأتى بها الروس الى بغداد عن طريق

---

(١) العقد الفريد ٢*٣٤٤ (٢) القزوينى ٢٠٩ (٣) المسعودي ١*٣٩ (٤) ابن خرذذبها ٦٨ (٥) الاغانى ٥*٢٤ (٦) ابن خرذاذبه ٨١

سورية أو عن طريق جرجان (١) ثم تحمل الى اصبهان والجزيرة وآمد ونصيبين (٢) ويتجر بها

هذه هي تجارة الشرق (٣) قد حملت الى العراق وأما تجارة الغرب فقد تعذر نقلها لبعد المسافة وترامي الشقة ولذلك كان يرى الرشيد فتح البحر عند السويس (٤) حتى يقرب المجال من المغرب الى عمان فسيراف ففارس فأطراف العراق ولا سيما أن على البحر الرومي سواحل افريقية وتونس ومصر وطرابلس والاندلس الى الغرب والجنوب وسواحل صقلية والفرنجة الى الشمال وسواحل الروم والشام الى الشرق وانها البلدان كثيرة الخيرات . وافرة الغلات . فكان الرشيد يروم أن يحمل تجارتها الى بغداد على مراكب البحر من طريق السويس ولكن جعفراً أعزه الله قد ثناه عن هذا الامر وخوفه أن تصل سرايا الروم وسائر الفرنجة الى جدة فيخربون المواطن المشرفة (٥) على حين لا يتوقع لقدومهم أثر فقال جعفر يا أمير المؤمنين ان خرق السويس خرق في الاسلام ولو أنك وجدته مخروقاً بأيدي الملوك الذين سلفوا الخلفاء لوجب عليك اليوم سده لان مصالح التجارة لا تقضي على الاسلام بتضييع الفتوحات التي دانت له ببذل الدماء وهذا رأي لا يبدو الا لمن ركب فيه اسجاح الخليقة ومعدلة النظر فان

---

(١) ابن خرداذبة ١١٦ (٢) ابن الاثير ٥*١٠١ (٣) الاغاني ٥*٢٤ وابن الاثير ٥*٢٢٥ والقزويني ٢٠٩ (٥) المسعودي ١*٢٩٩ والمقريزي في الخطط والسيوطي والمقدمة ٢١ (٦) السيوطي والمسعودي

العلماء كلهم قد ضلوا عن ادراك ذلك وانما خوّفوا الرشيد علو البحر الرومى على بحر القلزم وانه اذا ريم خرق ما بينهما طمى البحر على أرض مصر وأغرق عيذاب والنوبة وسواحل اليمن والحجاز ولكن قولهم بعيد عن الصحة لما يُعلم عن بحر الظلمات الى ماوراء الاندلس أنه لم يطم ماؤه على سواحل البحر الرومى مع كونه يعلوه بالاقليم فما يثبت عند العاقل الآن سطح البحور متساو فى الشمال والجنوب ولم يسمع ببحر أخفض من غيره الا بحر لوط في أرض الاردن من اقليم فلسطين ولكنه ليس بالبحر الواسع ولا بالأوقيانوس المحيط وانما هو مياه تصب فى متحدّر من الارض .

ولما اتسع نطاق التجارة فى بغداد أصبحت مورداً لاهل الاعواز من كافة البلاد يتناولون فيها حاجتهم من المال فوقع غشّ فاحش فى التجارة وصارت الصيارف من اليهود(١) وغيرهم(٢) يعطون مالهم بالربا على أن يعاد عليهم المثل فى آخر العام مثلين(٣) وأكثر منه فأقام الرشيد محتسبا يطوف بالاسواق ويفحص الاوزان والمكاييل من الغش وينظر فى معاملات التجار(٤) أن تكون جارية على سنن العدل حتى لا يتحامل الشرفاء على الوضعاء ولا الاغنياء على الفقراء اذ الواجب على الملوك أن يمهدوا سبيل الارتزاق لاهل الحاجة أكثر منه للمتمولين المنسلخين للتجارة الذين نراهم

(١) الاغانى ٣*٨٥ (٢) الاغانى ٣*٨٣ و ٥*١٦١ (٣) كليات ٩٩ والاغانى ٢*١٥٤ (٤) الاغانى ١٧*١٠٨

يتعرضون لشراء السلع والتجارات بما يفرضون لها من الثمن البخس ثم يبيعونها بما يشاؤن من الغلاء فان ذلك احتكار يفضى الى فساد العمران كما مر في موضعه من الكتاب . وقد أخبرنى الرشيد فى بعض مجالسى اليه انه يروم أن يصلح معاملة التجار ويغير تقدير الدنانير والدراهم على وزن واحد صحيح (١) ولكنه لم يباشر ذلك الى هذا اليوم مع أنه أصلح مايكون للعمران وان كان ضرب السكة في الاسلام قد حدث عن نكاية وقعت ضغائنها بين عبد الملك بن مروان وقيصر الروم كما هو معروف (٢) فقد أصبح اليوم من الضرورة أن تقدر أوزانها بعد ماساءت المعاملة في تأدية الخراج والبيع والشراء . وقد كان العرب يتعاملون قدما بالذهب والفضة وزنا (٣) وبين أيديهم دنانير الفرس والروم التى يقال لها الكسروية والقيصرية فلما ذهبت سذاجة الاسلام وصارت الخلافة الى ملوك أمية وقد أغفلوا أمر المعاملة بما تشاغلوا به من أمور نفوسهم تفاحش الغش في التجارة وصارت تنسب الى الروم سكة ليست من ضربهم ولا من ضرب الفرس فيما ابتدع الناس من دنانير كسرى وقيصر فعنى عبد الملك بتمييز المغشوش من الدنانير والدراهم فضرب السكة فى دمشق (٤) وصرفها فى جميع النواحي والامصار ولكن من غير ان يقدرا أوزانها فبقي منها الخفيف (٥) والثقيل وماهو بين بين ولذلك لم تسهل

(١) المحاضرة ٢*١٧٤ (٢) الاتليدي ٢٧٤ (٣) المقدمة ٢٢٧ (٤) ابن الاثير ٤*١٧٤ (٥) ذكر الدراهم الخفيفة الاغانى ١٠٤

المعاملة بها بين التجار حتى اذا تنبه لما فاته من تقديرها على وزن واحد وأحب أن يميز القديم منها عمد الى تعيين السنة على السكة المقدرة بعد أن كان يضربها خلوا من التوقيت الا بركة الله في احدى الوجهين واسمه في الوجه الآخر . وهذا كان منشأ الخلاف فى أول من ضرب السكة التي ليس فيها توقيت فيقول بعض الناس انها من ضرب عمر بن الخطاب (١) ويقول غيرهم انها لمصعب بن الزبير (٢) ويقول بعض انها لمعاوية بن أبي سفيان ويزعمون أنه صور نفسه عليها متقلداً سيفاً (٣) كأنه فاتهم علم موضعه من الخلافة وحرصه على متابعة الملة والشرع الا أن ما يذهبون اليه من هذه الاقاويل ليس بجمع على رأيٍ منه . ولم يقع الىّ من الدنانير الموقوتة الا ما ضرب هذا الخليفة المتقدم ذكره فى السنة السابعة والسبعين من الهجرة النبوية المشرفة وعليه جرى الخلفاء بعده فى ضرب السكة بأن يرسموا فيها بركة الله من وجه (٤) وعلى دائره محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله واسمهم من الوجه الآخر يحوطونه بتعيين السنة وذكر البلد الذى يضربون فيه السكة .

وأما الاوزان المقدرة فان المسلمين كانوا يتعاملون بالدرهم الطبرى

(١) المقريزي (٢) ابن خلدون ٣*٤٥ والماوردي ٢٦٩ (٣) الاتليدى نقلاعن الدميرى (٤) الانس الجليل ١ *٢٤٠ والمحاضرة٢*١٧٤ والاتايدى٢٧٤

وهو أربعة دوانق والدرهم المغربيّ وهو ثمانية والدرهم اليمني وهو ستة والدرهم البغلي « وهو الذى يقال انه ضرب فى خلافة عمر رضى الله عنه على وزن الدراهم الكسروية » وهو ثمانية دوانق فأمر الحجاج أن ينظر الاغلب فى المعاملة فكان البغليّ والطبريّ وهما اثنا عشر دانقا فاتخذ ما بينهما لضرب السكة وقدّر الدرهم ستة دوانق . وأما وزن المثقال الذهب فهو درهم وثلاثة أسباع درهم حتى اذا جمع عشرة دراهم كان وزنها سبعة مثاقيل (١) والناس يتعاملون بالسكة لزماننا هذا على تقدير الحجاج الا أن ما فى أيديهم منها مختلف الاشكال « فلا تتناول الدولة منهم فى الخراج الا الدنانير العباسية والدنانير المسماة بالخالدية (٢) واليوسفية والهبيرية وهى أجود النقود التى ضربها بنو أمية (٣) على يد عمالهم فى العراق مثل أبى هبيرة ويوسف بن عمر وغيرهما » ولذلك رأى الرشيد أن يقدرها على وزن واحد صحيح حتى لا يبقى للغش فى التجارة مجال . ولا يحصل عنف في جباية المال .

زينة الدولة بالعلم والادب

هذا الماع بذكر محاسن دولة الرشيد وانها لدولة خير وصلاح كما علمت فما حدّث أهل الاخبار عن الاسلام أنه كان فى دول الخلفاء أعز جانباً ولا أوسع رقعة مملكة (٤) منه فى خلافة الرشيد . ولعمرى ان

(١) المقدمة ٢٢٧ (٢) الماوردى ٢٦٩ (٣) ابن خلدون ٣*٤٥

(٤) الفخري ٢٣٣

الملوك الذين يتعهدهم النصر مثله فى جميع ما يباشرون من الاعمال قليل فى العالم فما رأيته والبرامكة أعوان له بد نكب فى حرب قط ولا توجهت عليه هزيمة وانما أعز الاسلام باجتماعه فى المشرق كله اليه ورمى ملوك الاعاجم بسهام بأسه حتى عصفت ريحه بهم من الروم وسائر الفرنجة . وهذا شرف للسيف لم ينله المسلمون فيما تقدم لهم من الدول السالفة مقرونا بفضائل العلم وجمال الحضارة وكفى بشرف دولته عليها انه اجتمع ببابه من الوزراء (١) والامراء والقواد والعلماء والفقهاء والادباء والخطباء والمحدثين والقراء والرواة والشعراء والندماء والمغنين ما لم يجتمع على باب خليفة غيره مثله فان البرامكة أعوان دولته وأبا يوسف قاضيه وهرثمة ابن أعين أمير جنده والعباس بن محمد عم أبيه جليسه (٢) ومروان بن أبي حفصة شاعره والاصمعيّ محدثه وأبا نواس نديمه والفضل من آل الربيع حاجبه وابراهيم الموصليّ واسحاق ابنه مغنّياه وابن بختيشوع جبريل (٣) وبنى ماسويه أطبّاؤه (٤) والعلماء والادباء كلهم قيام على بابه لا يفارقونه فى حضر ولا في سفر حتى انه ليطلب شاعره في أطراف الليل (٥) فيجده ببابه مع غيره من محدث أو نديم .

---

(١) ابن الاثير والفخري ٢٢٣ والخميس ٢*٣٣٢ والماوردي ٣٣ (٢) الخميس ٢*٣٣٢ (٣) الفخري والمسعودى ٢*٢١١ وابن الاثير ٦*٧٥ والمقدمة ١٦ (٤) أبو الفرج (٥) الاغانى والاتليدي

وانما قرب العلماء الى الرشيد ما بنفسه من الميل الى الادب(١) والحرص على احراز العلوم (٢) حتى كانوا اذا اجتمعوا بداره سما الى مناظرتهم (٣) من حيث العلم والتواضع له لا من حيث السيادة عليهم وهو بموضعه الجليل من الخلافة وأنا لا أريد بذلك أن التواضع طبيعة فى نفسه لانه لولم يأته الكبر من ناحية العلم لاتاه من ناحية السلطان وكلاهما داع الى الاعجاب بالنفس فكثيرا ما كنت أراه اذا انتصب فى عرشه يحتمل ان يمدح بما يمدح به الانبياء وهو لا ينكر ذلك ولا يرده(٤) غير انه ربما كان يبتغى بتواضعه للعلم مع ما هو مطبوع فى نفسه من الاجلال له أن تحصل له الغاية التى يرومها من صلاح أمره باستمالة الائمة من أهل العلم حتى يستقيم ملكه من ناحية القلم كاستقامته له من ناحية السيف .

أما أدبه وفضله وصحة ما عنده من النظر فى تخير ما يروق لديه من العلوم فهو الامر الذى تقدم الالماع اليه فيما مضى من الكتاب ورأيته يتوسع فى أدب اللغة الى أن يقول الشعر فيما يعرض له من تصورات أهل الغرام فاذا دخلت عليه عرضه علىّ فى سبيل الفكاهة فمن ذلك قوله فى جارية (٥) توكية له .

يا ربّة المنزل بالغرك ... وربّة السلطان والملك

(١) ابن الاثير ٦*٧٨ والزمخشري ٢٣٠ والاسحاقى ٩٠ والدميري ١*٩٥
(٢) الشرقاوي ٢٢٢ (٣) القزوينى ١٠٦ (٥) السيوطى والاغانى ٩*٨٦
الاغانى ١٢*١٨

ترفقي بالله في قتلنا لسنا من الديلم والترك

وقوله في قينة له (١)

تبدى صدودا وتخفي تحته مقة فالنفس راضية والطرف غضبان
يا من وضعت له خدى فدلله وليس فوقي سوى الرحمن سلطان

وقوله (٢) في رثاء جارية رومية يقال لها هيلانة وقد عراه على فقدها من الحزن ما ضاق له الصدر . وفرغ دونه الصبر .

تأسيت أوجاعا وأحزانا لما استخص الموت هيلانا
فارقت عيشي حين فارقتها فما أبالي كيفما كانا
قد كثر الناس ولكنني لست أرى بعدك انسانا
والله لا أنساك ما حركت ريح بأعلى نجد أغصانا

الى غير ذلك وكان من الفضل بحيث ان مآدبه لم تخل قط من عالم أو أديب أو شاعر . وكان يستدعى اليه العمرى والفضيل بن عياض (٣) وابن السماك الكوفى (٤) واسحاق الفزارى وغيرهم من الاولياء فيحاورهم في مسائل الدين (٥) ويبكى (٦) من مواعظهم ويقوم بواجب الاحترام لعلمهم حتى اذا جلس معاوية المحدث الضرير الى طعامه قام من موضعه وصب الماء على يده تعظيما لقدر العلماء فقال له معاوية يا أمير

(١) العقد الفريد ٣*٢٥٧ (٢) السيوطى (٣) المقدمة ١٥ والمستطرف ١*١٠١ والخميس ٢*٣٣١ والاسحاقى ٩٠ والسيوطى (٤) العقد الفريد (٥) سراج الملوك ٣٠ (٦) ابن الاثير ٦*٧٨ والطرطوشي ٣٨

المؤمنين ان تواضعك فى شرفك لأشرف من شرفك (١)

أما زينة الدولة من الادباء فثلاثة اسحق بن ابراهيم النديم وعبدالله الاصمعىّ والحسن بن هانئ المعروف بأبى نواس وكلهم امام في العلم الا أنه غاب على اسحق الغناء وعلى أبى نواس الشعر وعلى الاصمعىّ الاخبار والنوادر والملح .

فأما اسحق فانه بالمكان الرفيع من الادب (٢) وقد اتخذ خزانة كتب جمع فيها من مدوّنات العلم ماليس عند الذين يعنون بجمع صنف واحد من صنوفه مثله ولقد رأيت عنده من كتب اللغة مثلا ماليس مثله فى خزانة ابن الاعرابى (٣) وله مقام سام بين العلماء حتى انهم ليهدون اليه كثيراً من تآليفهم ودواوينهم كابى نواس وابن أبى عيينة (٣) وابن الاعرابىّ (٤) وغيرهم تنشيطاً لعلمه وأدبه لان انصبابه الى الغناء لم يكن حرفة للتعيش وانما هو ميل بنفسه الى محاسن الادب والصناعة فكان يترفع عن أن يغنّى الا فى دور الرشيد والبرامكة وكانوا اذا حضر مجالسهم يؤثرون محاورته فى العلم على جلوسه اليهم فى صفوف المغنين (٦)

ولقد كنت أسمع الرشيد يقول لو لم يشتهر اسحق بلقب المغنى لوليته القضاء على المسلمين (٧) ووجدت فى نفسه من جميل العطف اليه ما كان يحمله

(١) الفخرى ٢٣١ والسيوطى (٢) الاغانى والحصري ٢*٢٠٦ (٣) ذكر ابن خلكان ١*٩٣ أنه كان عند ابن الاعرابى خزانة جمع فيها كتب اللغة (٤) الاغانى ١٨*١٢ (٥) الاغانى ٥*٥٥ (٦) الاغانى ٥*٦٠ (٧) ابن خلكان ٩١*٩ وكتاب الاغانى

على أن يقصد داره (١) على سبيل التحبب ولقد كنت يوما بداره وهي بباب الشماسية (٢) من الجانب الشرقى تلقاء قطربل (٣) فجاء الخليفة على حمار صغير أسود وهو الحمار الذى يركبه (٣) فى ساحات القصر وجنانه للنزهة ومعه خمسمائة نفر من خدمه وغلمانه وندمانه (٥) فقام اسحق بالواجب من اكرام وفادته (٦) وأخرج الحلوى الى خدمه بما كفى الجمع كله ثم أشار الى جواريه أن يجلسن للغناء ويخرجن سفرة المدام فقال الرشيد لست أريد هذا وانما شوق فى النفس دعانى الى الانس بقربك .

وأما الاصمعىّ فانه قدم بغداد (٧) فى خلافة الرشيد فى جملة من وفد عليه من العلماء . وهو امام في النوادر (٨) والاخبار وأيام الناس مشهود له بصدق الرواية ولقد حدث الرشيدَ يوما عن ملوك بنى أمية فقال ان سليمان كان نهما اذا قدم اليه السماط لا يصبر حتى يبرد بل يتناول اللحم بكمه وان يزيد كان اذا جلس للشراب يسقط الخمر فى ثيابه فصاح

---

(٧) الاتليدى ٢٨٦ والاغانى (٢) الاغانى ٥*٧ (٣) ذكره المسعودى ٢*٣٨٥ و٣٩٧ (٤) الاغانى ٥*٣٠و٤٦ (٥) ذكر ياقوت ٤*١١٨ ان الخليفة كان يركب في كذا وكذا رجالا وخدما (٦) واتخذ الفرش من الخز المظهر بالسنجاب كذا فى العقد الفريد ٣*٢٤٠ وهذا نص كلامه فدخلنا دار ابراهيم الموصلى فاذا هى لا أشرف منها ولا أوسع واذا بفرشها خز مظهر بالسنجاب (٧) ابن خلكان ١*٤٠٨ (٨) الشريشي ٢*٢٧٩

به الرشيد قاتلك الله ماأصدقك في نقل الاخبار والله ان ثيابهما عندى وان الدهن لفى أكمام سليمان والخمر فى ثياب يزيد (١) على أنه لم يكن بينى وبينه مع طول المدة التى أقمتها فى بغداد قرب ولا ائتلاف لانقطاعه عن مجالس البرامكة وانما كنت ألقاه بدار الرشيد وأسمع مايحكيه عن عن طرائف بغداد فأراه لايغفل عن نادرة مليحة الاويذكرهاله ولكن بالالفاظ التى تأخذ بمجامع القلوب وكنت يوماً بين يديه وقد بدر من رجل ظريفة فالتفت اليه الرشيد وقال له حررها ياأصمعى (٢) وقد أخبرنى بعض أصحابه أنه أقام فى صباه بالبادية أياما طوالا يستطاع فيها على عادات العرب ويستكشف أخبارهم ويستنطق آثارهم وقد شاهد مايقيمون من المجالس والاسواق . وما ركب الله فيهم من السجايا والاخلاق . وما وقع لبناتهم مع الشعراء والعشاق . فلما أقام ببغداد أخذ يحدث بكثير من أخبارهم ثم اشتهر اسمه بين الناس بما هو آخذ بكلامه من الرشاقة والبلاغة حتى صار علماً فى المدينة وصار يتفق له فيها من النوادر مالم يسمع أحد بأعجب منه .

وأما أبو نواس فان الشعر هو الذى يقدمه اليوم عند الرشيد

---

(١) المسعودى ٢*٦٢٨ وابن خلكان ١*٤١٠ وتزيين الاسواق ١*١٤٣

(٢) المسعودى ٢*١١ ٢ والاتليدى ٩٦ والعقد الفريد

وقد(١) كان أبو نواس يحدثه من قبل بنوادر الناس ولكن من غير أن يفكه بأعراضهم ثم أعرض عن ذلك فقال له ذات يوم حدثنا يا أبا نواس فقال لا يحضرني شيء فقال بحياتي (٢) الا ماقلت شيئا قال كان الكذب على واليوم هجرته يا أمير المؤمنين (٣) فضحك وقال هذا أحب الي من الحديث وله كلام ظريف في المجون والخلاعة (٤) وماجريات تدل على خفة روحه . وكان اسحق يتعصب له (٥) ويشيد ذكره ويجهر بتفضيله ويجلب له الرفد من الرشيد ويحط من قدر الاصمعي لتنافس بينهما(٦) حتى أخذ المقام الاول بين الندمان وبنى لنفسه في نهر طابق الدور (٧) التي لم يبن مثلها عظماء الناس بينما الاصمعي يستقرض من أصحابه (٨) حاجته من المال

ومن خلال أبي نواس المأثورة أنه يميل مع أهل البيت سرا لا يجسر

---

(١) وربما حفظ له شيئا من أبياته يتمثل بها في مجالسته الادبا فلقد سمعته مرة يقول لو قيل للدنيا صفي لنا نفسك وكانت ممن ينطق ماوصفت نفسها بأكثر من قول أبي نواس • اذا امتحن الدنيا لبيت تكشفت * له عن عدو في ثياب صديق وما الناس الا هالك وابن هالك * وذو نسب في الهالكين عريق • العقد الفريد ١*٣٦٩ (٢) كلمة يقولها الخليفة عند التحبب الاغاني ٦*٧٥ (٣) المستطرف ٢*١٠ (٤) الكنز ٩٤ (٥) الاغاني ٥*١٠٧ (٦) الشريشي ٢*٢٧٤ (٧) ابن خلكان ١*٢٩٥ الاغاني ٣*١٦١ (٨) المستطرف ١*١٢٣ وذكر المسعودي ٢*٢٢٣ انه رؤى في دار الاصمعي خباء مكسور وعليه دراعية خلقة ومقعد وسخ وكل شيء عنده رث

على المجاهرة به وقد قيل له في اعراضه عن مدحهم لقد ذكرت كل معنى فى شعرك وهذا على بن موسى الرضا فى عصرك لم تقل فيه شيئا فقال والله ما تركت ذلك الا اعظاما له وليس قدر مثلى أن يقول فى مثله وأنشد (١)

أنا لا أستطيع مدح امام كان جبريل خادما لابيه

وانما حصل على مكانته عند الرشيد بأنه كان اذا بكر اليه سأل خواص أهل بيته عما يكون فى نفسه أو يكون جرى له في ذلك الوقت ثم ينشده أشعار الطيفة فى مطابقة ذلك فيطيب بها نفسا . ولقد كنت يوما معه بداره وعلمت من بعض خدمه أنه دخل مقصورة جارية على غفلة منها فوجدها تغتسل وقت الظهر فلما رأته تجللت بشعرها فاعجبه ذلك منها فلما دخل عليه أبو نواس أنشده (٢)

نضت عنها القميص لصب ماء فورد وجهها فرط الحياء
وقابلت الهواء وقد تعرت بمعتدل أرق من الهواء
ومدت راحة كالماء منها الى ماء معد في اناء
فلما ان قضت وطرا وهمت على عجل الى أخذ الرداء
رأت شخص الرقيب على التدانى فاسبلت الظلام على الضياء
وغاب الصبح منها تحت ليل وظل الماء يقطر فوق ماء
فسبحان الاله وقد براها كاحسن ما يكون من النساء

---

(١) ابن خلكان ١*٤٥٧ (٢) السيوطى والاتليدي ٩٦ والمستطرف ٢*٤٤

وهذه الابيات هي من جيد الشعر وهي كما تراها أرق من الهواء وأصفى من الماء كما يقول في وصف هذه الجارية الحسناء فقال الرشيد على سبيل الاستغراب سيفا ونطعا ياغلام فقال أبو نواس ولِمَ ياأمير المؤمنين قال أمعنا كنتَ قال لا وانما شيء خطر لي بالبال فقلتهُ فضحك الرشيد ثم أمر له بجائزة وصرفه .

وقد وقع تدوين هذه الرسالة في السنة الحادية والثمانين بعد المائة من هجرة النبي صلى الله عليه وسلم لثلاث خلون من شوال والناس يتجهزون للخروج الى الحج الشريف أرانا الله بركته بمنه وكرمه .

الرسالة السادسة

(بيت الرشيد)

لقد مضى عليَّ في بغداد بعد العودة من خراسان نحو ست سنين مازلت منقطعا فيها الى البرامكة حافظا لمقامي في الدولة تحت ظلهم وعنايتهم وكنت أتردد في خدمتهم الى دور الرشيد وهو يأنس بي في خلواته الى أن صرت منه بالمنزلة التي لايطمح اليها غيري من المقربين اليه وكنت أقف على أمور بيته وأولاده فرأيته أكرمه الله صالح السريرة شديد الاعراق في الدين محافظا على أداء الصلاة في أوقاتها وشهود الصبح لاول وقتها يصلي في كل يوم وليلة مائة ركعة لايتركها الا لعلة (١) وأذكر أنه لما حصل في العام لَزْبَةٌ وغلاء سعر للناس واشتد عليهم الكرب اشتدادا عظيما أمرهم بكسر الملاهي وكثرة الدعاء والتوبة (٢) وذلك دليل على موقع

(١) ابن الاثير ٦*٧٧ والفخري ٢٣٠ والمقدمة ١٥ (٢) المستطرف ١*٨٢

العبادة عنده أو ذلك مظهر يروم منه تأبيد الدولة باجلال الدين حتى يكون الاسلام مغتبطا بمناحيه .

ولئن كنت رأيت له فى تدبير المملكة ذلك التصرف الجميل فانى ماوجدته له فى تدبير أهل بيته ومواليه وانما يرجع الرأى فى ذلك الى زوجه أم جعفر وهى أنفذ نساء العباسيين كلمة في الدولة وقد ربيت فى مهاد الدعة والدلال كما يشير اليه اسمها فانما سماها أبو جعفر جدها زبيدة لغضاضة بدنها وقد كان يرقصها تهللا بها وينظر الى غضاضتها وملاحتها فسماها زبيدة لذلك (١) فلما بنى بها الرشيد وجدها طرفة حديث ومصدر رأى جميل لم يربدا من الانقياد اليها فى قضاء جميع ما ترومه من الحوائج (٢) ومن ذلك انه مكنها من بيوت المال فانفقت من سعة ما ينيف عن ثلاثين ألف ألف دينار فبنت مسجدا مباركا على ضفة دجلة بمقربة من دور الخلافة يسمى بمسجد زبيدة ومسجدا اسامى الحسن فى قطيعتها المعروفة بقطيعة أم جعفر (٣) بين باب خراسان وشارع دار الرقيق (٤) وحفرت بالحجاز العين المعروفة بعين المشاش (٥) ومهدت الطريق لمائها فى كل خفض ورفع وسهل ووعر حتى أخرجتها من مسافة اثنى عشر ميلا الى مكة فبلغ ماأنفقته عليها ألف ألف دينار وهذا من الاعمال التى لم

(١) الاغانى ٩*١٠٢ والشريشى ٢*٢٤٥ والحصرى ٣*٢٣٦ (٢) فى المسعودي انها كانت من الرشيد بالمنزلة التى لايتقدمها أحد من نظرائها ٢*٢٢٧ (٣) ياقوت ٤*٢١١ (٤) ابن خلكان ١*١٨٩ والمستطرف ١*٢٨٩ (٥) المسعودى ٢*٢٤٠ وابن جبير ١٧٣ والشريشى ٢*٢٤٥

تباشرها امرأة فى الاسلام الا الخيزران أم الرشيد فانها عمرت كثيرا من المساجد (١) أيضاً وبنت دار ابن يوسف بمكة التى ولدفيها النبي صلى الله عليه وسلم مسجدا (٢) جزيل البركة وتوفرت عندها الاموال حتى بلغ الذى خلفته مع ما توسعت فيه من النفقة مائة ألف ألف درهم (٣) فان لم يكن عند زبيدة من المال مابلغ هذا القدر الجسيم فان لها فى السياسة رأيا تسمو به الى التداخل في أمور الدولة كافطن ما يكون من الرجال .

وقد صير الرشيد أمر بيته بعد زبيدة الى مسرور خادمه العبد وهو حاجبه وسيد مواليه (٤) وله فى قصور الخلافة دواوين تتيم فيها حوزته من خدم وحرس وغلمان والكاتب له هو زياد بن أبي الخطاب (٥) يقيم بمقربة من مجلس يوسف بن القاسم صاحب ديوان الانشاء (٦) ومن قام بين يدى الرشيد حين أخذت له البيعة وفي ذلك دليل على مكان كتابه من الشرف وعلو المرتبة . ولا غرو فان له من نفوذ الكلمة ما ليس للأمراء والحكام مثله اذ كان سيد دور الخلافة والحارس لها لا يدخلها شيء ولا يخرج منها شيء الا باذنه ورضاه وكثيرا ما رأيت الملوك يتزلفون بالهدايا اليه ليخاطب الرشيد فى حاجاتهم اذ ليس فى أهل بيته من يجرأ عليه سواه (٧) حتى كان اذا ركب الخليفة لا يجسر أحد على سؤاله الى أين يذهب غيره (٨)

---

(١) ابن جبير ٢٧٦ (٢) المسعودى ١*٣٠٦ (٣) المسعودى ٢*٢٠٧ (٤) ابن خلدون ٣*٢٢٣ (٥) الاغانى ٤*٩٩ (٦) المحاضرة ٢*١٣٢ (٧) الاتليدي ٢٨٦ (٨) الاغاني ٩*٩١

والى مسرور هذا الخصىّ الامر فيما يختص بالسراري والقيان وانهن لكثير فى دار الرشيد يبلغن زهاء ألفي جارية (١) يرفلن في أحسن زيّ من كل نوع من أنواع الجواهر والوشى المذهب غير أن المقدم عليهن جميعا ثلاث أهداهن اليه الفضل بن الربيع . سحر . وضياء . وخنث ذات الخال لهن صور تستنطق الافواه بالتسبيح وعيون لا ترتد الا باقتناص النفوس . وهن اللواتى يهواهن ويقول فيهن الشعر . ومن ذلك قوله (٢)

ان سحراً وضياء وخنث هن سحر وضياء وخنث
أخذت سحر ولا ذنب لها ثلثى قلبي وتربها الثلث

وقال فيهن أيضا (٣)

ملك الثلاث الآنسات عنانى وحللن من قلبي بكل مكان
مالى تطاوعنى البرية كلها وأطيعهن وهنّ فى عصيانى
ماذاك الا أن سلطان الهوى وبه قوين أعز من سلطانى

وكنت اذا حضرت مجلسه وهن يغنين له من وراء الستارة ومعهن غانية لحمدونة (٤) بنته يقال لها دفاق (٥) لم يطق الستر أن يحجبهن عن نظره فيخرجهن اليه ويقول « واللّه لاصبر لى على الحجاب » وانما هو ضعف يميل به مع هوى النفس .

---

(١) الاغانى ٩*٨٨ (٢) الاغانى ٥*٦٧ و١٥*٨١ (٣) الاغانى ١٥*٨١ وتزيين الاسواق وفوات الوفيات ٢*٣٩١ العقد الفريد ٣*٤٨ . (٤) ذكرها الاغانى وابن الاثير ٦*٧٧ من أولاد الرشيد (٥) الاغانى ٧*٩١ و١١*٩٨

أما حريم الخلافة فانه دوائر كبيرة لا اتصال لبعضها ببعض ولكل هاشمية من بنات الخلفاء دائرة منفردة عماسواها من الدوائر وأعظمها دائرة أم جعفر لها قصر السلام كله وهو أظرف القصور وأبهجها زينة وأجملها فى العيون والقلوب موقعا يقول فيه ابراهيم النديم (١)

سقيت الغيث ياقصر السلام فنعم محلة الملك الهمام
لقد نشر الاله عليك نورا وخصك بالسلامة والسلام

ثم دائرة أولاد المهدىّ ثم دائرة أولاد الهادى ثم دائرة أولاد الرشيد من غير زبيدة زوجه . ولهن جميعا من الخدم والغلمان والخصيان ماينتهى اليه اسراف الملوك فى السعة ويتجلى به جمال السلطان بالبهاء والاشراق . ولقد رأيت الجوارى من خدم الهاشميات يتقلبن في أطيب العيش والنعيم ويتخذن العصائب مكالة بالجوهر اقتداء بعلية أخت الرشيد اذ كانت أول من اتخذ العصابة لعيب في جبينها فسترته بها فكان ذلك أحسن ماابتدعه النساء (٢)

اما لباس الرشيد فهو لباس غيره من العباسيين السواد لا يتأنق فيه الا بما تقتضيه الرسوم المحفوظة وانما ينصرف همه الى لذة المطعم بالتأنق في صنوف الألوان وقد جلست الى طعامه(٣) اكثر من مرة فى مجلس كامل الزينة قد فرشه بالرخام الأخضر ولبس حيطانه بالوشى المنسوج

---

(١) الاغانى ٥*٨١ (٢) الاغانى ٩*٨٣ (٣) ذكر الاغانى ٥*٢٤ أنه ماكان يجلس الى طعام الخليفة غير أمير وعالم

بالذهب (١) فرأيته يتفنن فى طعامه ولكن على غير شره في الأكل يبدأ بالمرق من السكباج وغيره تنشيطا لجسمه ثم يأكل الفاتر (٢) من الطعام من البقول واشباهها ثم الدجاج وأنواع الطير ثم الشواء ثم انواع السمك ثم ما يطبخ بالتوابل من اللحم والبقول وغيرها حتى تكاد مائدته لاتخلو من السنبوسج(٣) وهى رقاق تحشى باللحم والدهن عليه التوابل من الفلفل والزنجبيل ثم تقلى بالزيت ويطرف بالخردل (٤) وهو يتخلل طعامه بتناول اليسير من التوابل التى تشهيه اليه ٥) فاذا اكتفى منه تناول الحلوى من الاسوقة والربيكة واللوزينج والفالوذج أو غيرها ثم الفاكهة بعدها ثم النقل (٦ وهو الذى يتناوله بعد طعامه للتعلل ولكن فى الصحاف التى ليس أظرف منها فى آنية الصين ولا أغلى ثمنا وقيمة فكنت أحسب لشدة تأنقه فى فنون المطعم أنه لولم ينه النبي صلى الله عليه وسلم عن الاكل فى صحاف الذهب والفضة (٧) لاتخذها كذلك ونزل فيها اليواقيت والجواهر فاذا اكتفى من التعلل جاءه الغلمان بماء الورد الممسك (٨) فى قماقم الذهب مع شيء من الريحان فيغسل يديه ويتبخر فاذا كان بعد الغداء دخل مخدعه للقيلولة (٩) واذا كان بعد العشاء جلس للمغنين والندمان كذلك عادته من يوم ولى الخلافة .

---

(١) ذكر الوشى المنسوج بالذهب الاغانى ٣*١٨٤ (٢) المسعودى ٢*٢٢٠ (٣) المسعودي ٢*٤٢٦ (٤) الاغانى ١٠*٣٩ (٥) يبتدئ بالطعام الحار وينتهى باكل البوارد المسعودي ٢*٢٢٠ (٦) المسعودى ٢*٢٢٠ والابشيهى ١*٨٤ (٧) الاتليدى ٩ (٨) الاتليدى ١١٣ (٩) الاغانى ٥*١١ والمستطرف ١*١٣٢

أما أولاد الرشيد فكلهم مترف يتقلب في النعمة والاسراف الا أحمد (١) فانه يحاول العزلة ويقعد مقعد ضئأة ويتكسب بيده فيما يقولون شيأ ينفقه على نفسه مع مقدرة أبيه كلها (٢) أما القاسم فانه ذو كبر شديد ونعمة طائلة وبذخ زائد واليه ينتهي جمال ولد الخلافة (٣) وكان أبوه قد طوقه أمر الفداء الذي وقع بين المسلمين والروم بعيد عودتي من خراسان فجرى ذلك على يده (٤) وعمره يومئذ اثنتا عشرة سنة فتزاحم ركب الملوك على بابه ومكّنه أبوه من بيوت المال فهو اليوم يتخذ القصور المزخرفة ويشترى الجوارى (٥) والغلمان . ويقيم المجالس للشعراء والمغنين والندمان ويقطعهم الضياع ويصلهم بما يشاء من الهبات (٦) الى أن يصيب بعضهم في ناحيته مالا يصيبه في جوائز الخليفة من المال .

أما الامين والمأمون وليّا العهد فانهما دونه في الاسراف ولا سيما الامين فانه يوهم انه كثير العقل وان كان ضعيفه (٧) ويتخذ الوقار برقعاً لوجهه لما يحدّث به نفسه من أمر الخلافة ولانه ابن هاشمي وهاشمية وذلك لم يتفق لغيره من خلفائهم فان أبا العباس وأبا جعفر والمهدى والهادى والرشيد كلهم أولاد سرارى (٨) وأما عبد الله المأمون فانه زينة أولاد الرشيد وسمته سمة خير وفضل وعفاف لم أر في أبيه خلة

---

(١) ولد له من سرية لبعض نسائه العقد الفريد٣*٥٦ (٢) ابن خلكان ١*٥٧ (٣) الاغانى٣*١٥٩ و٩*٩٦ (٤) ابن الاثير٦*٥٧ (٥) الاغانى ٣*٥٧ (٦) ذكر الاغانى ٣*١٦٨ و٤*١١٦ عطاء أولاد الخلفاء (٧) ابن الاثير والمسعودي والفخري (٨) السيوطى

من الخلال المحمودة ولا خلقا من الاخلاق الرضية الا وجدتها فى نفسه طبيعة تسمو به الى أرفع مقام فى أدب الدنيا والدين ولم أر فى أولاد الملوك غير البرامكة أعزهم الله من يتعشق العلوم الحكمية (١) على حداثة سنه ويقيم بين العلماء لمناظرتهم (٢) فى جميع أنواع العلوم مثله فما أذكر أنى دخلت عليه مرة الا ولقيته في مجلس من العلماء والادباء وهو متوسط فيهم كالشمس من حولها الضياء .

ولقد قصدت بابه من عهد قريب مع أمير من البرامكة فألفيت بحضرته (٣) جماعة من أئمة العلم ومنهم الخزيمي والعباس بن زفر ومنصور النمري وهو السليم شعره من العيب لولا أن لهُ طعنا فى الشيعة يبتغى به مرضاة العباسيين ومحمد الراوية المسمى بالبيدق لقصره وهو المنشد للرشيد أشعار المحدثين (٤) وفتى من أمراء آل نوبخت يقال له الفضل بن سهل وهو خليل المأمون (٥) وصديقه لا يصبر على فراقه فى نهار ولا ليل واذا ركب في موكبه أركبه معه على النجائب المخضوبة بالحناء وعليها القطوع والديباج (٦) وكان بجانب المأمون جماعة من النحاة قد أحدقوا به احداق الهالة بالقمر منهم الكسائى وأبو محمد مؤدباه (٧)

---

(١) المقدمة ١٨ (٢) الدميري ١*٩٨ والمسعودي ٢*٤٠٢ والعقد الفريد ٣*٤٣ (٣)الاغانى ٢ *٢٢ (٤) الاغانى ١٢*٢٠ (٥)ابن الاثير وذكره الوطواط ١٤٢ (٦) ذكر زينة المراكب هذه الاغانى ١*٨٨ (٧) الاغانى١٨*٧٢ والمستطرف ٢*١٣ والمسعودى ٢*٢١٣

وهم يتباحثون معه في مسائل نحوية وكنت أسمعه يقول لهم زيد على الرفع والكسائي يقول بل زيدا منصوبة بان فتطارح العلماء الجملة الاعرابية التي دار عليها كلامهم وهي « ان من خير القوم أو خيرهم نية زيد »(١) فأجمع رأيهم على موافقة المأمون فتحققت فضله في ذلك اليوم وعرفت انه يدخل العلوم من أبوابها وليس تطفلا منه كما يتبادر الى العقل عن آداب المترفين من أولاد الملوك .

وكان هذا الامير اذا جلس للاستراحة يثني انصبابه الى ما يجدفيه من التسلية أدبا وفائدة ولم يكن شيء من الملاهي أحب اليه من لعب الشطرنج (٢) يمارسه كابيه (٣) لاستنباط الحيل فيه حتى لم يكن في الناس من يفضله فيه وهو القائل في الشطرنج (٤) .

أرض مربّعة حمراء من أدم ... مابين الفين موصوفين بالكرم
تذاكرا الحرب فاحتالا لها شبها ... من غير ان يسعيا فيها بسفك دم
هذا يغير على هذا وذاك على ... هذا يغير وعين الحرب لم تنم
فانظر الى الخيل قد جاشت بمعركة ... في عسكرين بلا طبل ولا علم

واما لعبه بالاكرة والطبطاب ورميه في البرجاش النشّاب . وكرّه بالصوالجة في الميدان واقتناؤه ظرائف الطير

---

(١) الاغاني ١٨*٧٧ (٢) العقد الفريد٣ * ٢٥٤ (٣) لعب الرشيد الشطرنج أمر معروف (٤) المستطرف ٢*٣٠٦ والمسعودي٢ * ٤٠٦

والخيل (١) والحيوان. و اتخاذه الديكة ليقاتل بعضها بعضا والاكباش ليناطح بها بين يديه الى غير ذلك من ملذات الملوك الذين يبلغـون من الترف الى أن يعدوا أمثال هذه الملاهي على سبيل المفاخرة والمباهاة . فانه كان يتخذها بما يدعوه اليه موضعه من الملك المترف وهو غير غافل عن اتخاذ الاشياء التي تعـود عليه من وراء الزينة والمـكاثرة بفوائد من الادب والصناعة . فقد عني بجمع آثار الملوك من ثياب وسلاح وآنية ومتاع وغير ذلك حتى جمع من طرائفها القدر العظيم الثمين . رأيت في بعض مجاميعه صندوقا

(١) من المعلوم أنه كان لامراء العرب العناية التامة بتربيـة الخيـل ووجدت في العقد الفريد أن المأمون كان يتخذ خيلا يسابق بها خيل أبيه وأقاربه في الحلبة قال في الجزء الاول* ٦١ ركب الرشيد في سنة ١٨٥ الى الميدان لشهود الحلبة قال الاصمعي فدخلت الميدان لشهودها فيمن شهد من خواص الخليفة والحلبة يومئذ افراس للرشيد ولو لديه الامين والمأمون وسـليمان بن جعفر ولعيسى ابن جعفر فجاء فرس أدهم يقال له الريذ لهرون الرشيد سابقة فابتهج لذلك ابتهاجا عـلم في وجهه وقال علي بالاصمعي فنوديت له من كل جانب فاقبلت سريعاً حتى مثلت بين يديه فقال يا أصمعي خذ بناصية الريذ ثم صفه من قونسه الى سنبكه فانه يقال ان فيه عشرين اسما من أسماء الطير قلت نعم يا أمير المؤمنين وأنشدته شعرا جامعاً ما فيه من قول أبي حرزة... فأمر لي بألف درهم

وذكر المسعودي ٢ * ٢٢٠ ان الرشـيد أجرى الخيـل يوماً بالرقة وكان في أوائلها سوابق من خيـله يتقدمها فرسان في عنان واحد لا يتقدم أحدهما صاحبه فتأملها فقال فرسي والله ثم تأمل الاخرى فقال فرس ابني المأمون

أودعه خواتم الخلفاء جميعا من العباسيين والامويين والخلفاء الراشدين ومن كان يقوم بدعوة الخوارج بعدهم وفي صدر الدولتين فكان جامعاً لجميع خواتمهم (١) الاخاتم النبي صلى الله عليه وسلم ولولم يكن ضاع من عثمان فى بئر أريس كما تواتر في الانباء (٢) لما كف عن طلبه حتى يجده وفى هذا المجموع وأمثاله من المجاميع أدب حاصل مع الفكاهة والزينة وهذا ما أذكره من فضائل هذا الامير وليس هو الا النزر اليسير فى جانب الكثير الواسع من فضله وأدبه .

جمال البرامكة وانفجارهم بالكرم

أما دور ملوكنا البرامكة أعزهم الله فانها فى الجانب الشرقى بازاء دور الخلافة ليس بينهما الا عرض دجلة (٣) وهى من الجمال والاشراق بمكان تسامى (٤) به قصور الرشيد لانهم بنوها على السعة التى لم يبلغها أحد من الملوك فقد أنفق جعفر بن يحيي على دار بناها عشرين ألف ألف (٥) درهم فهى مظهر الانس والصفاء . ومشرق الانوار والسناء . مغشاة بالرسوم والزخرفة من الداخل والخارج وعليها صور من الجص المجسم (٦) وقد فرشت مجالسها بالوشى والابريسم وزينت بالمتاع الثمين والقماقم

(١) في العقد الفريد والمسعودي والمقريزى والخميس وابن الاثير ذكر كثير من خواتم الخلفاء وما كانوا ينقشون عليها (٢) أبو الفداء ١*٧٧ وابن جبير ١٩٩ وتقويم البلدان ٨٧ وغيرهم (٣) الفخرى والاتليدى ١٦٧ والقزوينى ٢١٠ (٤) الدميرى ٢*١٥٤ (٥) ابن الاثير ٦*٦٢ (٦) كانت العرب تعرفه كما فى المقدمة ٣٥٧

الذهبية (١) والجامات المنقوشة (٢) والقوارير الفرعونية (٣) ولطائف الصين وغيرها من التحف التي تأتيهم من الملوك في سبيل المراضاة والاستمالة (٤) ولبست طيقانها بأستار من الديباج عليها أبيات مرسومة (٥) مما قالته الشعراء في مدحهم وهى تأتيهم من مصنوعات الفرس لان العرب لا يعملون الطراز منذ نهاهم عنه عبد الملك بن مروان (٦) ولا يكتبون على البسط والستور الا كلاماً يتبرك به بخلاف الفرس فانهم يزينون نسيجهم بالرسوم ويكتبون فيها مايطيب لهم من الشعر أو يتبركون به من الآيات .

وقد اتصلت عمارة البرامكة فى حيّ لايخالطهم فيه أحد وهى من السعة بحيث تنتهى من الجنوب الى شارع المدينة (٧) ومن الشرق الى درب دينار الصغير (٨) ومن الشمال الى باب الشماسية (٩) وهو الموضع الذى فيه قصر يحي المعروف بقصر الطين (١٠) المسمى بذلك معارضة

---

(١) الكنز ٣٦ (٢) الاغانى ٣*٢٧ (٣) الاغانى ٦*١٣٠ و١٠٣ (٤) الفخرى ١٨٦ والمقدمة ١٤ وفى ابن الاثير ٦*٥٨ انهم كانوا من المنزلة الكبرى فى عيون الملوك بحيث ان خاقان ملك الخزر حمل ابنته الى الفضل بن يحي تقربا اليهم فى المصاهرة (٥) رسم الابيات على الاستار مذكور في الاغانى ٥*٨٦ و١٠٠ (٦) الاتليدي ٢٧٢ (٧) ذكره الاغانى ٦*٧٨ (٨) ابن خلكان ٢*٣١١ (٩) الاغانى ٥*٨ وذكره المسعودى ٢*٣٨٥ وقال انه فى الجهة الشرقية تلقاء قطربل وذكر ابن الاثير ٦*٩٨ أنه نزل به جند المأمون يحاصر بغداد (١٠) الاغانى ٥*٨ وياقوت ٤*١١٤

لما أنفق عليه من الذهب واتخذ فيه من الزينة والزخرفة وفي جوارهم موضع يقال له البردان (١) يشترون فيه الدور من الناس ويهبونها لمن هو طامع فيهم من أهل العلم والادب (٢) لانهم قد رفعوا بيوتهم على قواعد الكرم والسماحة (٣) واصبحت أعطياتهم كأعظم مايكون من أعطيات الملوك فان يحيي اذا ركب يعد صرراً فى كل صرة مائتا درهم ويدفعها للمتعرضين له فى الاسواق والشوارع (٤) وقد قالت الشعراء فى ذلك.

ياسميّ الحصور يحيي أتيحت — لك من فضل ربنا جنّتان
كل من مرّ فى الطريق عليكم — فله من نوالكم مائتان

أما وقوف الملوك والامراء على أبوابهم فمالا تحضرنى عبارة تفي بالافصاح عنه وانما للامين أن ترى ازدحام الخيل فى ساحات قصرهم واقفة بالخدم والحفد والغلمان مما ليس على باب الرشيد مثله وكذلك اقبال المؤملين عليهم من جميع الوجوه وأبعد الآفاق يمتطون اليهم رحال الرجاء ويستقون من موارد احسانهم نهلا وعللا لا أشهر من أن أحاول نعته بالوصف الذى لا يعبر عنه القلم فكأنما بيتهم محط الركاب يضعن فيه المدائح ويحملن منه المال.

ولقد رأيت من العربان من قصد الفضل من قضاعة فسأله عن

---

(١) الاغانى ٥*٨ وذكر المسعودى هذا الموضع ٢*٢٦٧ (٢) الاغانى ٥*٧٢ (٣) الاغانى ٥*٧٢ والاتليدى والابشيهى والوطواط وأبو الفداء وابن خلدون والفخرى وابن نباتة وابن خلكان وغيرهم (٤) ابن خلكان ٢*٣٦٣ والفخرى

حاجته فاستجداه عشرة آلاف درهم فاستقل ذلك له وقال له قد ازدريت بنا وبنفسك يا أخا العرب وانما تعطى عشرة آلاف درهم في عشرة فلما أخذ المال انصرف وهو يبكى فقال له الفضل مم بكاؤك أستقلالا للمال الذي أعطيناك قال لا ولكنني أبكى على مثلك تواريه الارض ويأكله التراب وأنشد (١)

لعمرك ما الرزية فقدُ مال ولا فرس يموت ولا بعير
ولكنّ الرزية فقد حرّ يموت لموته خلق كثير

فنظر الىّ الفضل بعد انصرافه وقال لى ان مثل هذا يقصدنا من البلد البعيد ليسترفدنا مرة واحدة فى زمانه فيقوم بحرمة الصنيعة ومن الامراء من نغمره باحساننا كل يوم (٢) ثم يغمط النعمة ويدب فيه مرض الحسد فيكون من أشد الناس بغضا لنا وسعيا فى فساد ملكنا .

وقد انفجر البرامكة بالكرم (٣) حتى صار يضرب بهم المثل الاكبر فى سعة العطاء فيقال فلان من الملوك يتبرمك وقد أخبرنى الخازن القائم على بيت مالهم انهم يغلون فى كل سنة عشرين ألف ألف دينار (٤) فاذا انقضى الحول لا يبقى منها فى الخزائن دينار واحد فهم يتخذون الكرم

---

(١) الاتليدى (٢) الفخرى ٢٤٠ والوطواط ٢٤٩ والعقد الفريد ٣*٣٤ والمستطرف ٢*١٩٢ والاغانى ٥*١١٩ (٣) الاغانى وابن خلدون وابن الاثير وأبو الفداء والمسعودى والعقد الفريد والمستطرف والاسحاقى والاتليدي والفخري والسيوطى وابن خلكان (٤) العقد الفريد ٣*٢٨

قاعدة في الحالين من نعيم الدنيا وبؤسها يقول أبو الفضل (١) أيد الله ملكه اذا أقبلت الدنيا فأنفق فانها لا تفنى واذا أدبرت فأنفق فانها لا تبقى. وقال أبو نواس فى مدحهم (٢).

ان البرامكة الكرام تعلموا فعل الجميل وعلموه الناسا
واذا هم وضعوا الصنائع في الورى جعلوا لها طول البقاء أساسا

وقال فيهم نصيب (٣).

عند الملوك مضرة ومنافع وأرى البرامك لا تضر وتنفع
ان العروق اذا استسر بها الثرى أشر النبات بها وطاب المزرع
فاذا جهلت من امرئ أعراقه وقديمه فانظر الى مايصنع

وقال أبو النضير البصرى (٤).

اذا كنت من بغداد منقطع الثرى وجدت نسيم الجود من آل برمك

وقيل فيهم وهو منتهى المديح (٥)

أتانا بنو الآمال من آل برمك فياطيب أخبار ويا حسن منظر
لهم رحلة فى كل عام الى العدا وأخرى الى البيت العتيق المستر
اذا نزلوا بطحاء مكة أشرقت بيحي وبالفضل بن يحي وجعفر
فتظلم بغداد وتجلو لنا الدجى بمكة مايجري ثلاثة أقمر

---

(١) الاتليدى في كتاب اعلام الناس (٢) الاغانى ٥*١١١ و٢٠*٣٤ والحصري ١*٣٧٥ (٣) الاغانى ١٠*١٠٠

فما خلقت الا لجود اكفهم ... وأقدامهم الا لأعواد منبر

اذا راض يحيي الامر ذلت صعابه ... وناهيك من راع له ومدبر

وقال سلم الخاسر فى يحيي (١) أعزه الله تعالى .

يا أيها الملك الذى ... أضحى وهمته المعال

أنت المنوّه باسمه ... عند الملمات الثقال

لله درك من فتى ... مافيك من كرم الخصال

وقال فيه أبو نصر (٢) وأنا أستحسن البيتين وأرى لهما وقعا لطيفاً من القلوب

نام الخليون من وهم ومن سقم ... وبتّ من كثرة الاحزان لم أنم

ياطالب الجود والمعروف مجتهداً ... اعمد ليحيي حليف الجود والكرم

وقال فيه آخر (٣)

سألت الندى هل أنت حر فقال لا ... ولكنني عبد ليحيي بن خالد

فقلت شراء قال لا بل وراثة ... توارثني من والد بعد والد

وقال غيره (٤)

لاترانى مصافحا كف يحيي ... انى ان فعلت ضيعت مالى

لو يمس البخيل راحة يحيي ... لسخت نفسه ببذل النوال

وقال غيره في كرم الفضل (٥) رعاه الله تعالى .

---

(١) الوطواط ٢٤٩ (٢) الاغانى ٥*١٣ والاتليدى ٢٣٨ (٣) اعلام الناس والعقد الفريد ١*١٠٠ (٤) الفخرى ٢٣٦ (٥) اعلام الناس

حكى الفضل عن يحيي سماحة خالد فقامت به التقوى وقام به العدل
اليه يسير الناس شرقا ومغربا فرادى وأزواجا كأنهم نحل

واعترضه وقت خروجه الى خراسان فتى من انجار كان قدشخص الى الكوفة فقطع عليه الطريق وأخذ جميع ما كان معه فأخذ بعنان دابة الفضل وقال (١) .

سأرسل بيتا ليس فى الشعر مثله يقطع أعناق البيوت الشوارد
اقام الندى والبأس فى كل منزل أقام به الفضل بن يحيي بن خالد

وقال آخر من شعراء البادية (٢)

قد كان آدم حين حان وفاته أوصاك وهو يجود بالحوباء
ببنيه ان ترعاهمو فرعيتهم وكفيت آدم عيلة الابناء

وقال فيه آخر (٣) .

ألم تر أن الجود من عهد آدم تحدر حتى صار يملكه الفضل
ولو أن أما مسها جوع طفلها غذته باسم الفضل لاغتذى الطفل

وقال فيه أشجع السلمى الشاعر (٤) .

وماندم الفضل بن يحيي مكانه على غيره بل قدمته المكارم
لقد أرهب الاعداء حتى كانما على كل ثغر بالمنية قائم

وقال أبو النضر البصرى (٥) .

---

(١) العقد الفريد١*٢,١١٩) ذكر فى العقد الفريد ١*١١٤ أن البيتين قيلا فى الحكم ابن حنطب(٣) اعلام الناس(٤) الاغانى ١٧*٣٤ (٥) الاغانى ٥*١٤ و١٠*١٠٠

ويفرح بالمولود من آل برمك بغاة الندى والسيف والرمح والنصل
وتنبسط الآمال فيه لفضله ولا سيما ان كان من ولد الفضل

وقال غيره (١)

ولائمة لامتك يا فضل فى الندى فقلت لها ما يقدح اللوم فى البحر
أرادت لتثنى الفضل عن سنن الندى ومن ذا الذى يثنى السحاب عن القطر
مواقع جود الفضل في كل بلدة مواقع ماء المزن في البلد القفر
كأنّ وفود الناس لما تحملوا الى الفضل لاقوا عنده ليلة القدر

وقال آخر (٢)

اذا نزل الفضل بن يحيي ببلدة رأيت بها غيث السماحة ينبت

وقال ابن الخياط المكىّ (٣)

لمست بكفى كفه أبتغى الغنى ولم أدر أنّ الجود من كفه يعدى
فلا أنا منه ما أفاد ذوو الغنى أفدت وأعدانى فأتلفت ما عندى

وذلك أن الفضل أمر له ذات يوم بخمسة آلاف درهم فاستأذنه فى تقبيل يده فأذن له فما انتهى الى الباب حتى فرق المال بأسره فعوتب على ذلك فقال البيتين المذكورين فبلغ ذلك الفضل فأعطاه عشرين ألف درهم . وقال بعضهم (٤) وهو أمدح بيت فى الكرم.

---

(١) اعلام الناس والعقد الفريد ١*٢٩٨ (٢) المستطرف ١*١٩٦ (٣) حلبة الكميت والوطواط ٢٥٠ والاغانى ١٨*٩٤ وهو يقول انه أنشدهما فى المهدي (٤) ابن خلكان ١*٥٨٦

مالقينا من جود فضل بن يحيي ترك الناس كلهم شعراء

وقال مروان بن أبى حفصة فى جعفر وهو صبىّ (١)

بنى لك خالد وأبوك يحيي بناء فى المكارم لن ينالا
كانّ البرمكى لكل مال تجود به يداه يفاد مالا

وقال فيه أيضاً (٢)

أفى كل يوم أنت صب وليلة الى أم بكر لا تفيق فتقصر
أحب على الهجران اكناف بيتها فيالك من بيت يحب ويهجر
الى جعفر سارت بنا كل حرة طواها سراها نحوه والتهجر
الى واسع للمجتدين فناؤه تروح عطاياه عليهم وتبكر

وقال فيه (٣)

بدولة جعفر حمد الزمان لبابك كل يوم مهرجان
جعلت هديتى لك فيه وشياً وخير الوشى مانسج اللسان

---

(١) هو زيادة فى القصيدة التى رثى بها معنا ولم يذبه عليها أحد من أولاده مثل ما أتى به جعفر البرمكى فألحقها ببعض أبيات في مديحه • ومما قاله مروان فى هذه القصيدة فى رثاء معن

كانّ الشمس يوم أصيب معن من الاظلام ملبسة جلالا
هو الجبل الذي كانت معدّ تهدّ من العدو به الجبالا
أقمنا باليمامة بعد معن مقاما لا نريد به زيالا
وقلنا أين نرحل بعد معن وقد ذهب النوال فلا نوالا

وهى من جيد الشعر • الاغانى ١٨*١١٦ والحصرى ١*٣٧٧ (٢) الاغانى ٥*١٥
(٣) العقد الفريد الفريد ٣*٣٧٧

وقال العتابي وكان فى نفس الرشـيد عليه موجدة واستعطفه جعفر عليه فقال فيه (١)

ما زلت فى غمرات الموت مطّرحا قدضاق عنى فسيح الارض من حيلى
ولم تزل دائما تسعى بلطفك لى حتى اختلست حياتى من يدى أجلى

وقال فيه أشجع السلمى (٢)

يريد الملوك مدى جعفر ولا يصنعون كما يصنع
تلوذ الملوك بابوابه اذا نابها الحدث الافظع

وقال فيه (٣)

ذهبت مكارم جعفر وفعاله فى الناس مثل مذاهب الشمس
ملك تسوس له المعالى نفسه والعقل خير سياسة النفس
فاذا تراءته الملوك تراجعوا جهر الكلام بمنطق همس
ساد البرامك جعفر وهم الالى بعد الخلائف سادة الانس
لاضر من قصد بن يحيى راغبا بالسعد حل به أم النحس

الى غير ذلك من الاشعار التى لو حاولت تقييدها فى هذا الكتاب لبلغت أكثر من عشرة آلاف بيت من الابيات الجيدة ليس فيها بيت سخيف بارد . وقد وجدت للرقاشى (٤) وحده ديوانا يحوى أكثر من ألف بيت فى مديحهم وهى من البلاغة بحيث ان البرامكة أعزهم الله يروونها

---

(١) الاغانى ١٢*٧ (٢) الاغانى ١٧*٣٤ (٣) الاغانى ١٧*٣٣ (٤) الاغانى ١٥*٣٥ ويظهر من كلام ابن الاثير ٦*٦٤ ان الرقاشى كان شاعر البرامكة

لأولادهم تفضيلا لها على شعر غيره من المحدثين .

(الدولة فى خلافة الرشيد)

نعود الى ما نحن آخذون به من ذكر مملكة الرشيد وسياسته فقد سبق القول بان دولته من أوسع دول الاسلام بل دول العالم رقعة مملكة فانها تنبسط من الهند وفرغانة فى الصين الى طرف المغرب الاقصى من ناحية الزقاق كذلك كان امتدادها فى أيام أبيه ماغير البلدان التى غاب عليها الروم في حروب متواترة قد استمرت بينه وبينهم على غير انقطاع كما كان شأن الخلفاء فى رفع السيوف عليهم منذ صدر الاسلام فان الدولة الاموية قد حملت عليهم المرة بعد المرة وحملتهم خسائر عظيمة من الرجال والمال وكذلك العباسية بعدهم قد ساقوا اليهم الجيوش ولم يزل أبو جعفر فى مغالبتهم حتى أذاقهم مرّ البلاء وكانوا مع ذلك لا يفترون عن الثورة ويأبون الا نكث العهود ونقض العقود المبرمة فلما ولى المهدى أخرج اليهم الرشيد(١) وهو فتى بقيادة يحيي وزيرنا فركب فى عدة وأهبة لم يكن مثلها فى الاسلام وتحركت فى نفسه نخوة الجهاد حتى اتسم بسمة المحاربين فى الجيش وحمل الرمح فى يده (٢) وكان على القسطنطينية ملكة يقال لها رينى لم تطق مقاومته فهزم جندها وتفرق المسلمون فى البسائط (٣) يعفون الآثار ويبيحون الذمار ولا يبقون على أحد من الروم حتى اذا نزل بجوار

(١) أبو الفداء ٢*١٠ والخميس ٢*٣٣١ وابن الاثير (٢) الاغاني ١٧*٤٨

(٣)ابن الاثير ٦*٧٠

القسطنطينية ونصب على أسوارها المنجنيقات خافت عليها من الحريق فصالحته على كايكية وحملت اليه الجزية التى كان يحملها أسلافها الى الخلفاء وتلك أحسبها للروم من حيل السياسة فى ايجاد الهدنة بالجزية فيما بينهم وبين المسلمين ففى نفسى أنه لولم يتهاون الخلفاء فى أمرهم لما بقى لهم ملك تجاه دول الاسلام العظيمة

ثم انه بعد أن ولى الرشيد وقع فى نفوس الروم أن يتقاعدوا عن حمل الجزية اليه فعبى لهم العساكر وشحنها فى أسطول يسوقه حميد بن معيوب أمير الأساطيل بسواحل الشام (١) وسير الفرسان من ناحية البر يحرقون المدن ويبثون الخراب ففتحوا وغنموا (٢) وأثخنوا وأوغلوا حتى انتهوا الى جوار القسطنطينية وأطافوا بمعاقل الروم وأخذوا عليهم مهاربهم فلما أدركت الملكة العجز عن دفاعهم ورأت الجند بين يديها وهو شتيت صالحتهم على الجزية وراحت تحملها الى بغداد وهى صاغرة الى انقضاء ملكها بعد ان نال المسلمون من غنائمهم أعظم النيل واستشعروا من عزة الاسلام فى غزوتهم تلك ما أفاضوا فى التحدث به الى هذا اليوم والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات . وتصدر رايات الاسلام راويات .

ولما هلكت رينى نصب الروم عليهم نقفور وكان ملكا شديد الباس

---

(١) ابو الفرج * وذكر امارة الاساطيل بسواحل الشام ومصر ابو الفداء ٢*١٩ (٢) نزل حميد بن معيوب قبرص وسبى من اهلها ستة عشر ألفا ابن الاثير ٦*٧٠

الا أنه قليل الخبرة بامور السياسة غير عارف بمكان الاسلام من الصولة والدولة بل كان يظن فى المتمصرين من العرب فتورا فى العزيمة وتشاغلا عن أمر الجهاد بما ركنوا اليه من دعة العمران فكتب الى الرشيد فى منتصف هذه السنة كتابا بنقض الهدنة التى كانت بينه وبين رينى يقول فيه « من نقفور ملك الروم الى هرون ملك العرب . أما بعد فان الملكة التى كانت قبل كانت قد أقامتك مقام الرخ وأقامت نفسها مقام البيدق فحملت اليك من أموالها أحمالا (١) وذلك لضعف النساء وحمقهن فاذا قرأت كتابي فاردد ماحصل قبلك من أموالها والا فالسيف بينى وبينك » فلما قرأ الرشيد الكتاب استشاط غضبا حتى لم يجسر أحد أن ينظر اليه فدعا بدواة وكتب على ظهر كتابه بسم الله الرحمن الرحيم من هرون أمير المؤمنين الى نقفور كلب الروم قد قرأت كتابك ياابن الكافرة والجواب ماتراه لاماتسمعه (٢) ثم حشد الجنود ليومه وركب فى صفوف المترجلين والفرسان وحمل القوات والاقوات استظهارا على نفوذ العزيمة ولم يزل حتى وافى مدينة هرقلة (٣) ونصب عليها القتال وهى مدينة للروم لم يطمع أحد من ملوك الاسلام فى الوصول اليها لخشونة مكانها فدكَّ أسوارها بالمنجنيق ومنحه الله أكتاف الروم فنفلهم رقابهم

(١) في تاريخ أبي الفداء انه قال فحملت اليك من أموالها ما كنت حقيقا بحمل أضعافه اليها لكن ذلك من ضعف النساء وحمقهن الى آخر الكتاب (٢) الاغانى ١٧*٤٥ والطبرىّ وابن خلدون والسيوطي والمسعودى ١*١٥٨ وأبوالفداء ٢*١٨ (٣) ابو الفداء ٢*١٩

وأموالهم وفى ذلك يقول الشاعر المكّى (١)

هوت هرقلة لما أن رأت عجبا حوائما ترتمى بالنفط والنار
كأن نيراننا فى جنب قلعتهم مصبغات على أرسان قصار

وهذا كلام ضعيف لين ولكن قدره عظيم فى ذلك الموضع والوقت(٢) ولم تقف هزيمتهم على هرقلة فقط بل كانوا يسلّمون كثيرا من المعاقل والبلدان فكان ذلك الفتح فتحا عظيماً لا كفاء له وهنأت الشعراء الرشيد قال أبو العتاهية فى ذلك (٣)

قضى الله أن صفّى لهرون ملكه وكان قضاء الله فى الخلق مقضيّا
تحبّبت الدنيا لهرون بالرضا وأصبح نقفور لهرون ذميّا

فلما ضاقت بهم الحيل ولم يكن لهم بالمسلمين قبل رغبوا فى المسالمة والموادعة وأوجبوا على نفوسهم اعطاء الجزية وهم صاغرون . ولست أقول ان هذا الفوز كان سهلا على الرشيد فانه قد طوّح من الرجال وأنفق من الاموال ماهو حقيق بأن ينظر فيه فان الروم أهل بأس ومراس شديد وهو يقاسى (٤) معهم الحروب الصعاب ولم يكن فى شأنه

(١) الاغانى ١٧*٤٧ والمسعودى (٢) الاغانى ١٧*٤٧ (٣) المسعودى ١*١٥٨
(٤) ذكر الاغانى ١*٣٨ أن الرشيد قال للاصمعى عقب قدومه من بلاد الروم أنشدنى أحسن ماقيل فى رجل لوّحه السفر فأنشده قول عمر بن أبى ربيعة

رأت رجلاأما اذا الشمس عارضت فيضحى وأما بالعشىّ فيخصر
أخا سفر جوّاب أرض تقاذفت به فلوات فهو أشعث أغبر

وفى العقد الفريد ٣*١٧٨ تكملة هذه الابيات وهى قصيدة مشهورة يستحسن الظرفاء طريقة نظمها لكن ربما وقع فيها تحريف من الناسخين

معهم حيلة ولا سياسة وانما هى حروب قد تواصلت تباعا وأخذ بعضها برقاب بعض بما يروم من نفوذ السلطان حتى يركّب عليهم سيف الاسلام والا فان الجزية التى يطمع فيها لاتفى بالقليل من الاموال التى تنفقها الدولة وهى بمكانها من المهاجمة ومكان الروم من المدافعة فى ظلال الاسوار وفى ذلك تفاوت بعيد بخسائر القتال فيدلك على قوة الاسلام أنه غزاهم غزوات كثيرة ماأخفق فى واحدة منها كما رأيت

هذا كان شأن الرشيد مع صهب السبال أما السياسة التى أتعبت خاطره فكانت منصرفة الى اذلال العلويين فى المغرب قبل أن تسود بهم الحال . وتسودّ عندهم جموع الرجال . لانه تعذر عليه محاربتهم مثل الروم بتجافى عظماء دولته من أهل الرأى والتدبير عن قتال المسلمين على غير فائدة الاضياع المال وضيعة الرجال ولذلك جعل الملك فى افريقية لآل ابن الاغلب حتى يقاوموا جندهم فلا يتمكنوا من اقامة مملكة تنهال من المغرب فتطمو على المشرق كله فكأنه وقع بين أمرين مخوفين عليه فاختار ماهو أقرب الى النجاة بأن يملك الأغالبة المغرب حتى اذا قامت دولتهم رسخت فى مكانها ولم تتجاوز الرمال التى بين افريقية ومصر .

على أن العلويين مع ذلك كله قد ملكوا البلاد الى طرف المغرب ولم يأل ابن الاغلب فى مناوأتهم جهداً وهو لايبلغ الغاية التى يرومها من اذلال ملكهم وتضييع نفوذهم فى المسلمين لان جندهم مطيع لهم

فيما استقروا فيه من تلك الاقاليم وكلهم صادق الحملة مدرب على القتال ولا سيما قبائل صنهاجة من بطون حمير (١) وهم أمنع الناس ذماراً. وأبعد الفرسان مغاراً . وذلك أمر طيب مني النفس لا بغضاً في آل العباس لاني لاأريد بهم مكروها وانما العلويون هم أهل البيت الكريم وفيهم الانجاب الذين تعرف البطحاء وطأتهم والبيت يعرفهم والحل والحرم (٢) كما يقول الفرزدق الشاعر في مديحهم . فلعمري انهم أحق من الاغالبة بهذا الملك الذي أراه اليوم يثبت في أيديهم الى ما شاء الله من الزمان باتحادهم الى غاية واحدة وسياسة راشدة فقد عرفتَ ان تمزقهم فيما مضى انما حصل بتفرق دعاتهم على أغراض لم تجمع بينهم الى الوحدة . وفيما تقدم من الكلام عن أبي جعفر ما يبين لك أنهم لولم يفترقوا لظفروا . أما اليوم فانهم مجتمعون الى ادريس بن ادريس وله دون غيره من أهل البيت السلام عليك ياابن رسول الله (٣)

وانما سار العلويون الى المغرب وأقروا فيه مملكتهم بايعاز البرامكة الامجاد وهم الآخذون بناصرهم والمتغرضون معهم (٤) والمقلدون

---

(١) ذكرهم ابن خلكان ١*١٢٢ (٢) الاغانى ١٤*٨٧ والاتليدي ٥٤ والشبلنجي ١٧٠ (٣) ابن خرذاذبه ٧٩ (٤) في تاريخ أبي الفداء ٢*١٢ ان الرشيد لما جهز الفضل بن يحيي الى قتال يحيي بن عبد الله كتب اليه الفضل وبذل له الامان وربما جعل الرشيد نفسه يحسن اليه ويكرم وفادته عليه وفى ذلك دليل واضح على محبته البرامكة لاهل البيت • وذكر ابن الاثير ان الفضل بن سهل الملقب بذى الرياستين كان يتشيع وان البرامكة هم الذين اختاروه لخدمة المأمون ٦*٧٠

الولايات لكثير من أهل الشيعة (١) الا انهم لايتممدون فى ذلك ضرر الرشيد وهو المؤتمن لهم على مملكته لان المغرب فيما يرون اذا انسلخ عن بغداد لايحدث فى الخلافة ضرر المناسبة عظم الممالك الاسلامية وانما يضر التجزؤ بالدول اذا كانت الدولة منحصرة فى اقليم غير متسع الى طرف العالم وكان فى جوارها أمة ثانية متغلبة فانها تسطو عليها شيأ فشيأ الى أن تلتهمها جملة واحدة كما رأينا فى سير الامم الماضية أما الخلافة الاسلامية فان الجهاد في الاعاجم يعمل على استمرار ملكها ووقايته ويعود عليها من استقلال بعض الملوك في أطرافها انهم يمنعون عنها عدوها من قبل أن يصل اليها فتحفظ خزائنها من انفاق المال . ورجالها من تغرير القتال . وتبيت فى شؤنها آمنة بحراستهم . اللهم الا أن يكون فيهم من هو أشد سلطانا . واكثر جنودا وأعوانا . وهذا بعيد عن أن يكون فى دولة متجزئة من الخلافة ولو انضمت جميعا الى قيادة واحدة لما ناوت الرشيد وانتزعت الخلافة منه وهو بموضعه من عظم الشان وضخامة الملك وله الهند والسند وأرمينية والكرمان ومصر والشام ونجد وتهامة واليمن والحجاز وفارس وخراسان فهذا معظم الدنيا المعمورة وأوفر بلادها ثروة وأطيبها تربة وغلة حتى لقد يجبي لهُ من اقليم واحد من هذه الاقاليم كمصر مثلا ما لا يجبي الى غيره من سائر أقاليم الاطراف .

فكان ملوكنا البرامكة أعزهم الله يرون أن قيام الدولة العلويّة فى

---

(١) المحاضرة ٢*٨

المغرب داع الى صلاح الرشيد وأنها تكون مجنًا للخلافة بما تجاهد لهافى ردّ الأمم النصرانية . وكان جعفر يقول لى انه لو لم يكن للرشيد فى هذه البلاد النائية الا قضاة حاكمون كما كان لملوك بنى أمية فى الاندلس لما ظهروا على الفرنجة والجند بين أيديهم قليل ولو أنه ائتمنهم لاستنفدوا ماله أو استنصحهم لكانوا عليه لا له فيثبت بعد ذلك أن حبه وآل بيته للعلويين يعود بالمنفعة على الرشيد والمصلحة على جميع المسلمين لانه اذا قامت دولتهم فى المغرب كان ذلك أثبت لبقاء الاندلس فى يد المسلمين (١) وربما أعاد الله سبحانه على يدهم ما استعاده الافرنج من البلدان التى فتحها طارق بن زياد والله يبيد أمما ويحيي أمما لا اله الا هو ذو الملك والسلطان.

عمران بيت المال

لم يبق علينا لبيان عظم دولة الرشيد الا أن نذكر قدر المال الذى يحمل اليه من جميع الممالك والبلدان فانه لم يُسمع عن دخل دولة من دول الخلفاء انه تجاوز القدر الذى يحمل الى بيت المال فى زمانه مع أنه يسلك مع الملوك مسلك الحلم ولا يضرب عليهم الخراج الا على قدر ميسرتهم. وان كان قد زال عنه القليل مما يحمل اليه من المغرب فقد استعاض عنه بالكثير مما فرض على بلدان النصرانية التى غلب عليها الروم من الاموال التى لا يصح أخذها (٢) من المسلمين كالخراج والعشور التى تؤخذ على

(١) نذكر هنا انه قامت في المغرب بعد ذلك الوقت الدول العظيمة التى فتحت الفتوح وأعزت الاسلام (٢) ابن جبير ٧٦

جميع غلاتهــم ومحاصيلهم (١) فقد بلغ المحمول اليه فى كل سنة نحواً من خمسمائة ألف ألف درهم من الفضة وعشرة آلاف ألف دينار من الذهب « ما عدا الغلال والمصنوعات كما ستراه » فحمل الناس كثرة هذا المحمول على أن يعدّلوه بالوزن لا بالعدد فيقولون انه يبلغ ستة أو سبعة آلاف قنطار من الذهب (٢) الا ان ذلك غلو وافراط فى تعظيم الشيء فمن المعروف ان القنطار انما هو زنة ثلاثين ألف دينار ويبعد أن يوجد فى العالم ألفا ألف ألف دينار من الذهب ولو جاز وجودها لما صح أن تحمل كلها الى بيت المال ولا يبقى منها شيء فى أيدى الناس لمعاملاتهم . وتقديرهم هذا وان كان بعيدا عن الصحة فلا أقل من كونه يدل على الكثرة وأن المال يحمل الى بغداد بالصُّبَر (٣) لوفور الخير .

وعندى أن ما يحمل اليوم الى بيت المال لم يكن يحمل نصفه الى خزائن الامويين ولا الخلفاء الاولين من بنى العباس ولا يبعد أن عمالهم كانوا يحجرون من مال الجزية قدرا لا يحملونه اليهم لاختلاف تقدير الجزية على أهل الذمة بين ثمانية وأربعين درهما تؤخذ من ذوى اليسار وأربعة وعشرين من الصنّاع وأهل الحرف واثنى عشر درهما من ذوى الفاقة والاعسار (٤) دون أن يكون فى الدواوين عمل لذلك . ولما قام وزيرنا (٥) أيده الله بأعباء الدولة فرض على العمال ما هو مفروض على

(١) الزرقانى (٢) مقدمة ابن خلدون (٣) القزوينى ١٠ (٤) المقريزى والمستطرف ١*١٣٨ (٥) هو جعفر بن يحيي البرمكىّ

ناحيتهم من جزية وخراج وغير ذلك حتى صار يقرر الدخل فى السجل من قبل أن يحصل في يديه فلم يبق سبيل الى نقص الاموال الا فيما يؤخذ من المكوس على السلع وما يتصرف به العمال من نفقات (١) ولايأتهم وليس هو الا القليل فى جانب الكثير من دخل الدولة .

وقد يطرأ على تقدير هذه الاموال شئ من الزيادة والنقصان بتنقل البلاد من حال الى حال . وربما غلبت عليها الزيادة لوفور الخير والعدل بها حالّ .فقد كان حاصل السواد وهو أرض (٢) ما بين الموصل وعبادان فى الطول وما بين عذيب بالقادسية الى حلوان في العرض عشرين ألف ألف درهم فى زمن الحجاج (٣) لكثرة الظلم فلما ارتفع عنها الجور ساد فيها العمران (٤) حتى صار يحمل منها اليوم نحو ستين ألف ألف درهم. وكان حاصل فارس واصبهان وكرمان في عهد الامويين ثلاثين ألف ألف درهم فلما انتظمت فيها الاحكام وانتشر فيها العدل حمل منها البرامكة خمسة وأربعين ألف ألف درهم . وكذلك عهد الخلفاء بخراج مصر « بعدما جباها عمرو ابن العاص فى زمن الخير اثنى عشر ألف ألف دينار(٥) » ألف ألف وتسعمائة ألف دينار وذلك لاختلال أمرها وسوء سياسة العمال فلما تولاها البرامكة جبوا منها للرشيد ثلاثة آلاف ألف دينار وأربعمائة ألف دينار(٦) واستمرت على ذلك الى هذا اليوم .

---

(١) ذكره المقريزى ١ * ٩٧ (٢) الماوردى ١٩٩ (٣) المستطرف وابن خرذاذبه ٣٦ (٤) المستطرف ١ * ١٢٥ (٥) المقريزى ١ * ٩٨

ويحمل الى بغداد غير هذه الاموال المقررة والغلال الكافية لارزاق الجند وعلف خيلهم قدر من المصنوعات والمحاصيل التى تكون في البلدان فيحمل من السواد مائتا حلة من الحلل النجرانية ومائتان وأربعون رطلا من طين الختم الاحمر الذى يطبع به على طرف الرسائل السلطانية ويحمل من الاهواز ثلاثون ألف رطل من السكر . ومن فارس ثلاثون ألف قارورة من ماء الورد ومن اصبهان عشرون ألف رطل من الزبيب الاسود . ومن مكران خمسمائة ثوب من المتاع اليمانى وعشرون ألف رطل من التمر ومائة رطل من الكمون . ومن السند مائة وخمسون رطلا من العود الهندى . ومن سجستان عشرون ألف رطل من السكر وثلاثمائة ثوب من الثياب المعنية . ومن خراسان ألفا نقرة من نقار الفضة وأربعة آلاف برذون وألف رأس من الرقيق يتخذون خدما فى دور الخلافة ويكون لامراء بنى هاشم وغيرهم من عظماء الدولة نصيب وافر منهم وعشرون ألف ثوب من المتاع وثلاثون ألف رطل من الاهاليلج وألف وثلاثمائة قطعة من صفائح الحديد . ومن جرجان ألف شقة من الابريسم . ومن قومس خمسمائة نقرة من نقار الفضة . ومن طبرستان والرويان ونهاوند ستمائة قطعة من الفرش الطبرى ومائتا كسوة وخمسمائة ثوب وثلاثمائة ألف منديل وثلاثمائة جام . ومن الرىّ وقزوين عشرون ألف رطل من العسل . ومن همذان ألف رطل من رُبّ الرمان واثنا عشر ألف رطل من التين ومن الموصل وما اليها وأعمال نينوى عشرون ألف رطل من العسل الابيض .

ومن الجزيرة وأعمال الفرات ألف رأس من الرقيق واثنا عشر ألف زق من العسل وعشر بزاة مربّاة لصيد الملوك وعشرون كسوة من الحرير للبيت الحرام . ومن أرمينية قدر من البسط وخمسمائة وثلاثون رطلا من الرقم ومائتا بغل وعشرة آلاف رطل من الصونج ومن قنسرين والجند ألف حمل من الزيت . ومن جند فلسطين ودمشق قدر كبير من الفاكهة اليابسة وثلاثمائة ألف رطل من الزيت . ومن افريقية مائة وعشرون بساطا ومن اليمن شيء كثير من المتاع . وكذلك من نجد وعمان واليمامة والحجاز وكنكر وحلوان ومهرجان وما سبذان وشهرزور وأذربيجان ومصر وجند الاردن يحمل كثير من الحبوب والمصنوعات التي تصرف على الجند وتنفق فى مصالح الدولة (١)

وهذا المال كله يتصرف فيه الخليفة دون أن يعارضه فيه أحد من أرباب الدولة الا فيما يعرضه عليه البرامكة من دفاتر الدواوين للموازنة بين دخل الدولة وخرجها . وقد تجمع كثيره في بيت المال منذ صدر هذه الدولة حتى أن أبا جعفر غفر الله له لما أدركه الموت قال للمهدى في وصيته انه خلف له من الاموال ما ان كسر عليه الخراج عشر سنين كفاه لارزاق الجند ومصلحة البعوث وغير ذلك(٢) ولقد أخبرني يحيي أعزه الله عن خالد أبيه وكان قائما على بيت ماله أنه بلغ ماخلف من المال أربعة عشر ألف

(١) مأخوذ من مقدمة ابن خلدون ٢١٤ وكتاب قدامة ورسالة ابن خرذاذبه

(٢) ابن الاثير ٦*٧

ألف دينار وستمائة ألف ألف درهـم (١) فلولم يكن الا هـذا فى خزائن الرشيد (٢) لـكفى دولته فخرا على دول الخلفاء . وبهاء ليس مثله من بهاء . فأما الفخر فيكون لها من حيث المنعة لانه ما دام بيت مالها عامرا فلا تزال ممتنعة على العدوّ وأما البهاء فيأتيها من المال على الوجوه التى نستغنى عن بيانها لوجوده طبيعة فى الملوك المترفين الذين يتوسعون من نعيم العيش الى تزيين دولهم برواج الادب كما رأينا من اقبال الرشيد على تقريب العلماء اليه وانتفاعه بعلمهم فى دينه ودنياه .

مجالس الغناء بدار الرشيد

كان الرشيد يتخذ للعلماء والندماء والشعراء مجالس مناظرة وعرض أدب وصناعة كما كان يصنع أبوه رحمه الله ثم يجيزهم على موضعهم من العلم بما لا يكاد يُحصى من الجوائز وان الذى كنت أرتاح لى شهوده من المجالس بداره اذا حضر وقته هو مجلس الغناء على أنى لم أره فى السنين الماضية أحفل منه فى هذه السنة وكان الرشيد قد نشط له وقام بلبسته التى يلبسها فى الصيف وهى غلالة (٣) رقيقة يتوشح عليها بازار رشيدى عريض العلم مضرج . وكان بين يديه جامات ذهب فيها دنانير (٤) منثورة يجيز بها من يطيب منه المسموع وتصلح عندهُ الصنيعة ومن حوله جماعة من بنى هاشم والفضل وجعفر من البرامكة أعزهم الله وهما جالسان بجانبه على سرير الخلافة .

(١) المسعودى ٢*١٩٤ (٢) ذكر ابن الاثير ٦*٧٦ انه كان في بيت المال لماتوفي الرشيد تسعمائة ألف ألف ونيف (٣) ذكرها الاغانى ٥*٣٣ (٤) الاغانى ٩*٥٨

ولما اجتمع المغنون جلسوا فى صفوفهم بناحيتين من المجلس للمناظرة (١) بينهم على الغناء . فمنهم المتعصبون للغناء القديم وهم جماعة اسحق النديم . ومنهم المقصرون عن أدائه والمغيرون له وهم جماعة ابراهيم بن المهدى وكان سبب هذا النزاع بين ابراهيم واسحق أن ابراهيم تغنى بلحن قديم أضاع صناعته فرد عليه اسحق وعاب عليه تغييره فقال أنا ملك وابن ملك أغنى كما اشتهى وعلى ما ألتذ فتخالفا على ذلك فانضم الى غرض ابراهيم اسماعيل بن جامع وفليح بن العوراء ويحيى المكى وعمرو بن نابة وشارية وزيق وبنو حمدون وحسين بن محرز والهذلى وغيرهم وبقى مع الموصلى المترفعون عن الاغراض والآخذون بمحاسن الغناء من حيث طرائق الصناعة مثل مخارق وعلوية وعريب وبذل وسليم ابن سلام ومحمد الرف وزبير بن دحمان وأحمد بن يحيى المكى ومحمد بن حمزة ابن الوصيف وغيرهم (٢) وكان قوم ابراهيم بن المهدى قبل وزارة جعفر رفع الله قدره أكثر عددا من حزب اسحق لأنهم كانوا يتقربون بكفالته الى الرشيد فلما أخذ البرامكة بناصر اسحق وجهروا بتفضيله رجع الى غرضه كثير من المجيدين ولم يزل المغنون فى أهل البيوتات مثل البرامكة وآل هاشم وآل الربيع يتمسكون بالغناء القديم ويحملونه كما يسمعونه فلم يكن من مفسد له الا الذين تقدمت أسماؤهم وجماعة من أولاد العباسيين مثل ابراهيم وأخيه يعقوب واختهما علية وعبد الله بن الهادى وعيسى بن

(١) ذكر هذه المناظرة الاغانى ٥*٢٦ بين الموصلى وابن جامع (٢) من كتاب الاغانى

الرشيد وغيرهم(١) ممن يترفعون عن ان يقيد غناؤهم بالمحفوظ من أصوات المتقدمين وان كانوا بموضع جليل من هذه الصناعة فهـذا ابراهيم ليس في الناس أعلم منه بالنغم والوتر والايقاعات ولا أطبع على الغناء . ولقـد رأيتـه اذا غنى بمجلس الرشيد قرب كل من في دور الخلافة من أقرب موضع يمكنهم أن يسمعوه لحسن صوته وقليل ما كانوا يسمعونه اذ كان لايغنى الا على حال تصوّب عن الغناء وترفع الا أن يدعوه اليه الرشيد في خـلوة أو اذا كان عنده جعفر فيقول له أحب ان تشرف جعفرا (٢) بان تغنيه صوتا فيغنيّ . ولقد كنت ذات يوم في خدمة أميرنا أعزه الله فغنى ابراهيم على أبيات لمروان بن أبي حفصة يقول فيها (٣)

طرقتك زائرة فحيّ خيالها   زهراء تخلط بالجمال دلالها

---

(١) انظر أخبار من غنّى من أولاد الخلفاء في الكتاب التاسع من الاغانى

(٢) كذا في كتاب الاغانى وربما قال الخليفة هذه الكلمات تحببا لاخيه وهى « لاتنقّص من تدر جعفر شيأ فقد ذكر » صاحب العقد ١*١٠٠ أن منزلته كانت بكذا مقدارا حتى اذا دعى ابراهيم بن المهدي لجعفر قال له ابراهيم جعاني الله فداءك انما أسعد بمساعدتك وآنس بمخالاتك وأعاد القصة نفسها في الكتاب الثالث صحيفة ٣٤ وذكر في الكتاب الاول صحيفة ١٦٧ انه لما زار جعفر سليمان صاحب بيت الحكومة قبل سليمان يده وقال له بأبي انت مادعاك الى أن تحمل عبدك هذه المنة التى لاأقوم بشـكرها ولا أقدر أن أكافئ عليها . وذكر صاحب مروج الذهب ٢*٢٢٧ عن مسايرة الرشيد لجعفر انه كان اذا انصرف من مجلسه خرج الرشيد حتى يركب مشيعاً له

(٣) الاغانى ٩*٧٢ والاتليدى ٢٨٧

هل تطمسون من السماء نجومها ... بأكفكم أو تسترون هلالها
أو تدفعون مقالة من ربكم ... جبريل بلغها النبي فقالها

فلما بلغ قوله جبريل بلغها النبي فقالها هز حلقه فيه ورجعه ترجيعا زلزلت الارض منه فما أظن أحدا يقدر على أداء الاصوات مثله الا اسحق المخالف له على هواه والمقرّ بماله من جميل الصناعة لولا انه أفسد الغناء القديم وجعل للناس طريقا الى الجسارة على تغييره .

وأول من غنى فى ذلك اليوم ابراهيم أبو اسحق وكان ذلك باشارة مسرور العبد اذ كان أمر المغنين مفوضاً اليه (١) واذا أحب الرشيد أن يسمع صوتا (٢) أشار اليه فأشار هو الى المغنين فغنى ابراهيم .

ولى كبد مقروحة من يبيعنى ... به كبدا ليست بذات قروح
أباها علىّ الناس لا يشترونها ... ومن يشترى ذا علة بصحيح

واللحن فيه ماخورى (٣) لا يعرفه أحد مثله . ثم غنى على أبيات قالها فى بعض قرى الرىّ .

أنا فى الرىّ مقيم ... في قرى الرىّ أهيم
ربما نبهنى الاخوان والليل بهيم
حين غارت وتدلت ... فى مهاويها النجوم
للتى تعصر لما ... أينعت منها الكروم

---

(١) الاغانى ٦*٧٤ والمسعودي ٢*٢١٩ (٢) العقد الفريد ٣*٢٤٢
(٣) الاغانى ٥*٣٦

ولحنها من الثقيل الاول باطلاق الوتر فى مجرى البنصر (١) ثم غنى .

ألا ياسلمى يادارمىّ على البلا ولا زال منهلا بجرعائك القطر

الشعر لذى الرمة والغناء له بلحن خفيف الثقيل الثانى (٢). ثم غنى

وقفت على ربع لمية ناقتى فمازلت أبكى عنده وأخاطبه

وأسقيه حتى كاد مما أبثه تكلمنى أحجاره وملاعبه

الشعر لذى الرمة أيضاً والغناء ثانى ثقيل مطلق فى مجرى البنصر (٣) فأجاد ابراهيم حتى كأنّ كل مافى المجلس يجيبه ويردد الصوت معه لحسن غنائه فطرب الرشيد حتى كان يقوم ويقعد ولا سيما من اللحنين اللذين سمعهما فى شعر ذى الرمة لانه كان يحفظ أبياته كلها فى صباه فكان اذا غنى فيها صوت أعجبه أكثر من جميع الاصوات التى يصنعها المغنون فيما لا يحفظه من الشعر ففطن ابراهيم لذلك وطلب اليه أن يقطعه شعر ذى الرمة ويحظر على غيره من المغنين ان يداخلوه فيه فأجابه الى ذلك فأصاب ابراهيم عليه من الجوائز مايتجاوز التقدير (٤)

ثم أشار مسرور الى اسماعيل بن جامع القرشى وهومن المتعصبين على اسحق فغنى .

لم تمش ميلا ولم تركب على قتب ولم تر الشمس الادونها الكلل

تمشى الهوينا كأن الريح ترجعها مشى اليعافير فى جيئاتها الوهل

---

(١) الاغانى ٥*٢ (٢) الاغانى ٥*٣٩ (٣) الاغانى ١٦*١١٦ (٤) الاغانى فى الكتاب الخامس

الشعر للاعشى (١) والغناء الاول فيه لابن سريج بلحن الرمل بالبنصر (٢) ثم غنى بلحن خفيف الثقيل الاول بالوسطى (٣) على أبيات عمر بن أبي ربيعة .

كأنّ أحور من غزلان ذى بقر   أعارها شبه العينين والجيدا
أجرى على موعدمنها فتخلفنى   فما أملُّ ولا توفي المواعيدا
كأنني حين أمسى لاتكلمنى   ذو بغية يبتغى ماليس موجودا

ثم غنى بلحن الهزج بالوسطى (٤) على هذين البيتين .

شكونا الى أحبابنا طول ليلنا   فقالوا لنا ما أقصر الليل عندنا
وذاك لان النوم يغشى عيونهم   سراعا وما يغشى لنا النوم أعينا

فأجاد اجادة يرتاح اليها أهل الطرب (٥) ممن يحب الخلاعة فى الاصوات فهو يميل الى ظرف الغناء والنغم الكثير العمل (٦) كما يميل الى ظرف المعاشرة والتفنن بخلاعة الملبس (٧)

ثم أشار صاحب الستارة الى اسحق بن ابراهيم صاحب هذا الفن فجاءه غلام من غلمان الدار بعود هندى (٨) كان مودعا له فى خزانة المجلس (٩) قد أصلحت أوتاره قبل ذلك الوقت لان العيدان لا تصلح

---

(١) العقد الفريد ٣*١٧٣ (٢) الاغانى ٦*٨٢ (٣) الاغانى ٦*٨٢ (٤) الاغانى ٦*٧٧ و٨٢ (٥) المستطرف ٢*١٨٨ والاغانى ٤*٩٨ و٦*٦٥ (٦) ذكر ابن جامع هذا صاحب العقد الفريد ٣*٢٣٩ وقال انه أحلى المغنين نغمة (٧) الاغانى ٦*٩٦ (٨) ذكر العود الهنديّ الاتليدى ١٣٠ (٩) الاغانى ٥*١٠٩

فى مجالس الملوك (١) فضرب عليه نغمات صاح لاجلها القوم جميعا ثم غنى

قل لمن صدّ عاتبا ونأى عنك جانبا
قد بلغت الذى أردت وان كنت لاعبا

الشعر والغناء له ولحنه من الثقيل الثانى بالسبابة فى مجرى الوسطى (٢) ثم غنى بلحن وضعه معبد فى أبيات لابى صخر الهذلى . (٣) وهى

عجبت لسعى الدهر بينى وبينها فلما انقضى مابيننا سكن الدهر
فياحبها زدنى جوى كل ليلة ويا سلوة الايام موعدك الحشر
وانى لتعروني لذكراك هزة كما انتفض العصفور بلّله القطر
هجرتك حتى قيل لايعرف الهوى وزرتك حتى قيل ليس له صبر

فطرب الرشيد وقال له زدنا يا أبا صفوان من غنائك وأبو صفوان كنية له يلقبهُ بها عند التحبب (٤) فغنى بهذين البيتين .

الطلول الدوارس فارقتها الأوانس
أوحشت بعد أهلها فهى قفر بسابس

غناء ليس أحسن منه موقعا فى القلوب وكنت في ذلك الوقت جالسا بمقربة من أبيه فقال لولم يكن من بدائع اسحق غير هذا لكفى . الطلول الدوارس كلمتان وفارقتها الاوانس كلمتان أيضا وقد غنى فيهما استهلالا وبسيطا وصاح وسجع ورجع النغمة واستوفى ذلك كله فى أربع كلمات

(١) الاغانى ٥*٥٨ (٢) الاغانى ٥*٧٥ و١٢٦ و٩*٥٤و٥٧ والشريشى ١*٣١٢(٣) الاغانى ٥*١٦ والوطواط ٩٠ والاتليدي ١٤٣ (٤) الاغانى ٥*٥٢

وأتى بالباقى مثله . فمن شاء فليفعل مثل هذا أو ليقاربه. ثم قال والله مافى زماننا فوق ابن سريج والغريض ومعبد . ولو عاشوا حتى رأوه لعرفوا فضله واعترفوا له اه (١) والغناء لاسحق خفيف ثقيل بالبنصر . ثم وجد فى نفس الرشيد اقبالا عليه وطربا من صناعته فغنى لحنا صنعه في شعر للمنخل اليشكرى يقوله فى بعض بنات الملوك المناذرة (٢)

ولقد دخلت على الفتا ة الخدر فى اليوم المطير
فدفعتها فتدافعت مشى القطاة الى الغدير
فلثمتها فتنفست كتنفس الظبي البهير

فأجاد في الغناء الى ما وراء الغاية وقال الرشيد وقد كاد يخرج من ثيابه لشدة الطرب « والله ما الغناء الذى يلين العريكة ويفسح فى الرأى والصدر ويحدث فى النفس طربا الا غناء هذا الرجل » .

ثم أشير الى فليح بن أبى العوراء فغنى على لحن صنعه فى بيتين لعدى ابن الرقاع العاملىّ (٣)

وكأنها بين النساء أعارها عينيه أحور من جآذر جاسم
وسنان أقعده النعاس فرنقت فى عينه سنة وليس بنائم

ثم أتبعه بلحن من الثقيل الاول باطلاق الوتر فى مجرى البنصر صنعه (٤) فى بيتين للمؤمل من شعراء الدولة الاموية .

---

(١) الاغانى ٥*٨٧و١٢٨ (٢) الاغانى ٩*١٦٦و١٨*١٥٢ (٣) المستطرف والشربشى ٢*٢٨٠ (٤) الاغانى ١٩*١٤٧

ألا يا ظبية البلد ... برانى طول ذا الكمد
فردى يا معذبتى ... فؤادى أو خذى جسدى (١)

وهو يعارض فيه اللحن الذى صنعه أبو اسحق فأجاد ولكنه قصر عن أن ينحو نحو صناعة الموصلى وان كان قد مضى فى بعض كتبى السالفة ما يشهد لموضعه الجليل من هذه الصناعة (٢) الا انه قد وجد اليوم من برعه وبرع الناس كلهم ٣) في طيب المسموع ومحاسن الصنعة .

ثم أشير الى مخارق (٤) من حزب اسحق وهو طيب الصوت يعد هو وابراهيم بن المهدى وابن جامع وعمر بن أبى الكنات من أحسن الناس صوتا (٥) فغنى بصوت رخيم .

يا ربع سلمى لقد هيجت لى طربا ... زدت الفؤاد على علاته وصبا

فكنت أحسب أن الدنيا قد صارت أحزانا (٦) لما ألم فى غنائه من ابراز معنى البيت وما وراءه من توجع العاشقين ثم غنى .

انى استحيتك أن أفوه بحاجتى ... فاذا قرأت صحيفتى فتفهمى (٧)
وعليك عهد الله أن أخبرته ... أحدا وان أظهرته بتكلم

الشعر لابن هرمة وأصل البيت الثانى قوله .

---

(١) فى قول الشيخ ابن الفارض

أخذتم فؤادى وهو بعضى فما الذى ... يضركم لو كان عندكم الكل

انتفات الى هذا البيت (٢) ذكر مثل هذا الاغانى ٤*٩٨ و٩٩ (٣) الاغانى وابن خلكان والاتليدي وحلبة الكميت (٤) ضبطه ابن خلكان ١*١١ بضم الميم (٥) الاغانى ٩*٣٥ (٦) الاغانى٢*١٨٩ (٧) الشعر مذكور في الحصرى ٣*١٨٣

وعليك عهد الله ان أنبأته　　أهل السياسة ان فعلت وان لم

والغناء لعبادل من مغني الحجاز ثم غنى .

فبت فيما شئت من نعمة　　يمنحنيها نحرها والفم

حتى اذا الصبح بدا ضوءه　　وغارت الجوزاء والمرزم

خرجت والوطىء خفي كما　　ينساب من مكمنه الارقم

الشعر لاسمعيل بن يسار والغناء له بلحن الرمل (١)

ثم غنى يحيي المكيّ بلحن صنعه فى بيتين لمحمد بن أمية من كتّاب ابراهيم بن المهدى (٢)

أحبك حبا لو يفض يسيره　　على الناس مات الناس من شدة الحب

وأعلم أنى بعد ذاك مقصر　　لانك فى أعلى المراتب من قلبي

ثم غنى بلحن خفيف الرمل (٣)

طرقتك زينب والمزار بعيد　　بمنى ونحن معرّسون هجود

فكانما طرقت بريا روضة　　أنف تسحسح مزنها وتجود

فكان لحنه كثير العمل حلو النغم صحيح القسمة محكم الصنعة ولولا ذلك ماأطرب الناس غناؤه وهو شيخ مسنّ

ثم غنى سليم بن سلام من جماعة اسحق (٤)

أفاطم مهلا بعض هذا التدلل　　وان كنت قد أزمعت صرمى فاجملى

---

(١) الاغانى ٤*١٢٣ (٢) الاغانى ١١*٢٤ (٣) الاغانى ٦*٢١ (٤) ذكر المسعودي ٢*٢٩٦ غناء بهذين البيتين

أغرك مني أن حبك قاتلي ... وأنك مهما تأمري القلب يفعلِ

ثم غنى (١)

أتيتك عائذاً بك منـ ... ـك لما ضاقت الحيل

وصيرني هواك وبي ... لحيني يضرب المثل

فان سلمت لكم نفسي ... فما لاقيته جلل

وان قتل الهوى رجلا ... فاني ذلك الرجل

الشعر لمحمد بن أبي محمد اليزيدي ويكنى أبا عبد الله والغناء له ثقيل أول بالبنصر الى أن قال .

وقفت على ربع لسلمى وعبرتي ... ترقرق في العينين ثم تسيل

أسائل ربعا قد تعفَّت رسومه ... عليه لاصناف الرياح ذُيول

واللحن له هزج خفيف بالسبابة (٢) فطرب الرشيد وقال لو كنت حكم الوادي لمازدت على هذا الاحسان في هزجك (٣)

ثم غنى حسين بن محرز بلحن صنعه يحيي (٤) المقدم ذكره في هذين البيتين .

هل هيجتك مغاني الحيِّ والدور ... فاشتقت ان الغريب الدار معذور

وهل يحل بنا اذ عيشنا أنق ... بيض أو انس أمثال الدمى حور

ثم غنى .

خمس دسسن اليّ في لطف ... حور العيون نواعم زهر

---

(١) الاغانى ١٨*٨٣ (٢) الاغانى ٦*١٢ (٣) الاغانى ٦*١٣ (٤) الاغانى ٦*١٩

فطرقتهن مع الجريّ وقد نام الرقيب وحلق النسر

الشعر للاحوص والغناء لمعبد رمل بالسبابة في مجرى البنصر (١) فاجاد لكنه لم تظهر له صناعة يسمو بها الى مقامات المتقدمين فى الغناء وكذلك جميع من غنى بعده في ذلك اليوم قد ذهبت طلاوة أصواتهم وهم بين ابراهيم واسحق ومخارق وابن جامع وأمثالهم من الجيدين الا الزبير بن دحمان فاني وجدت لغنائه موقعا حسنا فى النفوس وكنت أرى الرشيد يتمايل طربا من غنائه اذ غناه .

رضيت الهوى اذحل بي متخيراً نديما وما غيرى له من ينادمه

أعاطيه كأس الصبر بيني وبينه يقاسمنيها مرة وأقاسمه

الشعر لبشار بن برد والغناء له هزج بالوسطى (٢) ثم غنى .

أسرى بخالدة الخيال وما أرى شيئا ألذ من الخيال الطارق (٣)

أهواك فوق هوى النفوس ولم يزل مذ بنت قلبي كالجناح الخافق (٤)

الشعر لجرير والغناء لابن عائشة رمل بالوسطى ثم غنى

حييا خولة منى بالسلام درة البحر ومصباح الظلام

لا يكن وعدك برقا خلبا كاذبا يلمع فى عرض الغمام

واذكرى الوعد الذى واعدتنا ليلة النصف من الشهر الحرام

(١) الاغانى ٦: ٩٢ (٢) الاغانى ١٧*٧٣ (٣) العقد الفريد ٣*٢٣٦

الاغانى ٩*٥٠

الشعر لاعشى همذان والغناء لاحمد النصيبيّ ولحنه من القدر الاوسط من الثقيل الاول باطلاق الوتر فى مجرى البنصر وعروضه من الرمل (١) فأجاد فى هـذا الصوت الاجادة التامة حتى ليس في المغنين من يقاربه بلحن الثقيل وقد قال فيه بعض الظرفاء (٢)

اذا ماهزّج الواديّ　　أو ثقّـل دحمان
سمعت الشدو من هذا　　ومن هذا بميزان
فهـذا سـيد الانس　　وهـذا سـيد الجان

ثم تعاقب المغنون على طرح الاصوات فى نوباتهم فلم استحسن منها الا صوتا لعبثر صنعه في بيتين لابن الدمينة (٣)

وأذكر أيام الحمى ثم أنثنى　　على كبدى من خشية أن تصدعا
وليس عشيات الحمى براجع　　عليك ولكن خل عينيك تدمعا

(٤) ولحنا واحدا صنعه (٥) في شعر وضاح اليمن .

ان الوشاة اذا أتو　　ك تنصحوونهوك عن
انى تهيجـنى الـيـ　　ك حمامتان على فنن
فاسقى خليلك من شرا　　ب لم يكدره الدرن
الريح ريح سفرجل　　والطعم طعم سلاف دن

حتى اذا ظن فى نفسه اقتدارا على الصناعة وأراد أن يعارض اسحق باللحن

---

(١) الاغانى ٥*١٤٦ (٢) الاغانى ٥*١٤١ (٣) الاغانى (٤) العقد الفريد ٣*٢٤٠

الذى صنعه في شعر العباس ابن الاحنف وهو (١)

لا جزى الله دمع عيني خيرا　　وجزى الله كل خير لسانى

كنت مثل الكتاب أخفاه طىّ　　فاستدلوا عليه بالعنوان

سقط فى يده وقصر دون بلوغ المرام . وكان فى جملة المغنين رجل أعمى يقال له أبو زكار وهو شديد التعصب للغناء القديم وكان آخر من غنى فى ذلك اليوم بدأ بلحن صنعه فى هذا البيت .

يا راكب العيس التى　　وفدت الى البلد الحرام

وثنى بآخر لابراهيم الموصلى صنعه فى بيتين لعمر بن أبى ربيعة (٢) وهما قوله

ليت هندا أنجزتنا ما تعد　　وشفت أنفسنا مما نجد

واستبدّت مرة واحدة　　انما العاجز من لا يستبد

فلم تظهر له بهما صناعة الى أن تغنى بهذه الابيات

يا أيها القلب المطيع الهوى　　أنّى اعتراك الطرب النازح

تذكر جملا فاذا ما نأت　　طار شعاعا قلبك الطامح

هلا تناهيت وكنت امرأ　　يزجرك المرشد والناصح

مالك لا تترك جهل الصبا　　وقد علاك الشمط الواضح

ولحنها ثانى ثقيل بالسبابة في مجرى الوسطى (٣) فأحسن كل الاحسان

---

(١) ٨*١٦ (٢) الاغانى ٦*١٥٠ وذكر ابن خلدون فى المقدمة أنه غنى الرشيد بهذين البيتين ليوغر صدره على البرامكة ٠وقد أنكر ذلك ١٥ (٣) الاغانى ولكن لم يذكر لابى زكار صناعة بها

في تأدية النغم كانه لا تظهر صـناعته الا بغناء ما فى معناه زجر وتذ كير من الابيات (١)

ولما تولى النهار أومأ الرشيد الى المغنين بأن يحلوا صفوفهم ثم فرق فيهم الجوائز بقـدر أهليتهم من الصـناعة فمن مصيب ألف دينار ومن مصيب خمسمائة ومن مصيب دون ذلك . ثم فرق فيمن يتخلل الغـناء بضرب المعـازف دون مافرقـه على المغنـين من المـال فأصاب الجوائز السنية أربعة منهم وهم منصور زلزل (٢) وكان يضرب على عود من العيدان الشبابيط التى صنعها معارضة لعيدان الفرس وهى عجب من العجب (٣) وكأنمـا تزلزل المجالس بحسن نغمها (٤) وبرصوم الزامر (٥) وهو أحسن الناس زمرا بناى كان اذا زمر فيه يحدث النغم الذى يريده مع صحة المقاطيع والتقسيمات حتى كأنه ينطق بين يديه بلسان آدمىّ .

---

(١) انما نسبت لابى زكار صناعة النغم المحزن لانى طالما ذكرت البيتين اللذين غنى بهما جعفراً قبل أن ينكب به الرشيد وهما قوله

فلاتبعدفكل فتى سيأتى عليه الموت يطرق أويغادي

وكل ذخيرة لابد يوما وان كرمت تصير الى نفاد

فلم تمثل لى صناعته الا بمثل ما ذكرته له بلسان الراوية (٢) ذكر صاحب العـقد ٣*٢٣٩ انه مغن من الطبقه الثانيـة ولـكنه قال بعد ذلك انه كان أضرب الناس للوتر (٣) الاغانى ٥*٢٤ (٤) ابن خلكان ١*١١ (٥) ذكره الاغانى ٦*١٢ فى غير موضع والعقد الفريد ٣*٢٩ ومابعده وقال أنه كان مغنيا

وجعفر الطبال وهو يحسن التوقيع على الطبل (١) وكان يضرب بالكوبة (٢) فى ذلك اليوم . ورابعهم الفريض وهو مشهور بضرب العود والتوقيع بالقضيب والنقر على الدف (٣) ولما انصرف المغنون لم يبقَ في مجلس الخليفة الا اسحق النديم وجعفر والفضل من البرامكة وقد طلع علينا من هواء دجلة في ذلك الوقت نسيم طابت النفوس به انتعاشا بعد هاجرة أصابنا بالنهار حرها حتى اذا رفعت أستار الطيقان التى تطل على حدائق القصر وقعت فى موضعنا شمس الغروب وهى ترسل علينا شعاعاً متناثرا كالذهب يهتز فى نواحى المجلس باهتزاز الغصن الرطيب تحت خطرات النسيم حتى كان القصر يرقص بنا سروراً بأهله وعزة بمقامهم الرفيع فوقع بهاء تلك الليلة من النفوس أحسن موقع وأحدث فى نفس الرشيد نشاطاً الى الشراب فأمر الحاجب أن يأخذ علينا الباب وتناوب اسحق مع جواريه الغناء الذى لا يتمتع بسماعه أحد من الانس غير الملوك

هذا ما أذكره لك عن المغنين وليس هو الا المحفوظ فى ذهنى من غنائهم مجردا عن بيان طرائقهم فى الاصوات . وصناعتهم فى وضع النغمات لانى لو أخذت فى ذلك لما وعته الصحف الكثيرة الواسعة (٤) وقد وقع تدوين هذه الرسالة فى غرة المحرم من السنة الخامسة

---

(١) الاغانى ١٤*٥٤ (٢) ذكرها القناوي ٢١ (٣) الاغانى ٢*١٢٩ (٤) راجع كتاب الاغانى ان شئت فيها مطولا

والثمانين بعد المائة من الهجرة النبوية المشرفة على صاحبها أشرف الصلاة وأزكى التحية .

﴿ الرسالة السابعة ﴾

(في ذكر آداب العرب)

هـذه رسالة اليك أفردها لذكر آداب العرب وعلومهم فقد طالما شهدت مجالسهم بدار الرشيد في محاورة فقهاء . وحلق علماء . ومنادمة أدباء . ومناظرة جدليين . ومراواة أخباريين ونوب مغنين(١) وذلك من الحظوظ التى لا يتفق مثلها لغيرى من المتصلين بالملوك لانى كنت أقرب الناس مكانا الى الرشيد تحت ظل البرامكة وكنت من الحظوة لديه بحيث اذا جلست الى منادمته عدل عن جلال موضعه من الخلافة ورجع الى محاسن المنادمة من اطلاق النفس على صفاء الاخوان فكان يعمد الى مخدة (٢) يجعلها تحت فخذه ويمكن منها جلوسه ثم يقول هلم بحديثك(٣) وهذا غاية ما يكون من الملوك اذا طابت نفوسهم من منادمة الجلساء وكنت اذا انفردت بمجلسه دون أحد من المقربين اليه أخرج جواريه على غير ستارة فيجلسن متشكلات بالزهور (٤) مزينات باللؤلؤ والزبرجد (٥)

(١) واحدها نوبة وقد ذكرها الاغانى ٢٠*٦٤ بمعنى الاسم من المناوبة والناس اليوم يطلقون اسم النوبة على ضرب المعازف والآت الطرب (٢) الاغانى ٥*١٢٢(٣) الاتليدى ١١١ (٤) الاغانى ٧*٣٦ (٥) الاغانى ٤*٦٢

وأفخر أنواع الجوهر فيغنين ويضربن بالملاهى الى هدء من الليل فاذا أتاه من الحرم (١) التفاح (٢) المنقوش المطيب (٣) وغيره من الفاكهة وأنواع الحلوى عزم عليّ أن أجلس الى طعامه وأجالسه على نبيذ (٤) التمر (٥) وغيره من الشراب الذى لاينهى الشرع عنه ولا يكون له حكم الخمر الا اذا أسكر (٦) وكان يحب أن أحدثه عن علوم الفرس وصنائعهم لما طبع الله فيه من الميل الى الادب والتشوق الى الوقوف على أخبار الماضين من الامم ولذلك كانت دولته تزداد خيرا وصلاحا . وينعم فيها العلم روحا واستروا حا . حتى اذا أقبل اليه العلماء من جميع الوجوه يستمطرون غيث نداه حقق لهم جميل أملهم فيه وبسط يده لاقطاعهم الضياع العامرة . وصلتهم بالهبات الوافرة .

وكانت همة الرشيد مصروفة الى ترجمة كتب الفلاسفة من يونان وغيرهم بعد أن رأى جعفرا وزيره يبتاع من صحفهم مايأمر التراجمة بتعريبه (٧) ثم يعطيهم زنة الكتاب المعرب ذهبا (لان سوق العلم نافقة عند البرامكة (٨) أعزهم الله وهم الذين استنهضوا همم العلماء الى

---

(١) المسعودى ٢*٥٦ (٢) وجدت فى بعض الكتب ان الرشيد كان يحب التفاح ويقول هو أحسن الفاكهة لانه اجتمع فيه بياض الفضة ولون التبر ويلذ به من الحواس العين ببهجته والانف بريحه والفم بطعمه . العقدالفريد ٣*٣٧٥ (٣) الاغانى ١١*٣٥ (٤) شرب الرشيد النبيذ مذكور فى الكتب

(٥) المقدمة (٦) العقد الفريد ٣*٣٠٠ والقناوي ٣٦ (٧) ابن خلكان ١*٢٣٦

(٨) الفخرى ٢٣٥ وابن عبد ربه

تعريب صحف الأعاجم وأشاروا بعمل الكاغد لنسخ أسفارهم وقدرأوا الرقوق التي تستعمل في الصكوك ورسائل السلطان لا تكفيهم في تدوين مصنفاتهم ومعرباتهم فرأوا من عمل الكاغد (١) ذريعة الى نشر العلم الذى عنوا برفع مناره بحيث لم يدعوا سبيلا الى انتفاع الأمة به الا سلكوه المسلك الذى يعقبهم فخرا تتناقله الألسنة عنهم بطيب الاحدوثة فحسدهم الرشيد على ذلك وفي نفسه من الميل الى الأدب والتشوق الى الاطلاع على كنوز الحكمة ماقد رأيت في كتبي السالفة اليك فأنفذ رسله في احراز الاسفار القديمة وكتب باشخاص التراجمة الذين يحسنون العربية من الروم وغيرهم من أمم النصرانية وتقدم اليهم بتعريبها الى اللغة السهلة التى تفهمها العامة وترضى بها الخاصة

فلما تناول العرب هذه الاسفار مهروا في استخراجها ووقفوا على أغراض الحكماء منها (٢) فرقوا من الأدب المقام الذى لم ترقه أمة قبلهم في المشرق. وهذا من الامور التى تدل على ذكاء العرب (٣) ونبل الهمة عندهم وأنهم يبلغون الغاية التى يرومونها من جميع المطالب في برهة يسيرة من الزمان فانا لانجد في اخبار الامم السالفة من حاز من أطراف الدنيا مثل ما حازه المسلمون في مثل المدة التي وقعت فيها الفتوح فقد كان من شأنهم عند ما صار الامر الى بنى أمية أن حازوا اكثر الاقاليم وابتزوا الاعاجم سلطانهم ووصلوا من الشرق الى السند والهند وتجاوزوا المغرب

(١) المقدمة ٣٦٨ (٢) راجع المقدمة وكتاب حجى خلفه ٣) المسعودى ١#٢٣٦

الى أبعد من الاندلس شمالا . وما مثلهم فى سرعة هذه الفتوح الا مثلهم في سرعة تحصيل العلوم وبلوغهم من المدنيـة على قرب عهدهم بها ما لم تبلغه أمم العلم من قبلهم . فمن الغريب الذى ينطق بما عندهم من الهمة والفطانة أنهم لم يقتصروا من الحكمة على نقل فلسفة اليونان بل وجدناهم يرمون الى أغراض من الفلسفة بعيـدة ويضعون على قواعـد اليونان شرحا (١) أصابوا الرأى بالزيادة فيـه بعد البحث والتمحيص (٢) وذلك غير ما فتحوا من الابواب الواسـعة للنظر فى العلوم الرياضية وتحريرها واصلاحها وغير ذلك .

وكان أول عهد العرب من العلم فى خلافة أبي جعفر (٣) لانه كان يعزز جانب الحكمة ويبحث عن مكامن العلم للوقوف على آداب الاولين ويعزم على أهل الكتابة أن يدونوا الاسفار الكثيرة لاذاعة العلوم بين الناس اذ لم يكن معروفا عندهم من قبله الا علم الرواية وأخبار العرب وعلم الاحكام الشرعية واستنباطها من القرآن والحديث وعلم العروض الذى وضعه الله تعالى فى صدورهم وبضاعة مزجاة من النجامة وعلم الافلاك مما اقتبسوه من الفرس والهنود فلما جاءت هذه الايام تسحب عليهم أذيال الدعة والنعيم بعد أن فرغوا من أعمال الحروب التى وقعت في صدر هذه الدولة وجهوا هممهم الى النظر في فنون الأدب لتجديد ما طمس من معالم العلم فكتبوا فى جميع فروعه وفنونه بحيث انه لو جمعت

---

(١) حجى خلفه ٣*٩٢ (٢) ابن خلكان ١*٢٦٣ (٣) السيوطى وأبو الفرج ٢٤٦

كتب أمة قديمة عهد بالعمران لما وُجدما تحويه من العلم أعظم مما تحويه كتب العرب . وانى أذكر ان الرشيد لما ركب الى الرقة فى بعض أسفاره حمل معه ثمانية عشر صندوقا من أسفارهم (١) ليقطع بمطالعتها زمانه مع انه لم يأخذمنها الا نخبة مما فى خزائنه . ولقدوجدت فى قصر له بناه بالقاطول ايخرج اليه للتنزه (٢) خزانة كتب تحتوى على اكثر من ألف كتاب . وحسبنا ذلك شاهداً على ما نروم ذكره من كثرة الصحف التى دونها العرب بين تعريب وتصنيف .

الطب والاطباء

كان أبو جعفر غفر الله له يوجه عنايته الى علم الطب من بين العلوم فبنى لتعليمه حلقة كبيرة فوض أمرها الى طبيب أعجمى يقال له « فرات ابن شحتاثا » وهو من تلاميذ تياذوق (٣) الذى كان طبيبا بدار الحجاج أمير العراق فتخرج عليه طائفة من النصارى (٤) دون المسلمين . ولست أحسب السبب فى اعراضهم عن هذا العلم الا ظنهم كفاية ما لديهم من المجربات التى توارثوها من مشيخة الحىّ وعدم حاجتهم الى مثل هذه الصناعة فى كسب الرزق وترفعهم عنها كغيرها أنفة بأنهم أهل ملكات وذلك خطأ واقع عليهم شينه وخسرانه اذ قد خلت منهم في دور الخلافة مراتب أسندت الى أطباء النصرانية فبرعوا عليهم فى هذا العلم وعرّبوا

---

(١) الاغانى ٥*٦٧ (٢) ابن الاثير ٦*١٦٦ (٣) أبو الفرج ٢٠٠ (٤) فى الاغانى ومقدمة ابن خلدون ذكر كثير من أطباء النصارى دون المسلمين

كتب جالينوس وأبقراط من حكماء اليونان وأضافوا اليها كثيرا مما عرفوه من علم الحيوان بعد وقوفهم على مقالات ارسيخاس (١) وديموقراطيس (٢) وغيرهما من العلماء الذين يرجع الى كلامهم في طبائع الحيوان وخواصه ومنافع النبات ومضاره .

ولقد كان مظهر الطب فى النصرانية رجلٌ يقال له ماسويه أبو حنا وكان أمياً لا يعرف القراءة الا أنه تلقى الطب من أفواه اليونان وطال به المران له والتجربة فيه الى أن بلغ منه المكان الذى لا يدفع وكان له ولدان يقال لهما يحيى ويوحنا فتخرجا عليه فى علمه ومعهما ثالث يقال له جبريل ابن بختيشوع فبرعوه فى شفاء الامراض .

فأما يوحنا فانه صار طبيبا بدار الخلافة ودوّن رسالة طويلة أودعها ما عرض له من التجربة في معالجة أهل السقام واتخذ مجلسا أفرده للنظر فى استنباط العلاجات باجتماع الرأى مع غيره من الاطباء وكان الرشيد قد ولاه ترجمة الكتب (٣) التي وصلت اليه من مدونات الاطباء والحكماء مثل أبقراط وجاليـنوس وغيرهما فأحسن تعريبها كل الاحسان مع ما وجد فيها من الصعوبة التى نالت منها نفسه مشقة عظيمة . وذلك بخلاف الكتب التي عرّبت فى خلافة المهدى وأبى جعفر فانها لم تكن جديرة بالثقة بها ولا الالتفات اليها اذ كانت عارية من القواعد التى وضعها الحكماء وليست تحوي سوى علاجات أشار بها ضعفاء العقول من الاطباء

(١) المسعودي ١*٩٢ (٢) حجى خليفه ٣*١٢١ (٣) أبو الفرج ٢٣٧

وكانت الى الجهل والخرافة أقرب منها الى العلم والحقيقة فلم يجد التراجمة فى تعريبها عناء يجهد النفس . أما الكتب التى عربها ابن ماسويه فانها من أصح وأنفس ماصدرت به أقلام اليونان .

وأما جبريل بن بختيشوع فانه تبحر فى جميع العلوم الداخلة فى علم الطب وكتب فى حياة الحيوان رسائل (١) تدل على سعة اطلاعه وكان جعفر (٢) أعزه الله شديد الحب له والاحتفاظ به حرصا على ماوسع صدره من العلوم فقربه الرشيد اليه برأى البرامكة واتخذه في دور الخلافة بدل صالح الهندى الذى كان مقدما (٣) من قبله على أطباء بغداد فلما صار الى هذا المقام الجليل ورأى الناس يرجعون الى رأيه فيما يشير به من هذا العلم حملهم على الاعراض عن الدجالين وهم الشيوخ الذين بعدت المهابة عنهم ودلّ مابلغوه من الشيخوخة على بلوغ الخرف منهم فيزعمون أنهم يطبون الناس بالمواعظ (٤) ليملكوا أفئدة العوام بمالا فائدة فيه من الخرافة فوفق بعامه الى بلوغ الغاية التى رامها من قطع السبيل عنهم دون الارتزاق بهذه الجهالة التى تميت الاذهان الضعيفة .

ويأتى بعد جبريل بن بختيشوع ويوحنا بن ماسويه طبقة ثانية من الاطباء كلهم من أمة النصرانية الا عيسى أبا قريش الصيدلانى وليس هو بطبيب ماهر ولكنه رزق الشهرة بين الناس عن اتفاق وقع له بان بشر الخيزران فى خلافة أبى جعفر بانها تحمل مولوداً ذكرا يصير اليه

(١) حجى خلفه ٤*١٢٥ (٢) أبو الفرج ٢٣٥ ,(٣) أبو الفرج ٢٣٨ (٤) المسعودي ٢*٥٨

أمر الامة فلما ولدت وكان ماولدته غلاما أفرغت النعمة عليه واتخذته طبيباً في دار الخلافة (١) وقد سمعت من يقول ان الخيزران انما قربته لمهارته في الحجامة لا في الطب فان صحت الرواية كان عندى أحق بالثقة فيه حجاماً من الثقة به طبيباً اذ لست أثق من الطب الا بما يحفظ الصحة للصحيح أما العلاجات التي يزعمون أنها تبعد العلة عن العليل بعد تمكنها منه فما أنا من الثقة بها على شيء لانى أحسبها من باب الغوص على أسرار الطبيعة وطالما وجدت للأطباء في العلة الواحدة آراء متباينة ومن المعروف عند العقل أن الخلاف في الامر الواحد لا يطابق الحق فيه الا وجه واحد . أما الحجامة فانها على خلاف ذلك والرأى فيها واحد يقضى بحذف الجزء الفاسد وفصله واني وان كنت على بعد من الطب فلا أجد بدا من الاقرار بفضل العرب فيما استنبطوه من العلاجات وما عرفوه من مركبات العقاقير التي لم يسبق اليها أحد من المتقدمين ولا المتأخرين ولا غروفان الطب صناعة لا تبلغ الغاية منها الا على طول التجربة والاختبار في المران والممارسة ولذلك كان المتأخرون يفضلون فيها المتقدمين في كل عصر وأمة وقد قال علىّ عليه السلام (٢)

ألا لن تنال العلم الا بستة ... سأنبيك عن مجموعها ببيان
ذكاء وحرص واصطبار وبلغة ... وارشاد استاذ وطول زمان

---

(١) أبو الفرج ٢٩ (٢) الكنز ١٣٩ والشبلنجي ١٠٢

(النجامة وعلم الافلاك)

لقدسبق الالماع الى ذكر النجامة وأنها من العلوم التى كانت معروفة قدماً عند العرب غير أن الاجتهاد فيها كان محصورا في نفر قليل من أتباع الاقيال الذين تداولوا ملكهم قبل الاسلام فلما جاء أبو جعفر قرب اليه المنجمين وقدم عليهم نوبخت (١) المنجم المشهور عندنا بين أعاظم المجوس وفضلائهم ومن له كبير علم وجزيل فضل فاتخذ فى الزوراء حلقة شهدها كثير من الناس الا أنه لم يكن فيهم أخلف له في عامه من الموصلى المنجم فانه كتب فى الاصطرلاب سفرا أودعه من علم الكواكب وسيرها وحركاتها أصولا يعيرها العلماء جانب الثقة والاعتبار ويرجعون اليها فى علم النجامة والافلاك .

ثم نجم بعده في المسلمين على بن عيسى الاصطرلابى (٢) وابراهيم الفزارى المنجم ومهرا فى استخراج النجامة من كتب الفرس وقد عثرت فى خزائن البرامكة أيد الله دولتهم على أرجوزة فى علم الافلاك وهيئتها نظمها ابراهيم هذا المنجم (٣) فجاءت ناطقة بحسن نظره ولطيف مأخذه وجليل موضعه من هذا العلم . وله كتاب مشهور فى الزيج ذكر فيه من غير حركات الكواكب جوامع من مساحات الممالك والبلدان اذ كر مما قيّده في اقاليم الاسلام ان عمل أمير المؤمنين من فرغانة وأقصى خراسان الى طنجة

---

(١) ذكره القزوينى وابن الاثير وغيرهما فى استشارة أبى جعفر اياه فى بناء الزوراء (٢) المسعودي ٢*٤٠٠ (٣) المسعودى ٢*٤٠٠

بالمغرب ٣٨٠٠ فرسخ والعرض من باب الابواب الى جدة ٦٠٠ فرسخ ومن الباب الى بغداد ٣٠٠ ومن مكة الى جدة ٣٢ ميلا (١) وعمل الاندلس لعبد الرحمن ابن معاوية ٣٠٠ فرسخ وعمل ادريس ١٢٠٠ فى ١٢٠ فرسخاً وعمل فاس لأبى المنتصر ٤٠٠ فرسخ فى ٨٠ فرسخا (٢) ثم نبغ بعدهما تيوفيل بن توما الرهاوى (٣) وكان المقدم على جميع المنجمين فى خلافة المهدى رحمه الله وكانت له معرفة تامة باليونانية حتى سما الى ترجمة كتاب شاعر يقال له أوميروس عن فتح مدينة ايليون فى العصر الخالية الى السريانية بغاية ما يكون من الفصاحة (٤) وأميروس هذا شاعر مجيد كان يغترف المعانى من بحار التصور ويبرزها فى الصورة التى يعجز عن مثلها الشعراء فوقف نظمه بين الحكمة وكلام النبوة موقفا لا يسمو الى مناولته الا العقول النيرة والاذهان الثاقبة وقد أثنى عليه أرسطو (٥) فى كتابه بمديح يرفعه الى اسمى مقامات العقول .

أما المنجمون في هذه الايام فهم اثنان مشهوران ماشاء الله اليهودى وأحمد بن محمد النهاوندي ودونهما فى الشهرة ثالث يقال له محمد بن موسى (٦) المنجم . فاما ماشاء الله فيقال ان له حظا فى علم الغيب (٧) وكان فى جملة المنجمين الذين اتصلوا بأبى جعفر بعد نوبخت وكسبوا الانعامات

(١) المسعودى (٢) ذكر ابن خلدون فى المقدمة منجما من الروم يقال له توفيل الرومى وانه كان فى أيام بنى أمية (٣) أبوالفرج ٢٢٨ (٤) المقدمة ٥٣١ (٥) الاغانى ١٥ * ٨١ (٦) أبوالفرج ٢٤٨

منه وهو اليوم بدار الترجمة آخذ عن أمر الرشيد بتعريب الكتب التى تبحث فى علم الافلاك . وأما أحمد النهاوندى فانه فى الموضع الاجل من علم الرصد ألّف فيه كتابا سماه المشتمل وأودعه من تحقيق النظر وتعميق الفكر فيما عرض له من أمور الفلك بما رصد في مدينة جند يسابور مالم يسبق اليه أحد من المنجمين ودوّن في الموازنة بين علوم الفرس والهند واليونان فيما عرفوه من النجامة وسلكوا طريقته الى آخر زمانهم كتابا آخر صور فيه الدنيا كلها للرشيد ببحورها وجبالها وأوديتها وأقاليمها وبلدانها وسائر أماكنها وجعل الدرجة خمسة وعشرين فرسخا والفرسخ اثنى عشر ألف ذراع والذراع اثنين وأربعين أصبعا والاصبع ست حبات وتسعين مصفوفات بعضها الى بعض (١) وهذا مما يحتاج الى دقة النظر فى معرفة عرض الارض وطولها ومناسبة الاقاليم فيما بينها وغير ذلك.

وقد أهدانى هذا المنجم نسخة مصورة من كتاب المشتمل فى السنة الرابعة والثمانيين بعد المائة من الهجرة ولكنه أخبرنى انه لم يرسله بين الناس لما يحتاج اليه من المراجعة والاصلاح به فيما يعرض له من أمور الفلك الذى يباشر رصده فى هذا الوقت

ولقد مضى فى كلامنا عن الطب أن النصارى برعوا فيه على المسلمين وكذلك نقول فى هذا الباب ان الفرس برعوا فى النجامة على العرب لانى رأيت هؤلاء يتجافون عنها ويعدونها والسحر (٢) الذى ينهى الشرع عنه

---

(١) ذكرها المسعودى ١*٢٧٨ (٢) القناوي ٥١

علميا واحدا بخلاف جماعتنا من الفرس فانهم يوجهون عنايتهم الى العلى فى مباحثهم ومناظراتهم ولذلك تجد انصبابهم الى الرصد وما ينبىء عنه من اشارات النجوم والكواكب أعظم من انصبابهم الى ماسواه من العلوم وكان المقرب لهم في الاسلام أبو جعفر المنصور (١) كما ذكرت ذلك فى مواضع من الكتاب لاجل أن يعلموه على طوارئ الجو وحدوث الانواء وانتقال الشمس والقمر والكواكب فى بروجها وينبئوه عن جدب الارض وخصبها بما يكون من معرفة ذلك قبل أوانه من المنفعة العظيمة للملوك ثم قربهم البرامكة أكرمهم الله بأكرم الكرامات لاستشارة الاصطرلاب (٢) فى جلوسهم وركوبهم وما يباشرون من جميع الاعمال ليعدلوا به النجوم ويدركوا علم الابعاد ويوقعوا زمن الكسوف (٣) وعقدوا لهم مجلسا يتناظرون فيه لتحقيق مايستنبطونه من حركات الكواكب المتحركة والمتحيزة وأسبابها بطرق هندسية وما يرون من الافلاك التى تختص بالكواكب الثابتة وغير ذلك . وتقدموا الى فن علم بالنجامة أن يعرب كتاب المجسطى لبطايموس من حكماء يونان واتخذوا آلة للرصد تعرف بذات الحلق (٤) فكان يجتمع عليها المنجمون وفيهم

---

(١) السيوطى (٢) ذكر صاحب الاغانى والاتليدي ان جعفرا استشار الاصطرلاب يوم نكبه الرشيد (٣) العقد الفريد ٢*٧٨٥و٢٤ المقدمة (٤) وقال ان المأمون أول من اتخذها فى الاسلام وانها كانت معروفة عند اليونان كما يستدل على ذلك من العقد الفريد

جماعة من أدباء العرب الذين لم يشاركونا فى هـذا العلم الا بما يلتمسون من معرفة الايام والشهور والسنين من طريق حركة كل كوكب وهو الفرع الذى يسمونه بعلم الازياج (١)

الحديث وعلوم الشرع

الحديث هو العلم الذى هوت اليه أفئدة المسلمين وكان شأن العرب به فى صدر الاسـلام أن يرحلوا من بلد الى بلد ليسمعوه من الصحابة ثم من التابعين ثم ممن سمع من التابعين من غير ان يدونوه فى الصحف فلما أسرع الموت فى العلماء وكانوا كلهم شيوخا فزع أهل العلم الى الطروس وأخـذوا يدونون (٢) الحديث مثل ماوجدوه في الناس محفوظاً بطريق الاسناد ولـكن من غير ان ينظروا فى الرواية النظر الجلىّ ولا ان يعتمدوا فى النقد الاصل المرعيّ . فكتب ابن جريج بمكة (٣) ومالك بن أنس بالمدينة ومعمر باليمن وسفيان الثورى بالكوفة وهشيم بن بشـير (٤) بالعراق والاوزاعى ببيروت (٥) من ساحل الشام وحماد بن سلمة وشعبة ابن الحجاج وابن أبى عروبة بالبصرة وذلك كله فى خلافة أبى جعفر (٦) رحمه الله . وكان أصحهم حديثا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مالك ابن أنس وهو رأس المحدثين (٧) رأيته اذا اراد ان يحدث توضأ وجلس على صدر

---

(١) المقدمة ٤٢٧ وحجى خلفه ٣*٥٦ (٢) الزرقانى ٥١*١٠ (٣) الزرقانى ١*١٠ (٤) ابن خلكان ١*٩٢ والاغانى ٥*٥٤ (٥) حجى خلفه ٣*٢٨ وذكر ابن الاثير وأبو الفداء وفاته سنة ١٥٧ (٦) السيوطى (٧) ابن خلكان ١*٦٢٦

فراشه وسرح لحيته وتمكن فى جلوسه بوقار وهيبة ثم حـدث فقلت له فى ذلك فقال أحب أن أعظم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أحدث به الا متمكنا على طهارة وكان يكره أن يحـدث على الطريق أو قائما أو مستعجلا ويقول أحب أن أتفهم ماأحدث به عن الرسول صلى الله عليه وسلم.

ثم انه لما جاء هذا العصر والناس مطلعون على حكمة الفرس واليونان وما فى أنواعها من الخروج عن الملة أخذ الأئمة فى وضع علم الكلام صيانة للدين أن تخالطه البدع ويقع فيه التخالف ثم أخذوا في تمييز المحفوظ من الحديث كله لمعرفة الصحيح من الفاسد الموضوع وكان أول من أخذ فى ذلك فقيه الاسلام أبو يوسف وكان من علية أهل الحديث وهو الذى آخذ النـاقلين باغلاطهم (١) ونبـذ الموضوع من أحاديثهم وكان يقول اثنان لا يسلمان من اثنين من طلب النجوم لم يسلم من الفقر ومن طلب غرائب الحديث لم يسلم من الكذب (٢) ثم أخذ أخذه العلماء المجتهدون من بعـده ومنهم أبو اسحق الفزارى وعبـد الله بن المبارك وهما أشهر الأئمة لايامنا هـذه والرشـيد لايسمع الحديث الا عنهما. ولا يلتمس الرد على الزنادقة الا منهما. فكان اذا أخذ على الزندقة جماعة يقولون له وهو يضربهم الحدود أين أنت ياأمير المؤمنين من ألف حديث وضعناها عن النبي صـلى الله عليه وسـلم مافيها حرف نطق به فيقول لهـم وأين

---

(١) ابن خلكان ١*٢٧٦ (٢) العقد الفريد ١*١٩٩ و٢١٣

أنتم ياأعداء الله من أبي اسحق وابن المبارك يتحلاّنها فيخرجانها حرفا حرفا (١)

ولقد أخبرني هذان الامامان أنهما يؤلفان في فقه الدين وعلم الكلام رسائل يذكران فيها مذاهب الائمة ثم يتطرقان منها الى الرد على الذين يقولون بخلق القرآن ويزعمون أنه يحوى غير العربيّ الفصيح من الكلام وهذان المذهبان (٢) فاشيان اليوم بين الناس والأول منهما أشد خوفا على الاسلام لان زعم الخروج عن اللغة ضعيف الحجة واهى الدعامة بما يعلم عن العرب أنهم خالطوا الامم فى تجاراتهم وأسفارهم وعلقوا من لغاتهم ألفاظا استعملوها فى أشعارهم ومحاوراتهم حتى جرت مجرى العربيّ الفصيح فما ورد فى القرآن من الالفاظ الاعجمية انما دخل في العربية الفصحى بطريق الاستعمال والتعليق (٣) بحيث انه لا يكاد يرى فيه من هذه الالفاظ مالم يرد فى شعر البلغاء من الجاهليين وفى هذا القدر كفاية للرد على هؤلاء المفترين فيما يزعمون . أما الذين يذهبون الى أن القرآن مخلوق فللعلماء من أهل الاجتهاد حجج قامعة لافترائهم على الله مخمدة لنار الفتنة التى كمنت طيّ مذهبهم وهذا من الامور التى ينبغى أن ينظر فيها الاولياء بعين الحذر لان الفتنة لاتؤمن غائلتها بعد فساد الدين ويكون آخر أمرها

(١) السيوطى (٢) الدميرى ١*٩٨ والكشكول والاتقان ١*٦٨ اوابن الاثير والاتليدى ٢٤١ وغيرهم (٣) الاتقان فى تفسير القرآن ١*١٤٩

بوارا على الدولة ومدعاة لسقوط العرب الذين ما فتحوا البلدان وحازوا سلطان الاعاجم الا بنخوة الدين وفتوّة الاسلام.

ولقد عثرت من مدونات الفقه على كتب جايلة أجلّها كتاب لابى حنيفة فى الكلام (١) اسمه الفقه الاكبر وله فى هذا العلم الشأو الذى لا يدرك وكتاب لمالك بن أنس سماه الموطأ وذهب فى استنباط الاحكام الشرعية من القرآن والحديث الى مذهب ينفرد به عن مذهب أبى حنيفة وهو الكتاب الذى يقرؤه الرشيد ويحفظه فى صدره (٢) تفضيلا على غيره من كتب الفقه. وعثرت أيضا على كثير مما دونه العلماء فيما يشتق عن الفقه من علوم الاحكام منها لابى حنيفة وأبى يوسف رحمهما الله ومنها لابن شبرمة وابن أبى ليلى (٣) وقد أفردا نظارهما فى علم الفرائض . ومنها كتاب لفتى يقال له يحيى بن اكثم جمع فيه ما استحسن من آراء أصحاب المذاهب وهو الكتاب الذى أصبو الى مطالعته من بين هذه الصحف الشرعية لانى وجدت قبل صاحبه من قوة الفطنة (٤) وصدق الحدس ما يؤكد لى انه ان مد له فى العمر ليبهر الفقهاء.

أما الكتب التى وقفت عليها فى علوم الحديث فانها اكثر من أن يأخذها الاحصاء (٥) غير ان الافادة منها كانت محصورة فيما

---

(١) حجى خلفه ٤*٤٥٧ (٢) الزرقانى ١*٩ (٣) حجى خلفه ٤*٣٩٦
(٤) ابن خلكان ١*٩٢ (٥) كتاب حجى خلفه

جمعه كبار العلماء وبقي أن جملة ما في غير كتبهم مراجعة واعادة لما سبقوا الى تدوينه فكان انفع للعلم لو صرف الباقون عنايتهم الى النظر في غير ذلك من العلوم ولم يضيعوا العمر في نقل ماسبقهم اليه العلماء.

في تدوين اللغة

أما اللغة فان العلماء قد وضعوا قواعدها على أصول وقفت عندها الغاية في الاصلاح وتدقيق النظر لانه قد سبق اهتمامهم بها اهتمامهم بما سواها من العلم اضطراراً الى تفسير القرآن اذ كانت الكتابة مجهولة عندهم في صدر الاسلام ولم يكن يكتب بالعربية غير بضعة عشر انساناً (٢) وكانت ألفاظ العرب بعضها محفوظاً في صدور الرجال . وكثيرها ضائعاً بين الرمال . فبادروا الى التقاطها من البادية يطرقون منازل أهلها ويشهدون محاوراتهم ويتتبعون آثارهم ويستنطقون اطلال ديارهم حتى وقفوا على ما كان متفرقا من لغاتهم وقيدوها في الصحف بطريق الرواية والاسناد.

وكانت حروف الكتابة في أول الامر موضوعة بغير علامات (٣) وظل الناس يقرؤون في مصحف عثمان وهو بتلك الكتابة نحواً من أربعين سنة حتى كثر التصحيف لوجود الحروف المتشابهة (٤) وما استغرب أن يقرأ بعض الناس وما يجحد بآياتنا الا كل جبار والاصل ختار وعذابي أصيب به من أساء والاصل أشاء . وهم أحسن أثاثا وزيا

---

(١) العقد الفريد ٢*٢٠٦ (٢) حجي خلفه ٣*١٥٤ (٣) ابن خلكان ١*١٥٧

والاصل ورئيا . والذين كفروا في غرة وشقاق والاصل في عزة الى غير ذلك فوكل عبد الملك بن مروان النضر بن عاصم أن يضع علامات لهذه الحروف المتشابهة فوضعها لها أفراداً وأزواجا فتميز بعضها عن بعض ومحى التصحيف فى القراءة وضبط اللغة لما كان يحتاج له العلماء من حفظ الحديث وتفسير القرآن الكريم بما دونوه من لسان قريش وغيرهم

وأول من دون اللغة مجموعة في كتاب واحد الخليل بن أحمد الذى قدمت لك فى الكلام على البصرة ذكره وقد ضمن كتابه (١) أصول اللسان العربي وقيد ألفاظه فى مواضعها من الاشتقاق الا ماكان دخيلا عليه من كلام الاعاجم فانه اكتفى من ذكره بالاشارة الى عجميته وأسند روايته فى ذلك كله الى اكابر الحفاظ ولذلك صار قوله حجة يرجع اليها فى منصرف الكلام ثم دونها بعده كثير من العلماء منهم أبو الحسن على بن حمزة الكسائى مؤدب الامين والمأمون (٢) من أولاد الرشيد وهو فن علم بالنحو . ومنهم سيبويه (٣) والفراء والاخفش وعلمهم النحو

---

(١) هو أول قاموس كتب فى اللغة العربية (٢) المسعودي ٢*٢١٣ والابشيهى ٢*١٣ (٣) وقت أبو الفداء ٢*١٦ وفاة سيبويه بسنة ١٨٠ للهجرة وقال انه كان أعلم المتقدمين والمتأخرين بالنحو . وجرى له مع الكسائى البحث المشهور فى قولهم «كنت أظن لسعة العقرب أشد من لسعة الزنبور» قال سيبويه فاذا هو هى وقال الكسائى فاذا هو اياها وانتصر الخليفة للكسائى فحمل سيبويه من ذلك هما وترك العراق وسافر الى شيراز وتوفى هناك

فقط الا الفراء فانه كثير الفضل على العربية بضبطها وتخليصها (١) وقد بلغني جلالته في العلم ولكن لم يجمعني واياه مجلس الى هذا اليوم (٢) ومنهم أبو عبيدة معمر بن المثنى البصري وقد وقع الي كتاب له في فقه اللغة لتعليم الرشيد (٣) قبل تشرفي بتأديبه وقد أودعه كلام العرب وقيود لغتهم وذكر المترادفات التي وردت لهم في جميع الاسماء والافعال والاوصاف مشيراً الى صحة استعمالها في مواضعها من الكتابة وأتى على متابعة الالفاظ التي تصف الاشياء على ازدياد في معناها أو نقص يبعدها عن الكناية بالا يصح استعماله لها من الوصف الذي أقامه على طبقات معلومة من كلام العرب.

وهذا الكتاب يفتقر اليه كل كاتب من أبناء العرب الذين ينزلون الأمصار وينقطعون عن أهل البادية الذين يحافظون على قوام اللسان العربي (٤) لأني قد وجدت كذا مباينة بين كلام العربان واصطلاحات المتمصرين حتى تكون اللغة عند هؤلاء غير اللغة عند اولئك فأما اذ انقسمت الى قسمين فيكون القسم البدوي هو الحافظ لمحاسن اللغة التي كان ينطق بها البلغاء والشعراء ويكون القسم الحضري قطعة من كلام العرب يخالطها كلام السوقة (٥) وألفاظ المعربين فيما ينقلونه من كلام

---

(١) ابن خلكان ٢*٣٣٨ (٢) ذكر أبو الفداء انه ولد في أيام يزيد بن عبد الملك وتوفي سنة ١٨٧ بعد البرامكة (٣) ابن خلكان ١*١٥٢ (٤) يظهر هذا مما نقله الاصمعي وغيره من كلام العرب (٥) ذكر الاغاني كلام السوقة في زمن الرشيد ٣*١٧٣ وفي غير موضع أما ابن خلدون فيقول في المقدمة ١٥ ان ملكة اللسان كانت محفوظة في الامصار الى عهد الزمخشري وأمثاله من فرسان الكلام.

الفرس واليونان مما لا نجد له مسمى في لسان العرب لان لغتهم انما وضعت للبادية حيث لا تكون هذه الاشياء التي نجد أسماءها في كتب الاعاجم كما أن في لغات الامصار اضرابا عن تسمية الاشياء التي لا توجد الا في بادية العرب.

ثم اني وجدت عند أهل اللغة قصورا تسامحوا فيه وتغاضوا عنه وذلك أنهم عند ما يصرفون الكلام يسردون لغة القبائل فيه من غير أن يشيروا الى ما كانت تختلف به لغة قوم عن آخرين ولقد ذكروا للأسد نحو ألف اسم ولكن من غير أن يذكروا الاسم أو الأسماء التي كانت تسميه بها عرب كذا وكذا وذكروا للبعير والحية وسائر الحيوانات والاشياء والاوصاف مثل ذلك مع اغفالهم ما نحن نؤاخذهم به حتى لقد نجد في تصريف الاسماء الى ما يشتق منها من المعاني مضادة اغفلوا ذكر استعمالها بين العشائر كاستعمالهم وثب بمعنى جلس وطفر وذلك من الاضداد التي لا أظن انها تجتمع في كلمة واحدة عند قوم من العرب فان الوثوب بمعنى الجلوس في لغة حمير وبمعنى الطفر في لغة قريش (١) . الى غير ذلك (٢)

---

(١) في القاموس الوثب الطفر والقعود بلغة حمير (٢) قيد العلماء في كتب اللغة كثيرا من الافعال التي تشترك في معنى الشيء الذي له نقيض من نفسه مثل الهزال والسمن والصعود والانحدار والحضور والغياب وغير ذلك فربما عبروا عن الشيء ونقيضه من هذه الاسماء والافعال والاوصاف بلفظة واحدة مشتركة بين المعنيين باعتبار أن الجبل مثلا لا ينحدر منه الرجل الا أن يكون قد صعد اليه ثم لا يعقب الصعود الا الانحدار وكما أن الرجل لا يغيب الا بعد أن يكون حاضرا فانه لا يحضر الا بعد أن يغيب وهذه هي الالفاظ التي يصح أن تسمى بألفاظ المشاركة وانها لكثيرة في كلام العرب

ولبديهٌ ان اشتراك اللفظة الواحدة في معنيين متضادين قد يدعو الى الالتباس فى الكلام فلو قال قائل عذّر الله وكن من اعدائه واقطع رؤس أئمة المعابد ولا تقرا القرآن فتجحد والجنة مثوى الكفرة والجامع مجلبة للاثم لكان المتبادر من كلامه كفرا مع أن تفسير معناه المستتر حكمة وتسابيح لان عذر بمعنى بجل والاعداءهم الانصار وقطع أى سلك والامام الطريق الواضح وقرأ جمع وجحد بخل والكافر الحارث الارض وهو الاكار والجامع القدر العظيمة ويراد بها الشره الى غير ذلك فهذا الشأن غير محمود فى لسان العرب ولاسيما بعد أن توحد بنزول القرآن الكريم وقد تعجبت كل العجب كيف أهمل اصلاحه لهذا الزمان . وقد امتلأت صدور الرجال من العلم والادب والعرفان .

الشعر فى البداوة

العروض علم وضعه الله سبحانه فى صدور العرب حتى لا يوجد أحد منهم الا وهو يقدر على قول الشعر طبعاً ركب فيهم قل القول أو كثر (١) وكان أهل الجاهلية ينطقون به عن بلاغة لا يقصدون بها الا المفاخرة بين الاقران «كما سمعت الاصمعى يقول الشعر جزل من كلام العرب تقام به المجالس وتستنجح به الحوائج وتشفى به السخائم» بخلاف ما نجده فى شعراء هذا الزمان فانهم يغصبون أنفسهم على الانشاد بما يستميحون الملوك من الارفاد . وعندى أنه كلما تباعدت أجيال الاعراب .

(١) الاغانى ٢٠*٥١

وامتزجت بهم الاغراب . وتجافوا عن سكنى البادية الى حيث لا يكون لهم مجالس للمناشدة كدأبهم فى سوق مجنة وسوق عكاظ وسوق ذى المجاز (١) فقدوا كثيرا من بلاغة الشعر وضاق مذهبهم به على اتساع الحضارة فيهم الى أن يكافوا طبيعتهم شيأ لا يقدرون عليه فيقولون البيت ويحككونه أياما (٢)

وانما سهل على المتقدمين الاجادة فى هذا الفن أن شاعرهم كان ينفرد بمذهب واحد من المذاهب المعروفة عندهم بين فخر ونسيب ومدح وهجاء من غير أن يكون له طلاوة ونابغه فيما سواه . ثم ان كلام العرب (٣) كان سائرا في أيامهم على الالسنة فلم يعانوا الى البلاغة تكلفا (٤) فيما قصدوا من المذاهب التى كانوا يفردون فيها القول على انفرادهم من الاحوال بطرائق انقطعوا اليها وكانوا بها موصوفين كاسترسال امرىء القيس فى معاش الشباب بحيث أتى من نعت محاسن النساء بما ليس لقول غيره موقع مثله من القلوب ومدخل لطيف وان هو الا أرق المتغزلين حيث يقول .

---

(١) هى الاسواق الثلاث الاكثر شهرة عند العرب وأعظمها سوق عكاظ وكان يقام بين نخلة والطائف فى موضع لا يبعد عن الطائف أكثر من عشرة أميال وذلك فى أول يوم من ذي القعدة الذي هو أول الاشهر الحرم وكانت العرب تجتمع فيه للتجارة والتهيؤ للحج فيؤمن بعضهم بعضا ويتناشدون ويتفاخرون ويتسوقون الى حضور الحج ثم يحجون (٢) الاغانى ٣*٢٥ (٣) الاغاني ٥*٢٥٢ (٤) الاغانى ٣*١٦١ والموازنة والمستطرف ١*٧٧

أفاطم مهلا بعض هذا التدلل　　وان كنت قد أزمعت صرمي فاجملي
أغرّك مني أن حبك قاتلي　　وأنك مهما تأمري القلب يفعل

وكجد عنترة بن شداد في الفروسية بحيث أتى في الحماسة (١) بما لم يأت به أحد مثله كقوله .

لو سابقتني المنايا وهي طالبة　　قبض النفوس أتاني قبلها السَّبق

وكفتح حاتم الطائيّ يده في سعة العطاء بحيث انه يتهلل بذكر السماحة والمكرمات في جميع شعره ويقول (٢).

أماوي ان المال غاد ورائح　　ويبقى من المال الاحاديث والذكر
ترى أن ما أنفقت لم يك ضائري　　وأن يدي مما بخلت به صفر

وكارتفاع السموأل بن عادياء في درجات المحاسن الشريفة بحيث انه أتى من ذكر الوفاء والمفاخرة به بما يرفعه الى اسمى طبقات الشعر وهو الذي يقول

اذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه　　فكل رداء يرتديه جميل
تعيرنا انا قليل عديدنا　　فقلت لها ان الكرام قليل
وما مات منا سيّد حتف أنفه　　ولا طُلَّ يوماً حيث كان قتيل

وكانقطاع أميّة بن أبي الصلت الى العبادة بحيث انه أتى في ذكر أحوال الآخرة بما لم يشاركه فيه متقدم ولا متأخر (٣) وان قوله .

يوشك من فر من منيّته　　في بعض غرّاته يوافقها

---

(١) الاغاني ٣*١٨٨ (٢) الاغاني ١٦*٩٦ والعقد الفريد ١*١٠٨ (٣) الاغاني ٣*١٨٨

من لم يمت غبطة يمت هرما   للموت كأس والمرء ذائقها

لأحكم ما قالته العرب فى وصف الموت (١) الى غير ذلك مما يتسع له المجال فنقف منه عند هذا الحد .

وقد انتهت بلاغة الشعر الى المعلقات السبع وهى أصدق شاهد على فضل المتقدمين بما قصدوا من انسجام القول ونعت الشعائر التى تدل على أنفة النفس وعلو الهمة على غير تكلف بها الى طرق البلاغة بما نعلم من انشادهم اياها ارتجالا بين العشائر فان الحارث بن حازة لما أنشد عمرو بن هند معلقته توكأ على قوسه وأنشدها واقتطم كفه وهو لا يشعر من الغضب حتى فرغ منها (٢) فيظهر من ذلك أنه كان لهم فى الشعر سر ضاع عن المحدثين سره لانقلابه فيهم من الطبيعة الى الصناعة لان العرب كانوا شعراء جميعاً وكلهم يرتجز فى حرب أو استجداء أو مفاخرة (٣) وكانت الحكمة سائرة على ألسنتهم كما شهد لهم النبى صلى الله عليه وسلم بذلك حتى اذا أنشدوه قول طرفة من أصحاب المعلقات

ستبدى لك الايام ما كنت جاهلا   ويأتيك بالاخبار من لم تزوّد

قال هذا من كلام النبوة (٤) ثم ان النساء كنّ يقلن الشعر أيضا فى أيامهم حتى ان بعضهن قد فضلن كثيرا من الرجال مثل ليلى والخنساء وكلتاهما شاعرة فصحى ولقد وجدت من كلام ليلى فى وصف الشجاعة ضروبا

---

(١) العقد ١*٣٧٥ (٢) أبو عبيدة والاغانى ٩*١٧٨ (٣) الاغانى ١٨*٦٤ (٤) العقد الفريد ٣*١٢٢

من الابداع كقولها (١)

مهفهف الكشح والسربال منخرق عنه القميص لسير الليل محتقر
لا يأمن الناس ممساه ومصبحه في كل فج وان لم يغز ينتظر

ووجدت في تابين الخنساء لصخر توجعاً كثيراً بالبكاء عليه حيث تقول

يذكرني طلوع الشمس صخرا وأذكره لكل غياب شمس
ولولا كثرة الباكين حولي على اخوانهم لقتلت نفسي
وما يبكون مثل أخي ولكن أعزي النفس عنه بالتأسي

وتقول في رثائه وهي تصف محاسنه .

اذا القوم مدّوا بأيديهم الى المجد مدّ اليه يدا
فنال الذى فوق أيديهم من المجد ثم مضى مصعدا

وتقول وهو أفخر بيت قالته العرب

وان صخراً لتأتم الهداة به كأنه علم فى رأسه نار

ولها من أمثال هذا الكلام شيء كثير (٢) يرفعها الى مساماة البلغاء من الرجال

وقد أجاد المتقدمون فى براعة الاستهلال الى حيث يقف حد البلاغة وهم يصفون الركبان والطيف ويذكرون ربوع الاحباب وتعفية الرياح رسومها ومخاطبتهم اياها فيما مضى لهم من عهود الانس ويصفون ألم الفراق ووحشة الديار وما يخالج قلوبهم من الصبابة فى وقوفهم

(١) الاغانى ٩*١٧١ (٢) الاغانى ٦*٨٣ و٩*١٦٣ و١٤ *١١٦ والعقد ٢*٢٣ وديوان الحماسة والاتليدى ٢٥

بالعيس الى اطلال الديار (١) الى ان يتخلصوا من هذا الاستهلال الى مايرون انشاده فيما يأخذون به من المذاهب ولكن على انحطاط يقع فيه الكثير منهم بعد بلاغة الابتداء الا الذين يتوسطون بالبلاغة فى مطلعهم فيستمرون الى آخر بيت على استواء أو الذين يعلون علوا حسنا ثم لا يزالون بمثله على بلاغة تعجز الفصحاء ولكنهم نفر قليل مثل امرىء القيس وزهير بن أبي سلمى والنابغة الذبيانى وهم المقدمون على جميع الشعراء وموضعهم من البلاغة واحد (٢) الا انه غلب على ذى القروح التجمل بالمعانى وبديع الوصف وعلى النابغة الاسترسال في البراعة وعلى زهير العناية بتقويم الالفاظ. وقد سمعت الاصمعى يقول وقد سئل من أشعر العرب. الذين شرق شعرهم وغرّب . فقال انهم زهير اذا رغب . والنابغة اذا طرب

---

(١) انما ابتدأ الشاعر بوصف الديار والدمن والآثار فبكى وشكا وخاطب الربع واستوقف الرفيق ليجعل لذلك سببا لذكر أهله الظاعنين من ماء الى ماء وانتجاعهم الكلأ وتتبعهم مساقط الغيث حيث كان ثم فصل ذلك بالنسيب وأبدي شدة الوجد وألم الصبابة والشوق لتميل نحوه القلوب وتنصرف اليه الوجوه ويستدعى اصغاء الاسماع لان النسيب قريب من النفوس لائط بالقلوب لما جعل الله سبحانه فى تركيب العباد من محبة الغزل والف النساء فاذا استوثق من الاصغاء اليه والاستماع له وعقب بايجاب الحقوق ودخل في شعره وشكا السهر والتعب وسرى الليل وقرر ما ناله من المكاره فى المسير بدأ في المديح فبعثه على المكافأة وفضله على الاشياء وصغر في قدره الجزيل وهزه للفعل الجميل الحصرى ٢*٤ ٢/٢) الاغانى وكتاب الموازنة

وامرؤ القيس اذا غضب. وعنترة اذا ركب. والاعشى اذا رهب (١) ولئن يكن في تفضيل الشعراء بعضهم على بعض عسر لا يؤمن معه الزلل فما أنا براء في أبياتهم مايسمو الى كلام النابغة فى الفخر حيث يقول (٢)

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب

ولا الى براعة زهير في المديح وقد أتى عن المادحين فضول الكلام بقوله (٣)

وان يك من خير أتوه فانما توارثه آباء آبائهم قبل

ولا الى جمال الوصف الذى نظمه امرؤ القيس فى معلقته نظم اللآلى فى شذور الذهب فقد لاتحضر البلغاء أنفسهم عبارات يفصحون بها عن محاسن كلامه الذى ذهب مذهب المعجزات فان العرب لم ينفكوا عن السجود لها وهى معلقة فى الكعبة الى أن ظهر الاسلام وذهبت فصاحة الشعر بما نزل من كلام الله تعالى على سيد ولد آدم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

وأما الذين دون طبقة هؤلاء من الجاهليين فان لهم من محاسن الشعر موضعا لا يتعدونه الى التصرف فى المذاهب الواسعة كانفراد أبى داود بوصف الخيل وعلقمة بوصف الوحش وأوس بن حجر بوصف الخمر الى غير ذلك (٤) وليس فيهم أقرب الى طبقة الثلاثة المتقدمين من الاعشى بن جندل الاسدى (٥) فان له ابياتا حسانا نذكر منها هذا

---

(١) الاغانى (٢) خزانة الادب ٥١١ والاغانى ٩-٨-١٠ (٣) الاغانى (٤) الاغانى ١٥*٩٥ و٩٦ (٥) الاغانى ٩*١٤٠

البيت الذى هو اشجع بيت قالته العرب .

قالوا الطعان فقلت الـكل عادتنا أو تنزلون فانا معشر نزل

ولـكني وجدته اذا تعالى في شعره كثيرا لم يؤمن وقوعه فى الانحطاط (١) وربما أتى من الالفاظ بالغريب الذى يعجم على الاذهان وهذا شيء يصح أن نعيبه عليه وعلى غيره من الجاهليين وان كان بعض الناس يجدون له مخرجا الى السلامة من العيب حيث يجوزون للمتقدمين مالا يجوزونه للمتأخرين .

《 الشعر فى الحضارة 》

ولقد وجدت فى شعر الاسلاميين المتقدمين علوا كادوا يسامون فيه أهل الجاهلية ولذلك يصح أن نعترف لهم بمحاسن البلاغة مثل الاحوص وذى الرمة وحسان بن ثابت وعمر بن أبى ربيعة والقطامى وجرير والفرزدق والاخطل وجميل وكثيّر وكثير غيرهم فان لشعرهم من رقة الديباجة والرونق والحلاوة مالانجده الا فى شعر البلغاء من الجاهليين وربما انتهى بعضهم فى المذاهب التى كانوا بها آخذين الى حيث تقف بلاغة الشعر كذكر الحماسة فى كلام حسان بن ثابت حيث يقول .

لنا الجفنات الغر يلمعن في الضحى وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

وكالاستئثار بالفخر فى شعر الفرزدق الذى يقول فيه (٢)

ترى الناس ان سرنا يسيرون خلفنا وان نحن أومأنا الى الناس وقفوا

وكالتوجع بالرثاء في قصيدة الهذلىّ التى يجزع فيها على فقد أولاده الا

(١) الموازنة والاغانى (٢) العقد والاغانى والكشكول

طفلا صغيراً بقى له ومن جملتها البيت المشهور (١)

والنفس راغبة اذا رغبتها   واذا ترد الى قليل تقنع

وكذكر عامة الشباب فى شعر جميل وذى الرمة وعمر بن أبى ربيعة (٢) بحيث ان لهم فى ذكر محاسن النساء من الاوصاف البارعة مع عذوبة الالفاظ وجودة السبك مالا يوجد مثله لاحد من شعراء العرب غير الثلاثة المتقدمين الى غير ذلك .

ثم ان الشعر يقع فى الحضارة بعد هؤلاء الجيدين ويفقد كثيراً من البلاغةالتى كانت في لسان الجاهليين لابراز المعانى فىفصيح الكلامالا انه لا ينحط عنه فى الاوصاف البارعة وتناول المعانى من حيث الشعر نفسه فلقد نجد لبعض المحدثين من سعة التصرف به وسرعة الخاطر الى النظم ما لولا أن تأخرت أيامهم لحسبناهم فى طبقات المتقدمين على أن كلامهم ليس من الفصاحة بالموضع الذى كان للجاهليين والعذر لهم فى ذلك ان شاعر البادية انما كان يلتمس الفصيح من الالفاظ ليسمو كلامه على كلام غيرهمن الشعراءواللغات اذ ذاك كثيرة فى عشائرهم أما اليوم فاناللسان الذى نزل به القرآن معروفلدى كل انسانفلا يضطرالشاعر الى التماس ألفاظ يفضل بها لسان غيره لتوحد لغة قريش فى كافة الامصار . وانما وجب عليه أن يبتدع المعانى التى لم يسبق اليها غيردون تكلفه الىتناول

(١) العقد والاغانى (٢) صاحب الاغانى يفضلهعلى شعراء زمانه وربما فضله فى النسيب على شعراء الجاهلية

الغريب من الكلام (١) لان الالفاظ السوقية لا تمنع (٢) أن تكون القصيدة جيدة .

ولقد ينقسم الشعر فى الاسلام (٣) الى طبقات ثلاث أقربها الى فصاحة البداوة أبعدها عن حضارة الاسلام . أولها عصر عبد الملك والشعر اذ ذاك فى ثلاثة من تميم (٤) وهم جرير والفرزدق وهو نبغة (٥) الشعر والاخطل النصرانى وهو المجيد فى مدح الملوك (٦) ووصف الخمر وكان المقدم عليهم جرير وقد فضل الشعراء (٧) بقوله فى المديح

ألستم خير من ركب المطايا　　وأندى العالمين بطون راح

وقوله فى النسيب (٨)

ان العيون التى في طرفها حور　　قتلننا ثم لم يحيين قتلانا

يصرعن ذا اللبّ حتى لا حراك به　　وهن أضعف خلق الله انسانا

وهذا من الكلام الذى تتناهى اليه رقة أهل الصبابة ولم نجد من بعده مثله الا فى شعر جميل وكثيّر وقد استرسلا جميعاً فى معاش الشباب وانقطعا الى النسيب (٩) من مذاهب الشعر يقول كثير (١٠)

---

(١) ذكر الاغانى ٣*١٤٥ أن الشعراء يستعملون الغريب من الالفاظ (وذلك فى زمن الرشيد) (٢) الاغانى ٣*١٣٣ و١٧٣ (٣) أي فى المتمصرين من الشعراء دون أهل البادية (٤) الاغانى ١٩*٦ (٥) الاغانى ١*١٤٧ (٦) الاغانى ٩*١٤٧ (٧) الاغانى ١٠*٢ وفى غير موضع والوطواط ١١١ وابن خلكان ١*١٤٣ والعقد الفريد ١*١٥٠ (٨) الموازنة ٤ (٩) الاغانى ٤*٥٨ والكشكول والعقد الفريد ٣*١٧٢ (١٠) الاغانى وتزيين الاسواق وابن خلكان والمستطرف

أريد لانسى ذكرها فكانما تمثل لى ليلى بكل سبيل

ويقول جميل

وما زلتم يا بثْنُ حتى لو أننى من الشوق أستبكى الحمام بكى ليا
وماأحدث النأى المفرّقُ بيننا سلوّا ولا طول الليالى تقاليا
على أننى راض بأن أحمل الهوى وأخاص منه لا علىّ ولاليا

ومن كلامه (١)

خليلىّ فيما عشتما هل رأيتما قتيلا بكى من حب قاتله قبلى

وأول الابيات قوله

لقد فرح الواشون أن صرمت حبلى بثينة أو أبدت لنا جانب البخل
يقولون مهلا يا جميل واننى لاقسم ما بى عن بثينة من مهل

والناس يستحسنون ذلك . ولا يقاربه فى النسيب الاقول الاحوص (٢)

اذا قلت انى مشتف بلقائها فحمّ التلاقى بيننا زادنى سقما

وأما الطبقة الثانية فانها عصر أبى جعفر رحمه الله وشعراؤه من تقدم لك ذكرهم . والطبقة الثالثة هى زمن الرشيد والبرامكة وشعراؤها اكثر من يأخذهم الاحصاء ولكنى لا أرى فيهم الا أبا العتاهية وأبا نواس ومسلم ابن الوليد وهم أشعر أهل هذا الزمان كما ستراه .

فأما أبو العتاهية فانه انقطع فى شعره الى ذكر أحوال الآخرة (٣)

---

(١) الاغانى والعقد الفريد ١*١٤٦ والحصرى ٢*١٦٣ (٢) الاغانى ٤*٥٧
(٣) الاغانى ١٠*٣٢

وله أرجوزة حوت أربعة آلاف بيت أودعها من المعانى الجليلة ماأبرزه في أحسن صورة من ذلك قوله « روائح الجنة فى الشباب » وهو قول يقبله القلب ولا يفسره اللسان (١) والناس يقولون انه خرج عن العروض بوزن لم يذكره الخليل بن أحمد ولكنى لا أرى ذلك خطأ يعاب فيه كمن يتطاول على قواعد العلوم لان الخليل لم يستوف الكلام فى هذا العلم الذى وضعه ولاسيما فى بحر المتدارك فان من العروضيين من زاد فيه على ما ذكر (٢) وقد كان أبو العتاهية من الحظوة عند الرشيد بحيث لم يفارقه في حضر ولا فى سفر (٣) ثم آل أمره الى الزهد (٤) فلبس الصوف وعزفت نفسه عن الدنيا وكان يقول (٥) .

كانّ كل نعيم أنت ذائقه   من لذة العيش يحكى لمعة لآل

فصار اذا دعاه اليه ليصف له ما هو فيه من زخارف الملك يبادره بالتذكير والموعظة (٦) فيبكى الرشيد من ذلك فيهمّ الجلاّس الى معاتبته فيقول لهم الرشيد دعوه انه يرانا فى عمى فيكره أن يزيدنا منه .

وأما أبو نواس فان مذهبه فى الشعر مضاد لمذهب أبي العتاهية وأكثر ما يتضمنُ شعره الغزل والزهر وذكر المنادمة والخمر تبعاً لما نعرفُ لهُ من مما زحة الملوك (٧) فهو يذكر ابليس والخمر فى شعره كما يذكر

(١) الاغانى ٣*١٤٣ (٢) المسعودى ٢*٢٦٥ (٣) الاغانى ١١*٣٢ (٤) الاغانى ١١*٣٢ (٥) الاغانى ٢*١٦٢ (٦) ابن الاثير ٦*٧٩ والفخرى ٢٣٠ والطرطوشى ١٧ والكشكول (٧) الاتليدي وحلبة الكميت وتزيين الاسواق

أبو العتاهية الآخرة والجنة فيقول (١)

عجبت من ابليس فى كبره   وخبث ما أضمر من نيته
تاه على آدم فى سجدة   وصار قواداً لذريته

ثم يقول فى معرض آخر (٢)

وليلة طال سهادى بها   فجاءنى ابليس عند الرقاد
وقال هل لك فى قهوة   عتّقها العاصر من عهد عاد

ويقول فى مدح الخمر (٣)

صفة الطلول بلاغة القدم   فاجعل صفاتك لابنة الكرم

ويقول (٤)

فعلت فى البيت اذ مزجت   مثل فعل الصباح فى الظلم
فاهتدى سارى الظلام بها   كاهتداء السفر بالعلم

ويقول فى المنادمة عليها (٥) من قصيدة قد طارت له.

ألا فاسقنى خمراً وقل لى هى الخمر   ولا تسقنى سراً اذا أمكن الجهر

ويقول (٦)

واذا جلست الى المدام وشربها   فاجعل حديثك كله فى الكاس

ومن استعاراته الفائقة قوله (٧)

---

(١) اعلام الناس ١١٩ (٢) اعلام الناس ١٢٠ (٣) الحصرى ٢*٦٢ (٤) المسعودي ٢*٤٢٢ (٥) الوطواط ٤٥ وغيره (٦) خزانة الادب ٤ (٧) خزانة الأدب ٥٠٧

بسم الصباح لاعين الندماء   وانشق جيب غلالة الظلماء

ويقول في وصفها مما لم يسبقه اليه أحد (١)

وحمراء قبل المزج صفراء بعده   كأنّ شعاع الشمس يلقاك دونها

ويقول فى انشراح الصدور من شربها (٢)

اذا ما أتت دون اللهاة من الفتى   دعا همه من صدره برحيل

ويقول فى نعتها مما ينتهى اليه جمال التصور ورقة الكلام (٣)

رَقَّ الزجاج وراقت الخمر   وتشابها فتشا كل الامر

فكأنما خمر ولا قدح   وكأنما قدح ولا خمر

وله في صفاتها ونعت طعمها وريحها ولونها وشعاعها وحال المنادمات عليها والاصطباح والاغتباق (٤) ما توسع فيه الى أدب ليس للشعراء حظ به مثله وهذا مما يدل على اقتداره فى الشعر وان كان مذهبه غير محمود عند أهل الصلاح وهو عندى شاعر الشعراء حقيقة (٥) واني أفضل شعره على شعر أبى العتاهية لان قصائده كلها سالمة من العيب (٦) أما أبو العتاهية فانه وان كانت له استخراجات لطيفة ومعان ذاربفة الا أنه يقول البيت النادر ثم يتبعه بالبيت السخيف البارد (٧) وقد ذكر لى ورّاق

---

(١) المسعودي ٢*٤٢٣ (٢) اليتيمة ٩٦ (٣) ذكر ابن خلكان ان هذا الشعر ليس لأبي نواس (٤) المسعودى ٢*٤٢٢ (٥) ذكر صاحب العقد الفريد فى باب من الرقائق من المجلد الثالث أن أبا نواس من أقدر الناس على الشعر وأطبعهم فيه (٦) القيروانى وابن خلكان (٧) الاغانى ٣*١٨٠

فى درب القراطيس (١) كنت آلف حانوته أنه مر به أبو العتاهية يوما وعنده ديوان لابى نواس فوقع نظره على هذا البيت (٢)

لن ترجع الانفس عن غيها ... مالم يكن منها لها زاجر

فسألنى لمن البيت فقلت لأبى نواس فقال والله انى أحب أن يكون لى هذا البيت بنصف شعرى (٣) اه وأظن أنه لو وقف على قوله .

ليس على الله بمستنكر ... أن يجمع العالم فى واحد(٤)

أو قوله وهو أمدح بيت للمحدثين

وكلت بالدهر عينا غير غافلة ... بجود كفك تأسو كلما جرحا

لقال فيهما مثل ذلك . ولقد لقيت اسماعيل بن نوبخت في مجالس البرامكة وقد جرى الحديث بحضرتهم عن الشعراء فقال سمعت بعض الناس يقول ان الاصمعى أعلم الشعراء وأشعر العلماء فوالله مارأيت أحق بهذا الوصف أن يقال فيه من أبى نواس لانى مارأيت في أهل الادب من هو أوسع علما فى كل شىء منه وليس فى الشعراء من مبار . يعلق له بغبار . وكنى فى تحقيق فضله عليهم أن كلامه كله موزون (٥) مثل الشعر الذى رسخت فى صدره ملكته وصار فى نفسه طبيعة ترفعه على جميع

---

(١) من شوارع بغداد ذكره ابن خلكان ١*١٦٥ ,٢) ذكر صاحب العقد الفريد هذا البيت فى الامثال السائرة وأبدل الشطر الثانى منه بقوله « حتى يرى منها لها واعظ »(٣) الطرطوشي ١٠ ٤، الاغانى واليتيمة١٠٢ وخزانة الادب ٥٠٠(١) ابن خلكان

الشعراء وأما مسلم بن الوليد الملقب بصريع الغواني فانه أرق الشعراء غزلا وألطفهم صنعا وأكثرهم من المعانى حظا (١) الا أن ميله مع أهل البيت وقوله الشعر فى مديحهم هو الذى جعله مقصيا عن محاضرة الخلفاء بل جعل فى نفوسهم موجدة عليه لما كانوا يرون من استمساك الناس بشعره وقد أبدع مصاغه ورصعه بدرر البلاغة ولقد ظفر به الرشيد فحمد الله على ذلك بحضر من الجلساء كأنما قد ظفر بملك من كبراء الملوك فلما بدأ يعاتبه قال إيه يا مسلم أنت القائل.

أنس الهوى ببنى علىّ في الحشا وأراه يطمح عن بنى العباس

فاعمل فكرته في استبداله بمدح عاهُ يستشفعهُ عندهُ ويكون وسيلة لسلامته من القتل وقال بل أنا ياأمير المؤمنين الذى أقول .

أنس الهوى ببنى العمومة فى الحشا مستوحشا من سائر الايناس

واذا تكاملت الفضائل كنتم أولى بذلك يا بنى العباس

فعجب الرشيد من سرعة بديهته وقال له بعض جلسائه استبقه يا أمير المؤمنين فانه من أشعر الناس (٢) وامتحنه فسترى منه عجبا فرق له الرشيد وفي نفسه من الميل الى الادب ماقد علمت ثم قال له أنشدنا

---

(١) ذكر له ابن الاثير ٦*٥٢ بعض أبيات في عرض التاريخ وقال انها حسنة جدا وذكر الحصري أيضا جملة أبيات وقال ان الطائى كان يعول عليه وعلى أبى نواس وان مسلما أول من لطف البديع . وكسا المعانى حلل اللفظ الرفيع (٢) كان مسلم بن الوليد من اشعر الناس ولكنى لم أر له ترجمة فى الاغانى ولا فى ابن خلكان وما نقلناه هنا مأخوذ من كتاب العقد الفريد ١* ٩٠

أشعر بيت لك فقال يا أمير المؤمنين أفرخ روعى أفرخ الله روعك يوم الحاجة الى ذلك فانى لم أدخل على خليفة قط فأمره بالجلوس ثم شرع فى الانشاد وكلما فرغ من قصيدة قال له التى تقول فيها الوحل فانى رويتها وأنا صغير فانشده شعره الذى أوله .

أديرا علىّ الراح لاتشربا قبلى ولا تطلبا من عند قاتلتى ذحلى(١)

حتى اذا انتهى الى قوله .

اذا ماعات منا ذؤابة شارب تمشت بنا مشى المقيد فى الوحل

ضحك الرشيد وقال عليك أما رضيت أن تقيده حتى يمشى فى الوحل ثم أمر له بجائزة وخلى سبيله .

هؤلاء الثلاثة أشعر الشعراء وهم الذين زينوا الدولة العباسية كما كان الثلاثة المقدم ذكرهم فى الفصل السابق يزينون زمن الجاهلية ولقد لقيت فى بغداد كثيراً غيرهم من الشعراء مثل العمانى وأبى مصعب وأبى الشيص وأبى عبد الرحمن العطوى وغيرهم واتصلت بى أخبار جماعة ممن يتصرفون بفنون الشعر ويبتدعون القول الذى لم يشركهم فيه غيرهم الى أن ينظموا القصائد التى ليس فى أبياتها حرف معجم كقولهم(٢)

وحاولوا رد أمر لا مرد له والصرم داء لاهل اللوعة الوصل

الا أنهم قد كانوا فى أيام أبى نواس ومسلم بن الوليد فضاع بينهما فضلهم

---

(١) فى المجلد الثالث من العقد الفريد ١٧٦ سبعة أبيات أخر من هذه القصيدة

(٢) الاغانى ٤*١٠٧

ولم يكن لهم ذكر في مجالس الخلفاء وأهل الادب.

《 الغناء وتحريره واصلاحه 》

قد مضى فى بعض كتبي السالفة من الكلام عن الغناء مايقضى بصحة ذوق العرب وحسن مايصنعون من الاصوات وكان أصله عندهم أربعة نفر (١) ابن سريج وابن محرز وهما مكيان ومالك ومعبد وهما مدنيان اذ كان أصل الغناء ومعدنه فى أمهات القرى من بلاد العرب ظاهرا فاشيا وهى المدينة والطائف وخيبر ووادى القرى ودومة الجندل واليمامة وهذه البلاد مجامع أسواق العرب (٢) وكانت النساء يشاركنهم فى صناعة الاصوات وقد نبغ فيهن عزة الميلاء بالغناء الموقع الى أن صارت أحسن الناس ضربا بعود (٣) وكان لها استاذة يقال لها رائقة فاحتذت فنها فى تنسيق الانغام ثم قدم الحجاز سائب ونشيط وغنيا بالفارسية فأخذت عزة عنهما نغما وألفت عليها ألحانا كثيرة لينة كما نجد في غناء النساء (٢) ثم ظهر طويس المغنى فصنع الرمل والهزج (٤) وأول ماغنى به على لحن صنعه قوله (٥)

قد برانى الشوق حتى ... كدت من وجدى أذوب

ثم غنى ابن مسجح الغناء المنقول من الفارسى (٦) وأشهره بين الناس وكان ابن سريج يضرب بالعود على غنائنا الى أن ظهر معبد في المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة وأزكى التحية فصنع من الاصوات البديعة

---

(١) الاغانى ١*٩٨ (٢) العقد الفريد ٣*٢٤٧ (٣) الاغانى ١٦*١٣ (٤) الاغانى ٥*٥٧ (٥) الاغانى ٤*٣٨ (٦) المستطرف ٢*١٨٨ والعقد الفريد ٣*٢٣٧

مافضل فيه غيره من أهل زمانه والمعاصرين له وفيه يقول شاعر تلك الأيام (١)

أجاد طويس والسروجي بعده   وما قصبات السبق الا لمعبد

وقد كان الغناء قبل نقله عن الفارسية مأخوذا عندهم عن الأذان (٢) فلما نقلوه عن قومنا واستعانوا بكتاب لبطليموس فى اللحون الثمانية (٣) عرّبوه في خلافة أبي جعفر (٤) أجادوا بتأليف الاصوات الى أن فضلونا اليوم في الغناء ونبغوا فيه النبغة التى ما كنت أحسبهم يصلون اليها في زمن من الازمان وما مكنهم من استكمال هذه الصناعة الا أمران . الاول انفراد كل واحد منهم بلحن من الالحان يتفنن فيه ويصنع فيه الاصوات الحسان حتى يفوق ألحان غيره من المغنين كانفراد معبد بالثقيل (٥) وابن سريج بالرمل وحكم الوادى بالهزج (٦) وأحمد النصيبيّ بالانصاب (٧) وفليح ابن أبي العوراء بلحن النواقيس والموصلي باللحن الماخوريّ أما الخفيف الرمل فانهم يشتركون فيه جميعا بحيث لم أجد مغنيا اذا تغنّى لنفسه يكاد يغنى الا خفيف الرمل (٨) والثانى ما كانوا يتناولونه من الخلفاء جوائز ومن الامراء وأهل النعمة أجرة واسعة على غنائهم ممن يستدعيهم الى الى فرح أو يجمعهم لمناظرات الصناعة ثم يخرج بدر الدنانير لاجازة المحسنين (٩) منهم ولقد سئل حنين المغنى وقد دعى الى مأدبة لا يعهد

---

(١) ابن نباتة والاغانى ٣ * ٨٦ (٢) ابن خلكان ١ * ٥٧١ (٣) الاغانى ٨٩٥ (٤) ابن نباتة (٥) الاغانى ٦ * ٦٦ (٦) الاغانى ٥ * ١٤١ و٦ * ١٣٠ (٧) الاغانى ٥ * ١٦١ (٨) الاغانى ٧ * ٣٦٠ (٩) الاغانى ١٤ * ٥٥

في صاحبها السماحة لم لا ترضى بالاجرة اليسيرة فقال انما هي أنفاسي أقسّمها بين الناس أفتلومونني أن اغلي بها الثمن .

ثم ظهر عصر البرامكة أعز الله ملكهم وهم محبون للعلم ومقربون اليهم أهل الادب فكان ممن قربوه من المغنين ابراهيم الموصلي(١) وابنه اسحق وهما بمكان جليل من الادب الا أنه غلب عليهما الغناء بما وضعاه من الالحان فاشتهرا بالكناية به كما رأيت . وقد وضع ابو اسحق اللحن الماخوري الذي لم يشركه فيه أحد من المغنين وكان يظن لصعوبة المأخذ

---

(١) وجدت في بعض الكتب حكاية فيها ذكر ابراهيم الموصلي وخبره مع ابليس فاحببت ان اذكرها في هذا المقام لانها قديمة عهد بوضعها وتدل على شيء مما كان يجري به حديث الناس في ذلك الوقت قال صاحب الاغاني اخبرنا محمد ابن مزيد قال حدثنا حماد بن اسحق عن أبيه عن جده ابراهيم قال سألت الرشيد أن يهب لي يوما في الجمعة لا يبعث الي فيه بوجه ولا سبب لأخلو فيه بجواريّ واخواني فأذن لي في يوم السبت وقال هو يوم استثقله فاله فيه بما شئت قال فأقمت يوم السبت بمنزلي وتقدمت في اصلاح طعامي وشرابي بما احتجت اليه وأمرت بوابي فأغلق الابواب وتقدمت اليه أن لا يأذن عليّ لاحد فبينا أنا في مجاسي والحرم قد حففن بي وجواري يترددن بين يدي اذا أنا بشيخ ذي هيئة وجمال عليه خفان قصيران وقميصان ناعمان وعلى رأسه قلنسوة لاطية وبيده عكازة مقمعة بفضة وروائح المسك تفوح منه حتى ملأ البيت والدار فداخلني بدخوله عليّ مع ماتقدمت فيه غيظ ماداخلني قط مثله وهممت بطرد بوابي ومن حجبني لأجله فسلم عليّ أحسن سلام فرددت عليه وأمرته بالجلوس فجلس ثم أخذ في أحاديث الناس وأيام العرب في أحاديثها وأشعارها حتى سلى مابي من الغضب وظننت أن غلماني تحروا مسرتي

في ابتــداعه أن ابليس هو الذى ألقاه عليـه في المنام فلقد طال ماتهوس بالغناء وأمعن في تنسيق الالحان على أتم ابداع وأحسنه موقعافيالنفوس

بادخالهم مثله عليّ لأدبه وظرفه فقلت هل لك فيالطعامفقال لاحاجة لى فيه فقلت هل لك فىالشراب فقال ذلك اليك فشربت رطلا وسقيته مثله فقال لى ياأباااسحق هل لك أن تغنى لنا شيأ من صنعتك وما قد نفقت به عندالخاص والعام فتعاظمنى قوله ثم سهلت على نفسى أمره فأخذت العود فجسسته ثم ضربت فغنّيت فقال أحسنت ياابراهيم فازداد غيظى وقلت مارضى بما فعله من دخوله عليّ بغـير اذن واقتراحه عليّ أن أغنيه حتى سمانى ولم يكننى ولم يجمل مخاطبتى ثم قال هـل لك أن تزيدنا فتذممت وأخـذت العود فغنيت فقال أجدت ياأبا اسحق فأتم حتى نكافئك ونغنيك فأخذت العود وتغنيت وتحفظت وقمت بما غنيته اياه تحفظا تاماما تحفظت مثله ولاقمت بغناء كما قمت به له بين يدى خليفة ولا غيره لقوله لى أكافئك فطرب وقال أحسنت ياسيدي ثم قال أتأذن لعبدك بالغناء فقلت شأنك واستضعفت عقله فيأن يغنينى بحضرتى بعد ماسمعه منى فأخذ العود وحبسه وجسه فوالله لخلته ينطق بلسان عربى لحسن ماسمعته من صوته ثم تغنى

ولى كبد مقروحة من يبيعنى ... بها كبدا ليست بذى قروح
أباها على الناس لايشـترونها ... ومن يشترى ذاعلة بصحيح
أئن من الشوق الذى فى جوانحى ... أنين غصيص بالشراب جريح

قال ابراهيم فوالله لقد ظننت الحيطان والابواب وكلما فى البيت يجيبه ويغنى معه من حسن غنائه حتى خلت أنى وعظامى وثيابى تجاوبه وبقيت مبهوتا لاأسـتطيع الكلام ولا الجواب ولاالحركة لمـا خالط قلبى ثم غنى

ألا ياحمامات اللوى عدن عودة ... فانى الى اصواتكن حزين
فعــدن فلما عدن كدن يمتننى ... وكدت بأسرارى لهن أبين

حتى توهم أن الارواح هي التي كانت تظهر عليه وتعلمه الاصوات التي يعجز عنها غيره من الانس وقد قالت الشعراء في مدحه على موضعه

دعون بترداد الهدير كأنما سقين حميا أو بهن جنون

فلم تر عيني مثلهن حمائما بكين ولم تدمع لهن عيون

فكاد والله علم الله عقلي أن يذهب طربا وارتياحا لما سمعت ثم غنى

ألا ياصبا نجد متى هجت من نجد لقد زادني مسراك وجدا على وجدي

بكيت كما يبكي الحزين صبابة وذبت من الحزن المبرح والجهد

وقد زعموا أن المحب اذا نأى يمل وأن النأي يشفي من الوجد

بكل تداوينا فلم يشف ما بنا على أن قرب الدار خير من البعد

ثم قال يا ابراهيم هذا الغناء الماخوري فخذه وانح نحوه في غنائك وعلمه جواريك فقلت أعده على فقال لست تحتاج قد أخذته وفرغت منه ثم قام من بين يدي فارتفعت وقمت الى السيف فجردته وعدوت نحو أبواب الحرم فوجدتها مغلقة فقلت للجوارى أي شيء سمعتن عندي فقلن سمعنا أحسن غناء سمع قط فخرجت متحيرا الى باب الدار فوجدته مغلقا فسألت البواب عن الشيخ فقال أى شيخ هو والله مادخل اليوم اليك أحد فرجعت لاتأمل أمرى فاذا هو قد هتف بى من بعض جوانب البيت لا بأس عليك ياأبا اسحق أنا ابليس وأنا كنت جليسك ونديمك اليوم فلا ترع فركبت الى الرشيد وقلت لاأطرفه أبدا بطرفة مثل هذه فدخلت عليه فحدثته بالحديث فقال ويحك تأمل هذه الابيات هل أخذتها فأخذت العود وامتحنتها فاذا هي راسخة فى صدرى كأنها لم تزل فطرب الرشيد وجلس وشرب ولم يكن عزم على الشراب وأمر لى بصلة وحملان وقال الشيخ كان أعلم بما قال لك على انك أخذتها وفرغت منها فليته أمتعنا بنفسه يوما واحدا كما أمتعك. الاغانى ٥-٣٦ وحلبة الكميت ٥٨ والاتايدي

١٠٠ قوله «الايا حمامات اللوى» من كلام مجنون بنى عامر كما فى العقد الفريد ٣-١٨٤

الجليل من الغناء

ما لابراهيم في العلم بهذا الشأن ثانى
انما عمر أبي اسحق زين للزمان
جنة الدنيا أبو اسحق في كل مكان
منه يجنى ثمر اللهو وريحان الجنان

وكذلك كانت اجادة ابنه اسحق وقد وضع لحن التخنيث(١) الذى لم يسبقه اليه سواه وصنع ألحانا لا يقدر شبعان ممتلىء ولا سقاء يحمل قربة على الترنم بها وصنع غيرها مما لا يقدر المتكئ أن يترنم به الاقعد مستوفزا ولا القاعد حتى يقوم (٢) لانه سما في اقتداره على الغناء الى أن يجعل فى نفس السامع تحركا لما يغنى بمعناه من الاشعار فيحملها على الكبر في معرض المديح وعلى الحماسة والاعجاب في مقالات الفخر وعلى الرقة والصبابة في استرسال الهوى وعلى البكاء والغصة في موقف التذكير والوحشة وذلك فضلا عن اجادته في ضرب العود ولقد كنت يوما بدار الرشيد وفي مجلسه عشر جوار يضربن على العيدان فوقع خلل في مجرى أصبع على بعض الاوتار فعرفه من بين أربعين وترا (٣) تتحرك بين أناملهن فهذا اقتدار غريب على هذه الصناعة لا أظن أن اليونان قد بلغوه منها مع اتصال

(١) الاغانى ٥*٣٣٦ (٢) الاغانى ٣*٧٩ (٣) الاغانى ١*٢٠ وفى الحصرى ٢*٢٠٦ قال اسحق انما يجيد الغناء من يقرع مسمع كل واحد من الناس بالنحو الذى يوافق هواه ويطابق معناه (٤) الاغانى ٥*١٠٤ و٥٣ و٦٠

مدتهم أجيالا طوالا يستعملونها ويمارسون طرائقها .

وقد كتب اسحق رسالة مطولة في الغناء صحح فيها أجناسه وأنغامه وطرائقه وميزه تمييزا لم يقدر عليه سواه (١) حتى لقد خطأ يحيي المكىّ فيما دوّن من الغناء ويونس الكاتب في الرسالة التى نسب فيها الاصوات الى من ابتدعها من المغنين (٢) الا أنه كان يرى ليونس فيما سبق الى تدوينه من الاغانى ونسبتها الى أصحابها فضلا أعظم من فضل يحيي فيما حاول تمييزه من الغناء على فساد جعل كتابه كالمطروح لكثرة تخليطه في رواياته (٣) لان هذا هو المبدأ الذى يتصعب له اسحق ويناظر فيه من يقول بضده من أولاد الخلفاء وغيرهم كما مرّ في موضعه من الكتاب

ومن حذق اسحق في صناعة الانغام أنه أقام طرائق الغناء من نفسه دون نقل عن كتب اليونان الا فيما اقتبسه من تقسيمات أقليدس (٤) وما هو الا النزر اليسير في جانب الكثير الواسع من علمه فقد ميز (٥) أجناس الغناء كله وجعل الثقيل الاول أصنافا فبدأ فيه باطلاق الوتر في مجرى البنصر ثم أتبعه بما كان منه بالبنصر في مجراها ثم بما كان بالسبابة في مجرى البنصر ثم فعل هذا بما كان منه بالوسطى على هذه المرتبة ثم جعل الثقيل الاول صنفين الاول ماذكرناه والثانى القدر الوسط من الثقيل الاول وأجراه المجرى الذى تقدم من تمييز الاصابع والمجارى وألحق بذلك جميع الطرائق

---

(١) الاغانى ٦*١٨ (٢) الاغانى ٥و٦ (٣) الاغانى ٦*١٧ (٤) الاغانى ٥: *٨

(٥) الاغانى ٥*٥٣

والاجناس وأجراها على هذا الترتيب وميزها على اكثر من عشرة آلاف صوت للمغنين لم يغير فيها لحنا واحداً وذلك بخلاف الذين دوّنوا الغناء قبله وبعده فانهم أضاعوا صناعة الغناء القديم الا أحمد بن يحيي المكى المقدم ذكره في كتاب له في الاغانى ونسبها يقال له المجرد (١) فانه أصل يرجع اليه ويعول عليه ولست أعرف كتابا بعد كتاب اسحق يقارب كتابه أو يقاس به فكانه قام على مخالفة أبيه ومن ذهب مذهبه في تغيير أصوات المتقدمين ورجع الى الغناء القديم الذى سبق الى التصعب له مغن يقال له «سياط» وفد على المهدى رحمه الله وأنا مقيم في الرسالة بخراسان فلم أوفق الى الاجتماع به ولكن حسبي من تقدير موضعه الجليل من هذه الصناعة (٢) أن ابراهيم واسحاق تلميذاه (٣) واليهما المنتهى في اجادة الغناء .

لمعة فى علوم الفلسفة عند العرب

ان العلوم الفلسفية التى استخرجها العرب من كتب الاعاجم كانت مجهولة عندهم في صدر الاسلام بل في صدر هذه الدولة كما تقدم لك من الكلام الا عند نفر قليل من أهل الشام ممن جاور الرهبان وتلقى عنهم (٤) حكمة اليونان التى كانوا يحفظونها فى خزائنهم بالديورات أما اليوم فانا نجدها فى سكان الامصار من العراق ومصر والشام وبعض اهل الحجاز الاعربان البادية لأنهم لا يوجهون عنايتهم الى العلم وانما همّهم ارتياد المسارح والمزارع لحيواناتهم كما سبق الالماع اليه فى صدر الكتاب .

(١) الاغانى ١٥*٦٥ (٢) الاغانى ٦*٦٥ (٣) الاغانى ٦*٩ (٤) المقدمة ٤١٩

وهذه العلوم الفلسفية تنقسم الى أنواع أربعة (١) رياضية ومنطقية وطبيعية والهية . فاما العلوم الرياضية وهى النجامة والعدد والهندسة والغناء فانهم نبغوا فيها النبغة التى لم تكن للمتقدمين من أمم المشرق وقد تقدم في الكلام على النجامة مايقضى بفضل المنجمين من أهل الموصل وخراسان وغيرهم فيما وقفوا عليه من علم الافلاك وارصادها كما انك رأيت في الكلام على الغناء أن لابراهيم وابنه اسحق فيما ابتدعاه من الاصوات الحسان فضلا تتزين به هذه الصناعة عند العرب . واعلم أرشدك الله انه لم يكن موضعهم من العلوم العددية ومايتبعها من الجبر والمقابلة وهى صناعة استخراج العدد المجهول من قبل المفروض المعلوم (٢) إلاّ موضعهم من النجامة والغناء في تحريرها واصلاحها والاعتبار في الاقسام التى تلتحق بها من فن المناظرة والفرائض والمعاملات بتقدير الاوزان وغير ذلك وهذه هى العلوم التى يمتازون بها عن غيرهم من الامم بما وضعوه لها من القواعد التى لاغاية بعدها في الاصلاح .

وأما علم الهندسة فقد كان مرجعهم فيه الى كتاب لاقليدس المهندس من حكماء اليونان وكتاب آخر لبطليموس الذى أخرج الهندسة من القوة الى الفعل (٣) وقد عربت رسائلها فى خلافة أبي جعفر ثم أعيد تعريبها فى هذه الايام بمناظرة مهندس يقال له أبو كامل (٤) جعل مقالات

---

(١) حجى خلفة ٤*٤٦٢ (٢) المقدمة ٤٢٢ (٣) ابن نباتة (٤) هو مهندس ذكره الاغانى ٦*١٩١ .

اقايدس في جلد كبير سماه كتاب الاركان (١) وفيه خمس عشرة مقالة يبحث في الاربعة الاول عن السطوح وفي الخامسة عن الاقدار المتناسبة وفى السادسة عن نسب السطوح بعضها الى بعض وفى السابعة الى التاسعة عن العدد وفي العاشرة عن المنطقات والقوى على المنطقات ومعناها الجذور وفى المقالات الخمس الباقية بحث واسع فى المجسمات ثم ألحق العرب بهذا العلم فن الهندسة المخصوصة بالاشكال الكروية نقلا عن كتابين لميلاوش وتاودوسيوس من اليونان وفيهما بحث مسهب في الكرات السماوية وما يعرض فيها من القطوع والدوائر باسباب الحركات وألحقوا به أيضا علم المخروطات نقلا عن كتاب لابولونيوس (٢) من اليونان أيضاً فعرفوا ما يقع من الاشكال والقطوع فى الاجسام المخروطة وأفادوا النجارة والبناء (٣) بما وقفوا عليه من كيفية رفع الاثقال وجرها وغير ذلك .

وأما العلوم المنطقية ومنها الشعر والخطابة والجدل والبرهان والمغالطة وغير ذلك (٤) فان اجادتهم فيها كانت دون اجادتهم في العلوم الرياضية لانهم ماتهيأت طبعائعهم للعناية بها الا بقول الشعر كما رأيت وهو معدن حكمتهم وديوان آدابهم والمقيد لمحاسن كلامهم وقد بلغوا فيه الغاية التى لامطمح وراءها الا ما كان من كلام النبوة وان كان شعر الجاهلية جافيا لمكان أهله من الخشونة ومقامهم في القفر بين الابل والوحش والمنازل

(١) المقدمة ٤٢٤ (٢) المقدمة ٣٥٩ (٣) المقدمة ٣٥٨ (٤) حجى خلفة ٤*٤٦١

الخالية (١) فان شعر المتمصرين ليس بخال من رقة الالفاظ وجمال الصور وهم القاطنون بين فرش الحرير وأطباق الرياحين وآلات الطرب والقيان والندمان . ولقد نسمع عن أهل الاندلس أنهم يقولون شعراً أرق من النسيم (٢) وذلك لغزارة المياه في أراضيهم ونماء الرياحين في جناتهم وظهور ريح الصبا عندهم حتى كان المرتحل منهم الى المشرق اذا استقبل نسيم الغرب ذابت نفسه من الشوق الى تلك الديار التى ينفح فيها الطيب على غصن اندلسها الرطيب فيقول (٣)

واذا ماهبت الريح صبا صحت واشوقى الى الاندلس

مع ان ديار العربان قفرة واقليمهم محرق للأبدان ومجفف للعقول وذلك مما لا يولد فيهم من رقة القول وحلاوته مانجده في شعر الاندلسيين .

أما علوم المنطق فقد كان مرجعهم فيها الى كتب في المنطقيات لارسطو الحكيم (٤) عربت فى خلافة أبى جعفر (٥) بمناظرة عبدالمسيح

(١) الكشكول والأغانى (٢) راجع كتاب المقري وغيره من تواريخ الاندلس (٣) المقرى (٤) كتاب أرسطو الخاص بالمنطق يسمى النص يشتمل على ثمانية كتب أربعة منها في صورة القياس وأربعة في مادته وهى كتاب المقولات وكتاب العبارة وكتاب القياس وكتاب البرهان وكتاب الجدل وكتاب السفسطة وكتاب الخطابة وكتاب الشعر ثم ان حكماء اليونانيين بعد أن تهذبت الصناعة ورتبت رأوا أنه لابد من الكلام فى الكليات الخمس المفيدة للتصور فاستدركوا فيها مقالة تختص بها فصارت تسعا. المقدمة ٤٢٩ (٥) المسعودي ٢*٤٠٠

الحمصى وهو من أشهر النقلة بعد سلام الأبرش (١) وقد اشتملت على رسائل ثمان أربع منها فى صورة القياس وأربع في مادته (٢) وربما زادوا فيها بعض شرح وتفسير

وأما علوم الخطابة والجدل والمغالطة فقد دونوا فيها فيما استخرجوه من كتب اليونان أسفارا كثيرة ولكن من غير تمحيص يرجع بهم الى محاسن العلم إلاّ ابن العلاف (٣) خطيب هذا الزمان في رسالة له في الخطابة بدأ فيها بذكر سحبان وقس بن ساعدة وغيرهما من بلغاء العرب وخطبائهم فى الجاهلية والاسلام الى أن أتى على بيان القواعد التى تلزم الادباء في الخطابة ليجدوا بلاغة القول مع تقويم الألفاظ واكثار المعانى في قليل من الكلام

وأما العلوم الطبيعية وهي علم المبادى وعلم السماء وما فيها وعلم العالم وعلم الكون والفساد وعلم المعادن والنبات والحيوان وفيه علم الطب فقد كان مرجعهم فيها الى كتب الاعاجم كمرجعهم اليهم فى جميع مالم يكونوا يعرفونه من العلوم قبل أبى جعفر كما ترى الا ما وقفوا عليه بأنفسهم من حقيقة المعادن فى علم الكيمياء وهو النظر في المادة التى يتم بها كون الذهب والفضة بالصناعة فتوصلوا به الى معرفة أمزجة المكونات وحقيقة المعادن والمفضلات الحيوانية من العظام والريش والبيض والعذرات

---

(١) حجى خلفه ٣*٩٧ (٢) المقدمة ٤٢٨ (٣) ذكره ابن جلجل . *٩٢

وغير ذلك (١) وكان الناس من أهل الادب يصبون الى هذه الصناعة بما في منوعاتها وممزوجاتها من تسلية الخاطر مع تنوير العقل وتوسيع نطاق المعرفة حتى ان الملوك أنفسهم كانوا يتمهرون فى استخراج المركبات ومزجها على غير ترفع عنها . فهذا خالد بن يزيد بن معاوية الاموى قد شغل نفسه بطلب الكيمياء ودون فيها الرسائل العديدة حتى أفنى عليها عمره (٢) وهذا جعفر الصادق أحد الائمة الاثنى عشر ومن سادات أهل البيت قد ترك فى مجاميعه اكثر من خمسمائة رسالة فى علم الكيمياء والزجر الا أن هذه الرسائل لم تكن حاوية من العلم الا ما وقف عليه أصحابها بطريق التجربة والاختبار فبقيت الكيمياء مفرقة غير مجموعة حتى قام جابر بن حيان الطرسوسى وهو تلميذ جعفر الصادق رضى الله تعالى عنه فكتب سفراً جليلا فى علل المعادن (٣) ودون الكيمياء فى سبعين رسالة ربطها باصول العلم ونبذ من مذاهب المتقدمين ما لم يؤيده التحقيق فى مجرباته وقد قسم هذه الصناعة الى قسمين منها القوة النفسية وهى السيمياء ومنها القوة العلمية وهى الكيمياء وأدخل العلوم السحرية في السيمياء وذلك لان احالة الاجسام النوعية من صورة الى صورة أخرى انما يكون بالقوة النفسية لا بالصناعة العامية . وقد وضع القواعد على منهاج لم يشركه فيه أحد ولا قدر على مثلها حكماء اليونان أنفسهم ولذلك نسب اليه هذا العلم

(١) الاغانى ١٦*٨٨ والعقد الفريد ٢*١٤٣ (٢) ابن خلكان ٥*١٤٦ (٣) حجى خلفه ٤*٢٤٦

وصار علم الكيمياء يسمى بعلم جابر (١) أما الذين اشتغلوا فيها بعده فقد قصروا دون الغاية التي بلغها منها وربما أكب عليها جماعة بما طمعوا فيه من تكوين الذهب واحرازه ولذلك لم يقيدوا مجرباتهم ومصطنعاتهم بالقواعد الثابتة بل جروا على مذاهب ضعفاء العقول من اليونان مثل طماوس وغيره وزعموا أن لهم طريقة لاستخدام الجن (٢) في هذه الصناعة فلم يكن طائل فيما صنعوه . ولا فائدة مما دونوه ووضعوه .

وأما العلوم الالهية وهي السياسات والحرب والفلاحة وعلم الاخلاق وسياسة الاخلاق وغير ذلك فلم يكن للعرب نبوغ فيما نقلوه عن كتب اليونان والفرس وانما ينفرد حسن نظرهم في علوم الدين كما رأيت وفي علم الكلام الذين وضعوه تحفظا (٣) من العلوم الحكمية اذ كانت تخالف الشرع الشريف (٤) فتوسعوا منه الى أدب له بعض الفروع وقد رأيت لهم كتبا في السياسة المدنية (٥) يذكرون فيها تدبير المنزل بمقتضى الحكمة ليحملوا العامة على منهاج يكون فيه حفظ النوع وبقاؤه وذلك أحسن مالهم من التاليف التي فيها رأى ونصيحة أما غير ذلك من علم السياسات فلم يكن لهم منها الا بضاعة مزجاة لانهم لم يتطرقوا اليها قبل هذا الزمان ولا نعلم الى أين يبلغون منها ولا ماتقرره في نفوسهم من الفائدة وفي

(١) المقدمة ٤٦٣ (٢) المقدمة لابن خلدون (٣) ابن خلكان ١*٦٨٧ (٤) حجي خلفه ٣*١٠٠ (٥) ذكر هذا ابن خلدون في المقدمة ٣٣ وابن خلكان ٢*١١٢ و١١٤

معايشهم وآدابهم من المنفعة والله سبحانه وتعالى أعلم وهو ولى المؤمنين لارب غيره ولا معين سواه

﴿ أدب السير والحكايات ﴾

نفرد هذا الباب لذكر الحكايات والقصص فانها فن بل علم بل أدب قد هوت اليه أفئدة العرب وأول من سبق الى تدوينه عبدالله بن المقفع وهوالكاتب المشهوربالبلاغة (١) والذى كان قائما بديوان الانشاء فى خلافةأبى جعفر (٢) له كلام على الملوك يشهد بأنه كان عارفابالسياسة (٣) ومقالات فى البلاغة تشير الى أن الحكمة قد نطقت من نواحيه الا أن أهل زمانه قد اتفقوا وهم دونه فى العلم على أن يقولوا ان كلامه كان اكثر من علمه (٤) لانهم ماحبوا أن يرفعوا عقله الى مساماة البلغاء الذين أوتوا الحكمةوانتهت اليهم البلاغة . وقد كان تدوينه له فى تعريب كتاب هندى يقال له كليلة ودمنة (٥) وهو يتضمن حكايات وضعت

(١) العقد الفريد فى باب الكتاب وابن خلكان والمقدمة والمستطرف ١*١٥٩
(٢) المحاضرة ٢*١٣٢ (٣) الفخرى ٣١ (٤) ابن خلكان الاغانى ٨ *٧٦
(٥) ذكره المسعودي ١*٣٨ والسيوطى وذكر المسعودى ان عبد الله بن المقفع كان عالما باللغة الفهلوية وانه ترجم منها الى العربية غير كتاب كليلة ودمنة كتبا كثيرة منها كتاب الكيكين وفيه أخبار ملوك الفرس وسيرهم ١٠*١٠٩ وربما كان هو عين الكتاب المترجم بكتاب السيكس قال المسعودى ١*٦٤ ان ابن المقفع هو الذي نقله الى لسان العرب

على لسان البهائم والطير وأشير فيه الى سلائقها من الحلم والمكر والجراءة والجبن والتيقظ والذهول والعقل والحمق الى آخر السلائق لتثقيف العقول ورياضة الاخلاق بهذه الطريقة من الفكاهة لانه يستخرج من الاقوال الهزلية ضروبا من الحكمة البالغة وهو يشتمل على غرضين سياسيّ وأدبيّ فأما السياسيّ فانه داع الى العدل وزاجر عن البغي وفيه بيان سلوك الملوك فى آدابهم وتدبيرهم لامور ممالكهم وما يجب عليهم من العدول عن اللهو والغفول الى التيقظ والسهر وان الفاضل من الملوك حقيق بأن يعتبر بأقوال الحكماء ولا يقرب اليه أهل النميمة والفساد. وأما الادبيّ ففى بيان المعايش فى ظروفها وألوانها وسائر أحوالها والاقتصاد فى تدبير المنزل والمعاملات بين الناس وما ينبغي لهم فى سلوك الامور من مراعاتها بعين العقل والبصيرة ولذلك يعد كتابهُ من كتب الحكمة ونرى الفضلاء من الملوك قد أقبلوا عليه وطمحوا بأبصارهم اليه حتى ان كسرى انوشروان أنفذ طبيبه برزويه الى بلاد الهند لاستنساخه فترجمه الى الفارسية ولم تزل الملوك تعظمه الى هذا اليوم (١)

وقد وضع ابن المقفع في أول ترجمته فصلا سماه «باب غرض الكتاب»

---

(١) ذكر الحصرى أن سهل بن هرون ألّف في زمن المأمون كتابه المسمى « ثعلة وعفرة » يعارض به كتاب كليله ودمنة وانه كان ظريفا عالما حسن البيان له كتب ظريفة صنعها معارضا بها الاوائل في كتبهم بما لا يتصوبه عنهم حتى قيل له بزرجمهر الاسلام ١٨٦٥٢

وأودعه من صنوف البلاغة والحكمة ماضارع به سائر أبواب الكتاب وذكر أن أغراض واضعه « بيدبا » الفيلسوف تنقسم الى اربعة . احدها ما قصد اليه من وضعه على ألسنة البهائم ليسارع أهل الهزل الى قراءته والثانى اظهار خيالات الحيوان بصنوف الاصباغ والالوان ليكون أنسا لقلوب الملوك . والثالث أن يشتد الحرص عليه للنزهة فى صوره فيتخذه الملوك والسوقة ويكثر بذلك استنساخه ولا يبطل والرابع وهو الغرض الاقصى مخصوص بالفيلسوف خاصة .

ولقد قرأت هذه الترجمة اكثر من مرة بل أكثر من مائة مرة وأنا شغف بها لمكانها من البلاغة (١) وعهدى بجميع الكتب الاعجمية اذا عرّبت عرّيت الا هذا الكتاب فانه رأيته فى العربية أفصح منه فى الفارسيَّة وقد كان صبية البرامكة حفظهم الله يحاولون حفظه عن ظهر قلبهم ففطن لذلك أبان بن عبد الحميد (٢) ونظمه لهم بالشعر حتى يسهل

---

(١) المقدمة ٥٢٧ (٢) ذكر فى العقد الفريد ٢*٢٢٨ أنّ أبان بن عبد الحميد كان من ندماء البرامكة وله قصيدة أنشدها للفضل بن يحيي فيها حلاوة شمائله وبراعة أدبه يقول

أنا من بغية الامير وكنز ... من كنوز الامير ذو أرباح
كاتب حاسب أديب لبيب ... ناصح زائد على النصاح
شاعر مفلق أخف من الر ... يشة لما يكون تحت الجناح
لى في النحو فطنة ونفاذ ... أنا فيه قلادة لوشاح
لو رمى بى الامير أصلحه الله ... رماحا صدمت حد الرماح
كم أروى عن ابن سيرين في الفقه ... بقول منور الافصاح

عليهم استظهاره يقول في مطلع ذلك الكتاب (١)

هذا كتاب أدب ومحنه   وهو الذى يدعى كليله دمنه

فيه احتيالات وفيه رشد   وهو كتاب وضعته الهند

الى آخر الابيات فأعطاه يحيي عشرة آلاف دينار وأعطاه الفضل نصف ذلك جائزة على هذا الاستخراج لانه كان يوضع جليل من البلاغة التى ورثه عن أبيه فقد كان عبد الحميد من فحول الكتّاب الذين فتقوا اكمام البلاغة وفكوا رقاب الشعر(٢) وكان فخرا للمسلمين بما آتاه الله تعالى من البلاغة التى جمعت سحر البيان . وأخذت بمجامع الجنان . يقال انه لما ظهرت دعوة أهل البيت وكان عبد الحميد كاتبا في دولة الأمويين قال لمروان سأصدر عنك كتابا الى أبى مسلم فان قرأه حصل عندنا وجه من الآمال

لست بالضخم في روائى ولا الفدم   ولا بالمجد الدحداح

لحية كثة وأنف طويل   واتقاد كشعلة المصباح

وكثير الحديث من ملح النا   س بصير بخافيات ملاح

كم وكم خبأت عندى حديثا   هو عند الامير كالتفاح

أيمن الناس طائرا يوم صيد   في غدو أو بكرة أو رواح

أعلم الناس بالجوارح والصيد   وبالخرد الحسان الملاح

كل هذا جمعت والحمد لله   على انى ظريف المزاح

لو دعانى الامير عاين منى   شمهريا كالجلجل الصياح

(١) الاغانى ٢٠*٧٣ (٢) العقد الفريد والمسعودى ٢*١٦٣ وذكر أنه أول من أطال الرسائل واستعمل التحميدات في فصول الكتب واستعمل الناس ذلك بعده

وان لم يقرأه ذهبت الدولة منكم فلما وصل الكتاب الى أبي مسلم رحمه الله وكان عالما بمكان عبد الحميد من البلاغة قال «أبتوا الكتاب على طيه فانما فيه سحر غالب» على أني لو سئلت التفضيل بين هذين الاستخراجين لقلت ان ترجمة ابن المقفع حقيقة بأن تكتب بماء الذهب وتتحف بها خزائن الملوك .

ولما رأى الادباء اقبال الناس على الكتاب تسارعوا الى تعريب غيره من كتب السير والخرافة فترجموا عن الهندية كتاب وزره وشماس (١) وفيه أخبار ملوك الهند وبناتهم وما يتخللها من الامثال التي توسع العقول أدبا مع فكاهة وترويض أفكار وترجموا عن الفارسية كتاب هزار افسان وسموه ألف ليلة وليلة (٢) ومعنى هزارا فسان ألف خرافة وكان السبب في وضعه كما هو معروف ان ملكا من ملوك الفرس كان اذا تزوج امرأة وبات معها ليلة قتلها من الغد غيرة عليها من الرجال فتزوج بجارية من بنات الملوك ممن لهن عقل ودراية يقال لها شهرزاد وفي بعض النسخ شيرزاد فلما اتصلت به ابتدأت تخرفه وتصل الحديث عند انقضاء الليل بما يحمل الملك على استبقائها وسؤالها في الليلة الثانية عن تمام الحديث الى أن أتت عليها ألف ليلة وليلة وهو مع ذلك يباشرها الى أن رزقه الله منها بولد طرحته اليه . وأوقفته على حيلتها عليه . وكان للملك قهرمانة يقال لها رسازاد أودينارازاد (٣) كانت موافقة لها على ذلك وفي هذا الكتاب

(١) المسعودي ١*٢٩٦ (٢) المسعودي ١*٢٩٦ (٣) كتاب الفهرست

دون المائتي سمر لان السمور كان يحدّث بها في عدة ليال وهي من أظرف الحكايات التي وضعتها الفرس في غابر الدهر .

ولما راج سوق هذا الكتاب تداوله النُّساخ والكتّاب وأضافوا اليه حكايات كثيرة وضعوها على سبيل الفكاهة بما يعهد لهم من طول الباع في وضع الحكايات ولا سيّما ما يتضمن أخبار الجان ، ووصف مساكنهم تحت البحار وتزويجهم بناتهم من ملوك الانس وقصص العفاريت والهواتف وغير ذلك الى أن صار جملة ما في الكتاب حكايات عربية لا يخالطها من كلام الفرس الا القليل وهي وان كانت بعيدة عن الصدق الا أن فضل العرب في اقتصاصها انهم يتملكون فؤاد السامع برنة مأخذهم في تجميلها وزونقتها كالذي زعموا أن صيادا ألقى شبكته في البحر وظل نهاره طوله لم يظفر بسمكة فلما أزمع على الانصراف وقد أعياه الملل . وضاقت به الحيل جر الشبكة فاذا هي ثقيلة فطمع أن تكون قد اشتملت على حوت يستفيض بثمنه عن نصبه في ذلك اليوم فلما جذبها الى الشاطئ وجد فيها قمقما من نحاس وعليه خاتم سيدنا سليمان عليه الصلاة والسلام ففض ختامه فصعد منه دخان خيم على السماء فنظر في الدخان فاذا هو يجتمع ويتكون الى أن وضح منه جان من صفته كذا وكذا من الرواية فلما تدانيا جرى بينهما حديث يقبض النفس هيبة وفرقا بحيث لا يتنبه السامع الى أن هناك خرافة فاذا انتهت الحكاية الى ما أصاب الصياد من الجوهر والمال بعد أن خامره الروع وأفزعه الهول انبسط منه الخاطر المنقبض والتمس في

نفسه مثلا لهذا المسكين فوجده كثيرا في الناس فرجع الى الحكاية فوجد فيها سرا يريده الكاتب من وراء الفكاهة

واجماع الرأى على أن ليس فى حكايات الناس وقصصهم وأحاديثهم ماهو أظرف من هذه الحكايات وألطف صنعا فان فيها من الوصف البارع . والتمثيل الساطع . ماينطق بفضل العرب فيما تطرقوا اليه من وصف معايش الناس وأخلاقهم ومايتقلبون عليه من الاحوال التى توسعوا في وصفها الى أدب جزيل الفائدة جميل العائدة . فأما الحكايات التى ذكروا وقوعها في الاسلام فليس أقرب منها الى الماجريات التى تحدث ببغداد في أكثر الايام اللهم الا ماأرادوا أن يمزجوا به أخبار الخلفاء لنكتة يشوقون الى الوقوف عليها مما اتفق وقوعه للملوك مثل حكاية الخليفة الثانى وحكاية الخليفة والصياد الى حكايات غيرها يظرفون بها الخبر عن الرشيد وجعفر الا فيما يذكرون عن تطوافهما (١) ومسرور ليلا فى الاسواق متنكرين عن ان يعرفهم أحد فان ذلك ليس بالموضوع وقد ذكرت مثله في رسائلى السالفة اليك غير أنى جردته عن المبالغة التى يزين الرواة بها أحاديثهم كوقوف الرشيد فى موضع الخطر أو ارتدائه بلباس الصياد على سبيل الفكاهة أو وقوعه هو وجعفر تحت سيف ذلك الرجل الذى كاد يقتلهما لولا انهما تداركا أمره بحيلة وجدا بها السلامة والنجاة .

(١) الاتايدي ١٢٦ والاغانى ٦*٣٧؛ وغيرهم

وأما الحكايات التى زعموا أنها وقعت في قديم الزمان. وسالف العصر والأوان . فهى من الغرائب التى لا دلالة لها على الصدق وانما أقبل خلق من العوام على تصديقها لانقطاع أخبار الامم عنهم بحيث كان يتعذر عليهم معرفة غثها من ثمينها ولأن ناقل الرواية كان يحدثهم بأن كذا وكذا من الأمور الغريبة جرى فى كذا من البلدان البعيدة الشقة المتفاوتة السبيل فلو حدثهم بأن فى الشام مدينة من النحاس (١) أو بالعراق بلدا صار غديرا ثم انقلب ماؤه الى عمارة وأسماكه الى اناس لما صدقوا كلامه لانهم يطرقون هذه البلدان كل يوم وعهدهم بها على غير انقطاع وانما نقل اليهم أن ذلك كله في جزائر الواق واق وما وراءها من بلدان العجائب فاوسعوا صدورهم لتصديق كلامه بما كانوا يتشوقون الى الوقوف عليه من نعيم الناس وهم بمكانهم من عيش البداوة

ومن أظرف ماورد في حكاياتهم قصص العشق والغرام فيما أعربوا به عن محاسن النساء بين كاعب حسناء . وغانية هيفاء . وشاعرة فصحى وعجوز ذات دهاء وما توسعوا به فى كلامهم عن العشاق ووصف هنائهم فى التلاق . وتوجعهم أيام الفراق . الى وضع الحكايات التى ترتاح اليها القلوب بما تصف من النعيم الذى يبعد عن أن يتمتع به الناس وانما هو صورة تتمثل في الضمير على سبيل التخيّل كالذى يحكونه عن نتى

(١) المسعودى والقرمانى ٦*٧٧ وذكرها ابن خلدون في المقدمة ٣٢ في معرض الانتقاد على المؤرخين

من أولاد الملوك انه وقع الى جزيرة كل من فيها نساء وتجارها نساء وجندها نساء وكلهن آية من آيات الحسن والجمال وانه قضى بينهن أياما من النعيم أقلّ ما أصاب فيها من اللذة انه كان اذا طرح الشبكة فى البحر على سبيل التسلية خرجت له من الاصداف صبية من بنات الجان . كأنها حورية من حور الجنان . الى غير ذلك من الوصف الذى يحرك القلب ويملك الجنان .

وقد حلالى من حكاياتهم أيضا حكاية السندباد(١) وهى تشتمل على الحوادث التى وقعت له فى أسفار سبعة أتى عليها جميعا فى طلب المال وفي كل سفرة عجيبة لم يسمع أحد بمثل مافيها من المتالف التى وجد الكاتب مشقة عظيمة لاستنباط الحيلة فيها على وجوه تدفع الناس الى ركوب الاخطار . لنوال العلاوالفخار . بما تمتلك به أنفسهم من ذكر جبال الماس وعيون العنبر وعجائب البلدان التى وقع اليها السندباد . وعلى بعض ألسنة الأدباء أن هذه القصة ليست من وضع العرب انما نقلوها عن الهند واليونان وأضافوا اليها مايحسن أن يكون في كلامهم حتى نفوا العجمية عنها . وهذا كلام فيه بُعْدٌ عندى لأنى طالما سمعت رواتهم يحدثون بمثل

---

(١) ذكرها المسعودي فى موضعين من كتابه أحدها في صحيفة ٢٩٦ من المجلد الأول ولم يذكر عنها شيأ والثانى فى صحيفة ٣٨ وقال انه كان في عصر كورس ملك الهند وذلك قبل زمن عيسى عليه الصلاة والسلام بثلثمائة سنة سندباد دون له كتاب الوزراء السبعة والمعلم وامرأة الملك وهو الكتاب المترجم بالسندباد

ذلك وفى مطلع الحكاية أن الحمال اشتد به الحر فحط حملته على باب التاجر في ظل يتردد اليه النسيم الرطيب . وتفوح منه ريح العطر والطيب . وانه كان يرى عزة ذلك التاجر فى كثرة خوله وغلمانه ويسمع تغريد القمارى والشحارير في جنانه . وينشق من طعامه ريحا أحزنت منه النفس لانقطاع أمله منه وهو بمكانه من التعب وشقاء الحال مما يستوقف الطرف ويشهد ببراعة الوصف . فيما قصد اليه من بيان الفرق بين عيش الرخاء والنعمى . وعيش الشظف والبلوى .

واست أظن فى هذه الحكايات السندبادية الا أن واضعها رجل قد عانى الاسفار . وتقلب على متون البحار . حتى عرف مابالامصار . من عجائب الآثار . وغرائب الأخبار . وهذا شاهد على صحة ماذكرناه من تقلب الكتاب فى أيدى الأدباء الذين عزّ علم جميعهم عن أن يضمه صدر واحد من الرجال والافان فى وصف الحروب من ذكر الكرّ والفرّ وحيل الفرسان مالايستنبطه الا من طال وقوفه في ساحات القتال وكذلك في نوادر الزواج والطلاق من المعميات مالايستخرج فتواه الا فقيه مجتهد فى الأحكام الشرعية أيّما اجتهاد حتى أنه لو لم يكن مايقال في ذلك لوجدنا في اختلاف الأقلام دليلا آخر على اشتراك الأدباء فى تأليفه لانا نجد فيهم من يسترسل في المغالات الى أن يذكر عن فارس من الفرسان انه قتل فى معركة واحدة كذا وكذا من الخلق مما ليس في الامكان احصاء عددهم فى يوم واحد فكيف بقتلهم . ثم نجد من رسم قواعد الرواية

على منهاج لم يتعده الى ذكر المبالغة التى بعدت دلالتها على الصدق وانما ذكر الأخبار للنظر فى عادات الناس وأخلاقهم وكيف يتقلبون بالزمان أو يتقلب بهم الزمان وذلك مثل ماقصد الأدباء فى كلامهم عن العرب أن يذكروا المحاسن التى تفاخروا بها على جميع الأمم من الكرم والمروءة والعفاف والمساوى التى تفانوا لاجلها من طلب الثار وادراك الغنائم أو مثل ماقصدوا فى حوادث زماننا هذا أن يذكروا أخبار النساء كما هى وما يكون من تمحلهن في تسيير الرسائل الى الشبان(١) وادخالهم اليهن فى الصناديق (٢) ورفعهم تحت الليل فى الزنابيل المعلقة (٣) الى غير ذلك من وصف العادات المترفة التى وقعت فى بغداد لهذا العهد وهذا هو الفرع الخاص الذى أرتاح اليه من حكايات ألف ليلة وليلة لانه ينبئ عن أخبار العرب الخاصة وفيه حسن وبراعة وصف لا مثيل لها في أدب الحكايات.

تدوين الاخبار وأيام الناس

انما وضع العرب هذه الحكايات بعد أن توغلوا بالاسفار فى أطراف البلدان حتى تجاوزوا الصين الى ما وراء فرغانة (٤) فاستفادوا بذلك غير ما كسبوه من الاموال أحوالا شاهدوها وعادات جروا على سننها ومبانى

---

(١) الاغانى ٦*١٦٠ (٢) الاغانى ٦*٤٠ والشريشى ٢*٢٤٦ (٣) العقد الفريد والاغانى ٥*٤٢ واعلام الناس ٢٠٤ والمقدمة لابن خلدون وانتقد على صاحب العقد تصديقه جلوس الخليفة في الزنبيل والقصة مذكورة فى العقد الفريد وهى من الحكايات المستظرفة (٤) يستدل على ذلك مما دونه رحالة العرب وعلماؤهم في الجغرافيا

تقلدوا منها الزينة والاحكام وشرائع تفقهوا فى استخراجها للاحكام. وكانت عادة المسافرين بعد عودتهم الى الديار أن يحدثوا الحىّ بغريب ما نظروه. وعجيب ما سمعوه. فمن تلك الاخبار المنقولة ما اتصل بى من أن فى بعض الامم رجالا عراض الوجوه سود الجلود لا يزيد طول أطولهم على أربعة أشبار (١) وفى جلودهم نقط حمر وصفر وبيض وان منهم من له أجنحة يطير بها ومن رأسه كرأس الكلب ومن جسمه كجسم الثور أو الاسد (٢) ولقد سمعت من يحدث ان من البلغار من طوله أكثر من ثلاثين ذراعا يأخذ الفرس تحت ابطه كما نأخذ الطفل الصغير ويكسر بيده ساقه كما نقطع باقة البقل (٣) الى غير ذلك. ولست أظن هذه الاساطير التى يتناقلها الاخباريون من أهل الاسفار الا أنهم رأوا رسومها على الآثار التى خلفها الهنود والفرس والقبط السالفة من قوم فرعون وغيرهم من أهل الاعصر الخالية (٤) فحدثوا بها رجما بالغيب. أو تحصيلا لليقين من الريب. كان من أمثال هذه الخلائق المشوهة ما كان فى قديم الزمان. أو أنه لا يزال موجودا فيما قصا عنا من البلدان.

ولما دارت هذه الاساطير بين الناس. وتناقلها عامة الندماء والجلاس. أشفق العلماء على أخبار العرب وأيامهم من دخول الفساد عليها أو امتزاج الحكايات الباطلة بها فتسارعوا الى تقييد التاريخ فى الاوراق حتى لا يتشوه على تمادى الايام. بتداول الرواية على ألسنة العوام. وقد كان

(١) ابن خرذاذبه ٦٣ (٢) القرمانى ٥*٥٤ (٣) المستطرف ٢*١٦٢

شعر العربان محفوظا في أهل العلم فنقلوه الى الكتب للدلالة على مايرومون اثباته من الأخبار مع بيان صحتها واستخراج الكثير من عقائدهم وعوائدهم من أمثال هذه الاسانيد المحفوظة وهم يوقتون وقوع الحوادث السالفة مثل ماكان يوقته أهل الجاهلية بقولهم هذا جرى في أيام كسرى. وهذا في حرب البسوس الى غير ذلك (١) وأما الحوادث التي وقعت في الاسلام فقد أرخوها بالسنين والشهور والايام وكانت أصح في النقل والرواية من أخبار الجاهلية لان شأن الرواة عليها من الخلاف والاختلاف والمخالفة ما هو أشهر من أن يذكر « والحوادث اذ ذاك محفوظة بالانواء وطلوع النجم » ولم يسلم لهم من الفساد الا علم الانساب الذى حفظته فيهم العصبية (٢) حتى اتصلت أنساب أشرافهم الى أولاد ابراهيم عليه السلام مثل أنساب قريش وثقيف وغيرهم من البيوتات.

وأول من سبق الى تدوين التاريخ محمد بن اسحق (٣) فى كتابه عن المغازى والسير وأخبار المبتدا (٤) ولم يكن التاريخ قبله مجموعا ولا معروفا ولا مصنفا (٥) ثم أخذ أهل العلم فى تدوينه بعد ذلك . ووضع محمد المعروف بالواقدى كتابا فى فتوح الشام ضمنه كثيرا من سير الخلفاء الراشدين رضى الله عنهم وأتى على ذكر الحروب التى سعرت نارها على عمال الروم

(١) راجع كتاب الاغانى (٢) راجع مقدمة ابن خلدون والعقد الفريد (٣) حجى خلفه ٣*٦٣٤ وذكر ابو الفداء وابن الاثير انه مات سنة ١٥٠ (٤) المقدمة ١٧٠ (٥) المسعودى ٢*٤٠١

الا أنى رأيته يسوق الحديث في كلامه عن الجند والقتلى جزافا فيقول انه سار الى قلعة كذا خمسون ألفا من المسلمين والى حصن كذا كذا وكذا رجلا والى البلد الفلانى كذا خلقا عظيما مما لو جمع الى ما فرقه على سائر الحصون والقلاع لم نجد قدر نصفه فى جنود المسلمين كما ثبت عند أئمة النقل وكذلك اكثاره في عدد القتلى من الروم كأن يقول انه قتل منهم كذا وكذا من الآلاف مما لم يكن في جندهم مثله فى جميع ما لهم من البلدان فربما انفرد الواقدى فى علم الفقه والحديث ولم يكن له باع فيما سواه من العلوم

وقد دون التاريخ بعده حمّاد الراوية وعبد الله الاصمعىّ وهما يعرفان أخبار العرب وأيامهم وأنسابهم ويمليانها عن ظهر قلبيهما الا أن الخلل فى رواية حماد انه يقول الشعر على لسان المتقدمين (١) فيما يروم اسناده اليهم من نكتة أو من خبر فهو الى المؤاخذة بما يدخل على التاريخ من الاخبار الموضوعة اقرب منه الى الثناء على مايضعه من الشعر الذى لا يفرق عن كلام الجاهليين . يقال انه روى لهم ألفين وتسعمائة قصيدة لكل حرف من الحروف الابجدية مائة قصيدة كبيرة سوى المقطعات(٢) .

وأما الأصمعىّ فليس ثمت من الأمور التى ننتقدها عليه الا انه كثير الرواية واسعها حتى يكون فيها بعض المرية عند كثير من أهل العلم وليس ذلك لغرابتها أو لبعدها عن الصدق بل لكثرتها فيما نقل بمدوّناته وهذا لا ينقص فضله فى العلم وانما هو واقع عليه من باب تعظيم الشئ الذى

---

(١) الاغانى وابن خلكان (٢) الاغانى ٥*١٦٥

يتفاوت قدره عن أن يكون مثله في صدر رجل

ثم انى وجدت الأصمعىّ وحمادا جميعا قد وقعا فى الخطأ والقصور اللذين وقع فيهما أهل الرواية قبلهما وبعدهما . فأما الخطأ فهو اعراضهم جميعا عن ذكر محاسن الأعاجم ممن هو خارج عن دين الاسلام حتى لا يشغلوا كتبهم فى ذكر مذاهب كفرهم (١) كما يقولون وأما القصور فلكونهم يذكرون الحوادث من غير أن يستوعبوا مبدأها وغايتها ولا أن ينظروا في عللها وأسبابها ولا أن ينتقدوا على الملوك معايبهم فيما سقطت به دولهم بعد أن تسلموها بمكان عظيم من النفوذ والسلطان ليكون فى انتقاد الأشياء تذكرة للناس ويظهر فضل التاريخ على سواه من العلوم الأدبية ببيان المحامد التى يسترشد بها والمساوى التى ينبغى الاستنكاف عنها والتنكب عن سبيلها .

هذا ما أعلقه في هذه الرسالة عن علوم العرب وآدابهم مما يشهد لهم بالفضل الجزيل فيما تمهروا باستخراجه من كتب الأعاجم ونظروا فيه نظر بصيرة واجتهاد من جميع العلوم والفنون والصناعات (٢) اذ كان لهم غير من ذكرنا من العلماء كثير من النقاشين والمصورين والصناع مما يدل على أن لهم من الصناعة أيضا مكانا غير مدفوع فلقد رأيت من عملهم صورا على الورق الصقيل (٣) تظهر خارجة وليست بخارجة وداخلة

---

(١) المقدمة ٢٠٣ وابن حوقل وغيره (٢) راجع مقدمة ابن خلدون وكتاب حجى خلفه (٣) كليله ودمنه

وليست بداخلة وفيها كلّ غريبة من الأبداع ورأيت من رسومهم على الآنية والاعمدة والقباب مايبهر البشر في احكام الصناعة مع الحلاوة وتمام الزينة مع الحسن والطلاوة وهذا كله قد توصلوا اليه في عصر الرشيد وملوكنا البرامكة أعزهم الله وقد سمّي بالعروس (١) لخصبه ونضارته وكثرة خيره وانتشار علمه في جميع البلدان الاسلامية. ولعمري ان فيما ذكرت بهذه الرسالة من آداب العرب لشاهدا ناطقا ببلوغ الغاية من العمران . اذ كان العلم مرآة يرتسم فيها حال الأمم في كل عصر ومكان.

وقد وقع تدوين هذا الكتاب في أول شهور السنة السادسة والثمانين بعد المائة من هجرة نبينا المكرم صلى الله عليه وسلم والله نسأل أن يجمل حالنا بالستر الجميل انه بالمؤمنين رؤوف رحيم لا ربّ سواه

الرسالة الثامنة

رسالتي الى قيصر الروم

هذا تاسع كتبي اليك أفرده لذكر الرسالة الى انبرذور الفرنجة وأنا اكتبه اليوم على متن السفينة في البحر الفاصل بين الروم وافريقية كان الرشيد يوم وصل رسول الانبرذور الى الحضرة (٢) قد استدعاني

(١) المسعودى ٢*٤٠١ والشرقاوي ١٢٢ وفي الحصرى ٢*١٠٣ كانت أيام البرامكة روض الازمنة (٢) هذه اللفظة لقب رومى للقياصرة وقد وردت في كتب العرب ووجدت في ابن خلكان ١*٨٤ لفظة انبرور بحذف الذال وهي تشبه أن تكون منقولة عن الفرنساوية

اليه فأصبته فى مجلسه متثقلا كأنه يريد أمرا عظيما فاستدنانى (١) اليه وقال انا أتانا من ملك الفرنجة رسول يقرئنا منه السلام ويلتمس جميل رعايتنا بمن يحج الى بيت المقدس من ملته فرأينا أن نوجهك اليه بلطائف تروم اليه أن يتقبلها في سبيل المودة لغاية ترغب فيها اليه من التعصب على بنى أميـة الذين يغزون الاندلس فيما هو واقع بينهم من الحروب (٢) فاذا وافقنا على ما نروم من الاستيلاء على ديارهم فهو المقصود من انفاذك اليه فى هذه الرسالة واجهد في أن تسترق قلبه بخلابة لسانك وتقدم اليه بالوعد الجميل في اننا نوفيه حقه يوم الفتح ونصرف له نفقة الحرب من بيت مالنا ونجرى الارزاق الواسعة على جنده ونقاسمه ما تحوى خزائن الظالمين من المال والجوهر واستصحب معك هذا اليهودى الذى جاء به رسوله فهو يترجم عنك اليه وخذه بالتعظيم الكثير لانه شيخ مترف جليل القدر فيما نقل الرسول الينا . وقد تقدمنا الى مسرور أن يصحبك بالخدام . في الدواب والخيام . الى بيروت من ساحل الشام . فاذا عدت الينا وأنت آخذ على مصر وصل الليث أن يوجه معك طائفة من الحرس الى عيذاب فتوافينا الى البلد الحرام حيث توافقنا حاجين فسر على بركة الله . واياه نسأل أن يتولاك بعين الحراسة ويهدى الى الصواب قلبك وهو ولىّ التوفيق .

فلما أذن لى بالانصراف أتيت البرامكة لاستطلعهم رأيهم فى المصاحة

---

(١) فى الاغانى ٤*٤٨ أن الخليفة يستدنى اليه من يحبه (٢) راجع المقرى وابن الاثير تجد كلاما مطولا فى هذه الحروب

فلقيت جعفراً متنزهاً فى البستان وبين يديه جماعة من الندمان . فلما أقبلت عليه قال اخرج عما بنفسك وحدثنا عن سفر البحر فقلت وأنى ذلك للسلطان فقال علم الله أنى أنا الذى أشرت على الرشيد بان يوجهك الى ملك الفرنجة رسول خير ومودة وسلام . ثم أومأ الى الجلاس فتنحوا عن موضعنا فاستدنانى اليه وقال بم أوصاك فقلت بكذا وكذا من الامر فوجم ساعة ثم قال سبحان الله إلامَ يتمادى به تغرير القتال لقد أشرت عليه بأن يعدل عن مناجزة الامويين لان لنا فى الشرق ما يشغلنا عن قتالهم وفي ظهور الخوارج الذين يقارعونه على الخلافة في كل حين ماان ضعفنا عنهم مرة واحدة فسدت دولته فساداً لا تقوم لها من بعده قائمة . وان يكن الرشيد عن موعظتى غنياً بما عنده من العقل والعلم الا أن الملوك قد تطمح نفوسهم الى ما وراءه الشر من طمع الاستيلاء وقد قال الله تعالى « لا تسألوا عن أشياء ان تبد لكم تسؤكم » (١) فما لنا وللامويين وقد كفانا الله شرهم فان كانوا فى شقاق فلندعهم ينادون بالويل والحرب الى ما وراء البحور وليس لنا أن نلقى برجالنا في المواضع المجحفة ونوردهم موارد الهلاك فانى أرى الجند يتفانون قبل الاشراف على تلك المتالف كما انى احسب الانبرذور على ما يؤثر عنه من ايثار الرفق ولزوم التؤدة بعيداً عن موافقته على مايروم من الايقاع بملوك أمية وهم مطمئنون في ديارهم معتصمون فى قلاعهم وقد عمروا أمصارهم ودونوا دواوينهم وشكوا حصونهم

---

(١) سورة المائدة

بالرجال واتخذوا الاهبة لهم والعدة والكراع ودون الاستيلاء على ديارهم شيب الغراب (١) ولقد كان أولى بالرشيد ان يرى دول الاندلس درعا منيعا للاسلام وسيوفا مشهرة على الروم لانها لو دخلت في حوزته لم يأمن ان أرسل الجند ان يخونه القواد أو مات الانبرذور عن خلف لا يرعى العهود أن يوجه من يقبض على عمالها من لدنه . وقد بدا لى أن اعاوده فى هذا الشأن فان رغب عما فرط منه والا فليفعل ما كان فاعلا لبلوغ امنيته

فلما كان الغد بكر جعفر الى الرشيد وخلا به ساعة جيدة يقلب عليه الكلام ويمحصه الرأى والنصيحة ولكن من غير ان يقوّم ما بنفسه من الميل ويعدل به عن ركوب هذا المركب الوعر . فاستدعانى اليه وسلمنى كتابه الى الانبرذور وأمرنى بأن أتجسَّسَ أخبار العمال وأتفقد أمورهم حيث مررت . وأوصانى برجل من الامويين في دمشق كثير المال كبير الجاه أن أتحقق حاله حتى اذا كان يخشى منه استمالة أهل الشام الى الفتنة رفعت ذلك اليه ليتدبر أمره (٢)

---

(١) نقلت الاخبار السالفة عن ملوك امية انهم لما هربوا من دمشق الى الاندلس ووجدوا اليمانية فيها غير مذعنة لدولتهم قاتلوهم قتالا أحبُّوا معه الموت أو يحصلوا على لقمة تبقى الرمق وبلغ استقتالهم في سبيل الملك الى أن يقتل أحد ملوكهم ابنه من أجل انه تراجع عن العدو وقد هاله كثرة جموعهم فقال لاحد أصحابه بعد أن ضرب عنقه اكسروا جفون السيوف فالموت أولى أو الظفر «ابن الاثير ٦*٤» (٢) ذكر الاتليدى ١٢١ والابشيهى ١*٨٤ قصة ظريفة عن هذا الاموي فليراجعها هناك من أحب

ثم قال واذا مثلت بين يديه «يريد قيصر الروم» فقل له عن أمية أنهم قوم قد كفروا النعمة وتركوا فروض العبادة وسعوا في الارض فسادا وانا أحق بالملك منهم لمكاننا من قرابة النبي صلى الله عليه وسلم. ثم أذن لى بالانصراف وكان يظهر من الميل الىّ وجميل العطف علىّ بحيث كان يدعونى بلفظة الحبيب(١) كلما بدأ بالكلام بعد انقطاعه.

وكان في لطائف الخليفة الى الانبرذور فيل عظيم أبيض كان عند المهدى رحمه الله ارسله له بعض ملوك الهند (٢) وأقمشة فاخرة من الوشى المنسوج بالذهب وبسط ديباج من طبرستان وأعطار من اليمن والحجاز ومسك وصندل وأعواد ندّ من الهند وسرادق عظيم مجلل بأنواع الحرير وكلاليبه من الذهب الملبس بالوشى ومزولة كبيرة تدل على الاوقات في ليل ونهار وهى من عمل صناع بغداد وشطرنج بديع الحسن قد اتخذت أدواته من العاج المنقوش صنعهُ نقاش من النصارى اسمه يوسف الباهلي ورسم اسمه على الأداة التى تمثل الشاه وهى من الحسن بحيث ان الناظر اليها يكبر صناعتها وقد مثلت فيلا يلف خرطومه على فارس وعلى رأسه جندىّ قد أخذ بزمامه ومن حوله ثمانية فرسان

(١) ذكر الاغانى ٦*٥٧ ان الخليفة لا يترفع عن أن يدعو بعض خواصه ياحبيبي ونقل صاحب العقد من نوادر اسحق بن ابراهيم انه لما دخل على المأمون استدناه اليه فدنا منه قال اسحق فرفع المأمون يديه فاتكأت عليه فاحتضننى بيديه وأظهر من اكرامى وبرى مالو أظهره صديق لى مواس لسرنى ٣*٢٤٠ (٢) ذكره الاغانى ٩*١٣٦

يراد بهم الرمز الى البيادق الثمانية الذين يناضلون عن الشاه وعلى ظهر دهودج مزخرف بأنواع الرسوم قد استوى فيه ملك على رأسه تاج مثل تيجان ملوك حمير (١) وقد أظهر هذا الرسام في تصويره من الحذق مايستحق عليه الثناء لانه مثل اصحاب الفيلة كلهم وجعل فى آذانهم أقراطا وعلى زنودهم أساور وعلى ابدانهم القراطق وهى لباس الهنود واتخذ عدد الخيل مزخرفة وصنع لهم السروج والأزمة والركائب وقلد الفرسان شيأ من السلاح ماعدا الجندى الذى أخذه الفيل بخرطومه فانهُ يعالج بنفسه للخلاص مما هو فيه وقد طرح سلاحه الى الارض وعليه سمة التوجع والانكماش (٢) مما يشهد للممثل بأنه من مهرة الصناع .

المرور بالكوفة وبلاد الشام

لقد رسم عليّ طريق الوجهة بأن أسير الى الكوفة ثم الى دمشق ثم الى بيروت على ساحل البحر وكان مسيرنا فى غاية البطء رفقاً بالفيل والدواب المثقلة بالاحمال فاجتزنا بعد الانفصال عن الحضرة بمدينة النيل التى مصرها الحجاج (٣) وهى بمنتصف مابين بغداد والكوفة (٤) ثم عطفنا الى الانبار (٥) ثم الى مدينة الكوفة فنزلت بها فى رحبة خنيس الانصارى من أجداد استاذى أبي يوسف رحمه الله (٦) وهى فى مقابلة

---

(١) ذكر تيجان ملوك حمير صاحب مروج الذهب ٢*١٥٠٢١ (٢) هذه الأدات لم تزل الى هذا اليوم محفوظة عند الافرنج وقد رأيت صورتها فوصفتها كذلك (٣) القناوي ١٣٥ (٤) ياقوت ٢٤*٨٨٣ (٥) المسعودى ٢*١٤ (٦) ياقوت ٢*٧٦٢

الباب الكبير المعروف بباب الفيل (١) وقد طاب لى المقام بين اهلها لما وجدت فيهم من الحب لاهل البيت (٢) شرفهم الله ولا سيما فى قوم كندة من ملوك النصرانية وهم من غلاة الشيعة (٣) وأكثرهم عالم وحكيم وأديب كان بيتهم معدن العلم ومظهر الحكمة وقد لقيت منهم اسحق الكندى وهو عامل الرشيد على الكوفة قلده الامارة بايعاز البرامكة الذين يحافظون على تأييد الشيعة (٤) ويبغون من إلف الرعية فيما بينهم تعظيم الاسلام فى انتفاعه بحكمة الامم وعلومهم وصناعاتهم وقد جروا بذلك على سنة أبيهم خالد رحمه الله وهو الذى قرّب بعض النصارى الى أبى جعفر كما تقدم في موضعه من الكتاب

ولقد وجدت الكوفة من أعظم مدن العراق (٥) وهى ذات ماء وشجر ونخيل (٦) وقدّرت أن تكون فى الكبر كنصف بغداد فحق تسميتها بالكوفة لاجتماع الناس فيها من قولهم تكوّف الرمل اذا ركب بعضه بعضاً (٧) وقد زارنى فيها كثير من أدبائها المشهود لهم بالفضل والاجتهاد ولكنى لم يتهيأ لى زيارتهم لقصر الوقت معى ولقد وجدت اسحق أميرهم من العلم والعقل بالموضع الذى اكتفى من الدلالة عليه

---

(١) الاغانى ٥*١٦٦ (٢) هذا معروف فى كتب المؤرخين وذكر ابو الفداء ٢*١٤ ان كبير علماء الكوفة كان يميل مع الامام على كرم الله وجهه (٣) الوطواط ١٢٥ (٤) المحاضرة ٢*٨ (٥) ابن جبير ٢١٣ (٦) القناوى ١٣٦ (٧) تقويم البلدان ٣٠١

بكونى أستخبر بعده عن الاسلام . وهو يسكن دارا مباركة تعزى الى عقيل بن أبى طالب (١) وهى بازاء المسجد المبارك الذى قال فيه بعض الصالحين ان ركعتين فيه تعدلان عشرا فيما سواه من المساجد وان البركة منه الى اثنى عشر ميلا من حيث أتيته (٢) وقد زرته قبيل الانفصال عن المدينة ولم أر فى عمد المساجد كلها ماهو أطول من عمده (٣) ثم زرت مشهد على عليه السلام (٤) وتبركت به وقرأت عنده شيأ من القرآن .

ولما انفصلت عن الكونة تخلفت عنى الدواب المحملة فانقطعت في الفلا مع جماعة من الحرس ورحنا نفوز القفر بعد القفر حتى اذا عظمت على مشقة السفر تذكرت طيب بغداد وظرائفها (٥) وحننت الى مجالس البرامكة والدار عندهم جامعة . وأوقات الأنس بها رائقة . فكنت أقول متمثلا بكلام اسحق النديم (٦) .

على أهل بغداد السلام فانني أزيد بسيرى عن ديارهم بُعدا
اذا ذكرت بغداد نفسى تقطعت من الشوق أوكادت تذوب بها وجدا

(١) الاغانى ٤*١٨٢ (٢) ياقوت ٤*٣٢٥ (٣) ابن جبير ٣١٣ (٤) تقويم البلدان ٣٠١ (٥) القزوينى والأغانى ٥*٩٤ و١٧*٧٠ وفي غير موضع (٦) الاغانى ١٧*٧٥ وذكر ياقوت في صحيفة ٦٨٨ من المجلد الاول أن الرشيد أنشد البيت فربما لم يكن الشعر له بل كان من نظم اسحق لانه كثيرا ما كان يذكر بغداد ويتشوق اليها وهو فى اسفاره مع الرشيد ويقول

ذكر الاحبة فاستحن وهاجه للشوق نوح حمامة وحمام
لم يبد ما في الصدر الا أنه حيا العراق وأهله بسلام

ولم أزل مجدًّا في السير حتى بلغت دمشق في اثنتى عشرة ليلة (١) ولو انى سرت تحت جناح الليل لبلغتها فى ثمانية أيام (٢) فما دونها فنزلت فيها عند قاضيها الامام عمر بن أبي بكر بن تميم القرشىّ العدوىّ (٣) فى دار بناها عويمر أبو الدرداء، وهو أول من ولى القضاء بدمشق وكان القضاة قبله يسكنون قصر الحجاج (٤) المعروف بالقصر الكبير .

أما الشام فانها بلاد مباركة كثيرة الخيرات . وفيرة الغلات . الا أنها نكدة الحظ في تغلب الامم الغازية عليها ولذلك قلّت عمارتها الى هذه الغاية بعد تغلب الكلدان عليها والفرس الاولى والفراعنة واليونان والروم والفرس الثانية ولا سيما قبيل أن دجا الاسلام وقد كانت تمزقها الحروب التى تسعرت نيرانها بين بنى عامر المتغرضين للفرس وآل غسّان المتغرضين للروم فانتقض عمرانها ودرست سبلها وتداعت أحوالها الى الانحلال بعد أن كانت جامعتها في عظمة لم يكن مثلها فى الدول الاقاليلا وكانت التجارة فيها كأعظم مايكون من النّفاق وللعلوم والصنائع سوق رائجة رابحة فدرست تلك المحاسن وتقلّصت تلك الرسوم حتى لم يبق اليوم من مصانعها غير رسوم شاخصة وآثار ناقصة .

وانما دعا أهلها الى الفساد وجلب عليهم المذلة وطمح بأبصار الملوك الى التهامهم ماوقع بينهم من الشقاق وكان فى نفوسهم من التحزب الذى هو

---

(١) الاغانى د*١٦٦ (٢) الاتابيدى ٢٦٣ (٣) قضاة الشام (٤) الاتابيدى والمستطرف ١*٢٨٧

أشد من الفتنة (١) فكان ظهور المرسلين فيهم سبباً لتعصب بعضهم على بعض وان كانت مواعظهم داعية الى المحبة والاتحاد . وهذا هو الامر الغريب الذى لم يسمع بمثله فى البلدان فلقد كانت الشام مهبط الوحى ومسقط النبيين وموطن الاولياء الطاهرين الذين كانوا يتخذون الانصار لنفوسهم ويرومون ادخال الناس في شيعتهم ليجمعوا ما كان شتيتا من شملهم ومتفرقا من كلمتهم وأغراضهم الا أنهم لم يبلغوا من ذلك الغاية التى كانوا يرومونها من أمرهم . فانما وجب على أهل الوطن الواحد أن تكون فيهم جامعة الالفة ولا يتعصبوا بأميالهم الى غير ما يقصدون منه الوحدة فان عظمة الامم لاتحصل الا بالاجتماع والعصبة سنة الله فى خلقه. انظر الى الدول الرومية كيف عبث بها العدو حين وقع فيها الانقسام والتجزؤ . وانظر الى الدولة الاموية لم يقارعها أبو مسلم على الخلافة الا عند ماتخالف عليها صبيتهم (٢) فيما يرمون اليه من طمع النعيم وانظر الى أهل البيت السلالة الشريفة والذرية الصالحة كيف وقعت بهم الشدة يوم تفرّقوا على أغراض لاتجمع بينهم الى الوحدة فلما اجتمعوا في المغرب

(١) هكذا كانت الشام فى زمن الجاهلية والاسلام فان مصعب بن الزبير لما خطب الناس قال بسم الله الرحمن الرحيم طسم تلك آيات الكتاب المبين نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون ان فرعون علا في الارض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم انه كان من المفسدين أشار بيده نحو الشام وهو يريدان به الى يومه مثل ذلك (٢) ذكر صاحب العقد الفريد انه قيل لبعض بنى أمية ما كان سبب زوال ملككم قال اختلاف بيننا واجتماع المختلفين علينا

الى ادريس بن ادريس رضى الله عنه قام لهم ملك يرجف له الشرق فان تنظر الى ذلك كله والى كثير مما وقع وما هو واقع في الممالك تجد أن الامم لاتقوم دولهم الا برابطة الاجتماع والعصبية ومتى تسقط من روابطهم تلك الاوصال ينذر أمرهم بالانحلال وتتداع أحوالهم الى التلاشي والاضمحلال .

﴿ وصف دمشق وانها بهجة البلدان ﴾

ولما وفدت على دمشق وسرحت الطرف ناحية الغوطة امتلأت عيني من خضرة الارض حتى تخيّلت نفسى فى جنة من جنات السماء ولا غروفان مياهها وأشجارها ورياحينها لافضل مافي الدنيا من المتنزهات (١) يسير الرجل فى رياضها يومه لاتصيبه أشعة الشمس لالتفاف شجرها بعضه على بعض . وهي في أسمى مقام بين مدن الاسلام . بعددار السلام. قد اشتبكت فيها العمارة (٢) وتنزهت عن المثل فى النضارة . لكنها ليست بالمفرطة الكبر وربما كانت الى الطول أميل منها الى العرض (٣) وهى لاتخلو من السقايات (٤) فى شيء من أسواقها ولا بيوتها .ومبانيها طباق فوق طباق (٥) وتحتوى من الخلق على العدد الكثير والناس على مذاهب فيمن بناها من الاولين . فمنهم من يقول ان عاداً أول من نزلها

---

(١) تقويم البلدان ٣٥٣ وابن خرداذبه ١٢٤ وياقوت ٢*٥٨٩ (٢) القزوينى ٢٦ (٣) ابن جبير ٢٨٥ (٤) المقرى ... ٣٠ وابن جبير وابن بطوطة وياقوت ٢*٥٩٠ (٥) ابن جبير ٢٨٥

من الناس وانها هى إرم ذات العاد (١) ومنهم من يذهب الى أن بانيها الغادر غلام نمرود (٢) أو دمشاق بن كنعان . ومنهم من يزعم أن الذى اختطها هو دمشقس مولى الاسكندر الرومى (٣) ومنهم من يرى غير ذلك . الا أنه ليس على مايقولون حجة ترجع بهم الى محاسن التحقيق على موثقة الآثار ولا سيما عند الذين يعزون بناءها الى الروم فان الرد عليهم واضح لايحتمل التأويل بعدأن أتى موسى كليم الله على ذكر دمشق في غير ما آية من كتاب التوراة . ومهما يكن من اختلاف المؤرخين فى ذلك فان هى الا مدينة أولية (٤) قدصحبت الملوك من الكنعانيين والروم وآل جفنة وبنى أمية دهراً طويلا ونالت من العزة والعمارة ماقلّ أن يناله غيرها من المدن القواعد ولو كان البناء الذى شاده فيها الملوك من الحجر الصلد ثم بقى ماثلا الى هذه الغاية لكانت دمشق زينة الدنيا ولكنه شُيّد من طينٍ ولبنٍ فأتى عليه الانحلال وادثرت الايام آثاره (٥) فلم يبق منه الا قلعة من الحجر تعزى الى الروم (٦) وقصر يقال له قصر جيرون عليه أبواب عجيبة من النحاس (٧) وبناء يقال له البريض فيه كثير من العمدان وتزعم العامة أنه كان يجرى منه الشراب في قديم الزمان الا أن أركانه اليوم قيام وقعود . وحيطانه ركّعٌ وسجود (٨) وقصران من الحجر

---

(١) ابن خرداذبه ٧١ القرمانى ٥*١١٨ والشريشى ١*٢٠٧ (٢) الكنز ٢٣ (٣) القرمانى ٥*١٩٣ (٤) تقويم البلدان ٣٥٣ (٥) قلائد العقيان ٥ (٦) ابن جبير ٢٩٠ وتقويم البلدان ٢٥٣ (٧) المسعودي ١*٢٤٢ (٨) المسعودي ١*٢٩٧

لعمر بن عبد العزيز (١) وللوليد بن عبد الملك (٢) وهما جميع ما تخلف عن ملوك بنى أمية لان ما نجا من آثارهم من معول الزمان لم ينج من معول أبي جعفر (٣) كما مر في موضعه من الكتاب .

ولقد وجدت أهل دمشق أحسن الناس خلقا وخلقا يكرمون الفقراء ويلتمسون منهم أن يتقبلوا صدقتهم حتى يكونوا هم فى صورة السائل (٤) ولو أن فقيراً أعرض عن كسرتهم لقالوا ويحنا لو علم أن فينا خيراً لتناول من طعامنا (٥) وقد بلغنى عن فضلائهم انهم يزهدون فى الدنيا وينقطعون الى الله تعالى متبتلين فى جبل لبنان (٦) غير أنى لا أطلق هذه الرواية الا على فئة قليلة من الصالحين لأن جمهورهم مائل الى اللهو والطرب ولا سيما في يوم السبت فانهم لا يشتغلون فيه الا بالمجون والتهتك لا يبقى فيه للسيد حجر على المملوك ولا للوالد على الولد ولا للرجل على المرأة (٧) وهذا أمر غريب لم أره في غير دمشق ولا أعلم هل النصارى يشاركونهم في ذلك لانى رأيتهم منقطعين عن مخالطة المسلمين فى المنازل والاحياء قد تألبوا على كنيسة معظمة عندهم تعرف بكنيسة مريم (٨) ويقال انها من أعظم بيعهم بعد بيت المقدس .

وبقيت في دمشق ثمانية أيام الى أن وفد الغلمان بالدواب المحملة

(١) ابن جبير ٢٩٣ (٢) المقدمة ١٥٤ (٣) ابن الاثير والمسعودى ٢*١٤٣ والخميس ٢*٣١٤ (٤) الابشيهى ١*١٢ (٥) ابن جبير ٣٨٨ (٦) ابن جبير ٣٨٩ (٧) القزوينى ١٢٨ وابن بطوطة ٢*١٩٧ (٨) ابن جبير ٢٨٥

وكنت قد استقصيت البحث عن هذا الاموىّ الذى أتعب خاطر الرشيد أمره فلم أجد له غرضا في السياسة ولا هو طامح الى ملك ولا امارة ولا يحدّث نفسه بشيء مما يقلق بال الرشيد حتى يخافه على أمره فأمسكت عن السعاية به لانى رأيته وهو خلو من هذه الاغراض مثل التاجر الكثير المال والجاه ليس الا وقد تهيأ لى بالاستطلاع على خبره أن أقف على سير غيره من الخلفاء أقاربه متابعة لما نقل الىّ من خبره فوجدت في الاولين منهم عقلا وسياسة الا أنه لما صار الامر الى صبيتهم المترفين استرسلوا فى القصف والتهتك (١) وعكفوا على اللذات واستخفوا بأمر الرعية وغفلوا عن مصالح الملك فأزاله الله تعالى عنهم وألبسهم ثياب الذل بذنوبهم.

وقد انتهى ترف ملوكهم الى الوليد بن يزيد (٢) وهو الذى أخذت الخلافة بالانحلال بين يديه وتحرك الدعاة عليه في خراسان بما وجدوا فيه من قلة الخبرة بأمور الملك وعكوفه على اللهو والطرب (٣) وقيام خلافته بين الكاس والوتر (٤) وقد استرسل فى التبذير حتى أنفق ما جمعه أجداده فى بيت المال لانه أفرط فى الكرم افراطا فاحشا حتى انه لم يقل لا فى سؤال سئله (٥) وكان اذا وصل الشعراء عد أبياتهم وأعطاهم عن كل بيت ألف درهم (٦) وكان يتأنق بصنوف الملاذ من المطعم والمشرب والملبس

(١) الاغانى ٣٫٤ *١٦٥ والمقدمة والعقد الفريد وابن الاثير وغيرهم (٢) الدميرى ١ *٩٠ (٣) المسعودي ٢ *١٤٦ (٤) ابن خاقان ٤٤ فى قصيدة ذكرها هناك (٥) أبو الفرج ٢١٠ (٦) الاغانى ٦ *١٤٨

فيقال انه لبس القلنسوة من الوشى (١) مذهبة واتخذ العقود من الجوهر كالنساء يغيرها في اليوم مرارا (٢) لشغفه بها وكان يتختم بالياقوت ووقع من خواتيمه الى بنى العباس (٣) خاتم يساوى أربعين ألف دينار ويقال في حسنه انه كان اذا أخرج من محبسه أضاء المكان من شدة لمعانه وكان يسترسل فى الطرب الى أن يوجه رسله (٤) فى طلب المغنيين من الحجاز وغيره وكان يعاقر معهم الخمر (٥) ويشرب الهفنجة وهى الشراب الذى كان يشرب به ملوك الفرس أياما معدودة (٦) على غير انقطاع فتبعهم فى ذلك واصطنع بركة صبّ فيها الخمر (٧) وكان يلقى نفسه فيها من الطرب المفرط (٨) ثم يخلع ثيابه على الندمان والمغنين (٩) ويسقيهم الخمر بيده (١٠) وكان اذا سئل عن الشراب وعذل عليه يقول

يا أيها السائل عن ديننا نحن على دين أبى شاكر

نشربها صرفا وممزوجة بالسخن أحيانا وبالفاتر (١١)

---

(١) الاغانى ٦*١٤٦ (٢) الاغانى ٦*١٢٩ (٣) المستطرف ٢*١٩١ (٤) الاغانى ٦*٧ ١ والعقد الفريد كتاب ٢ والمسعودى ٢*١٤٦ (٥) الاغانى ٣*٩٨ والمسعودى (٦) الاغانى ٦*١٣٠ والمسعودى ٢*١٤٦ ويسميه هفت هفته (٧) الدميرى ١*٩٠ (٨) الاغانى وحلبة الكميت (٩) الاغانى ٦*١٤٥ (١٠) الاغانى ٦*١٣٠ (١١) الاغانى والوطواط وابن الاثير وفي العقد الفريد ٣*٢٣٩ و٢*٣٥٠ انه كان له مغن اسمه عبد العزيز يغنيه

أمدح الكاس ومن أعملها واهج قوما قتلونا بالعطش

انما الكاس ربيع باكر فاذا مالم نذقها لم نعش

وكان مماجنا رديء المذهب حتى أنه ترك صوم شهر رمضان المبارك وغشى أمهات أولاد أبيه (١) فتجد أنه لم يثقل أمره على الرعية من وجه واحد وانما هناك وجوه قد ساقت عليه الفتنة فقام الناس عليه وقتلوه شر قتلة هذه نتف من أخباره حدثتني بها مغنية كانت له يقال لها برق الأنق(٢) وهي اليوم عجوز تكاد تنال الارض بوجهها من الكبر . وقد أخبرتني في بعض حديثها أن الجوهر كان في صباها متداولا بين الناس فلما جمعه الوليد بن يزيد من كل وجه وغ لى به غلا ثمنه منذ ذلك الحين (٣) وهذا شيء من الافراط فى الترف لم نسمع بمثله عن أحد من الملوك المترفين . ومن نظر الى ما كان عليه ملوك بني أمية من العزة والصولة وما صاروا اليه من الذلة علم أن الله سبحانه وتعالى لا يغير على عبده نعمة حتى يغيرها العبد على نفسه بارتكاب المعصية

ولما طال مقامي فى دمشق تهيألى أن أزور اماكنها المشهورة فزرت موضعا يقال أن هابيل وقابيل نزلا فيه (٤) وموضعا يقال له باب الساعات (٥) يزعم أهل الاخبار أنه كانت فيه قارة تقدم عليها القرابين فما يقبله الله منها تبتلعه نار من السماء وما لم يقبله يبقى في موضعه على الصخرة . وزرت مشاهد جماعة من أهل البيت المشرفين والصحابة والتابعين والاولياء

---

(١) ابن الاثير وأبو الفداء والعقد الفريد والوطواط (٢) الاغانى ٣*٨٧
(٣) الاغاني كتاب ٦ (٤) القزويني ١٢٦ (٥) ياقوت ٢ *٥٨٨

الصالحين (١) فى جبل قاسيون ومقابر الشهداء (٢) وجبانة باب الصغير (٣) وبينها قبور ملوك بنى أمية (٤) متهدمة والرخام عليها متكسر (٥) وزرت قرية في سفح الجبل المذكور يقال لها برزة (٦) يزعم الناس انها مولد الخليل ابراهيم عليه السلام (٧) حضين الملائكة والى مافوقها حجارة مصبوغة بشيء يشبه أن يكون أثر دم عتيق يقولون انها الحجارة التى رض بها قابيل رأس أخيه هابيل (٨) ثم جره الى مغارة هناك يقال لها مغارة الدم (٩) وفي حضيض الجبل مغارة أخرى تسمى مغارة الجوع يزعمون ان سبعين نبيا ماتوا فيها من الجوع . وانى لاستحي أن أنقل حديثهم على سمينه فانهم يقولون سبعين ألف نبي (١٠) كان كل من عاش فى الشام نبي أو ولي وفى طرف الجبل مما يلى الغرب ربوة (١١) يقول المفسرون انها هي المذكورة فى قوله تعالى « وآويناهما الى ربوة ذات قرار ومعين » ويرد عليهم آخرون بأن المراد بها ربوة في الاسكندرية (١٢) من ديار مصر .

وهناك مسجد يقولون ان المسيح عليه السلام أوى الى مغارة بجانبه وفيه حجر قد انفلق الى شطرين ولم ينفصل أحد الشقين عن الآخر بل اتصلا

---

(١) ابن جبير والشريشى ٢ *٢٣٦ والطبقات ١*٢٩ والمسعودى ٢*٤٢ (٢) قضاة الشام (٣) ذكرها ابن خلكان (٤) الخميس ٢*١٤ (٥) المسعودى ٢*١٤٣ وابن جبير ٢٨٣ وابن الاثير ٥*١٣٠ (٦) ابن جبير ٢٧٥ (٧) ياقوت ٢*٥٨٩ (٨) القزوينى ١٢٦ (٩) ياقوت ٢* ٥٨٨ (١٠) القزوينى (١١) ابن بطوطة ١*٢٣٣ (١٢) المحاضرة . ٣*

كرمان مشقوق(١) ولهذا المكان منظر حسن الى البساتين والخضرة في جميع جوانبه ولا اشراف كاشرافه حسنا وجمالا واتساع مسرح للابصار. وفيه تنقسم مياه المدينة الى انهار سبعة(٢) اكبرها نهر يزيد ونهر ثورى (٣) وهما فيه نهر واحد يعرف بنهر بردى وهناك بعض قرى مثل نيرب ومزة (٤) والسهم والسطر (٥) وفيها الجوامع والمرافق والحمامات الا أنه لا يظهر منها الا ماسما بناؤه لتطاول الشجر عليه وفيها من الفواكه والتفاح والخوخ المسمى عندهم بالدراقن (٦) وسائر الثمار ماليس فى البلاد مثله صحة وطيبا (٧) والى ما يليها من طرف الجبل موضع يقال له عين برما (٨) كان معموراً لأيام معاوية بن أبي سفيان بجماعة من أهل خراسان ثم توالى عليه الخراب بظلم الخلفاء بعده حتى أصبح الى هذه الغاية قليل العين . وبقى الاثر من عمارته وذهب العين

ولقد كانت دمشق فيما خلا من الزمن الغابر ممزوجة بصنوف غير محصية من فضلات العمران ويعيبها كثرة الوحول فى أزقتها وتراكم الطين فى ساحاتها فلما أقام فيها الامويون شرعوا فى ازالة الاقذار (٩) منها وقاية من الطاعون الذى كان يتع بها تباعا فى السنين السالفة (١٠)

---

(١) ابن جبير ٢٨١ والقزوينى (٢) تقويم البلدان ٣٥٢ (٣) ذكره ابن خلكان ١*٢٧٨ (٤) ابن جبير ٢٧٩ (٥) كليات ٢٠٢ (٦) الاغانى ١*٢٦ (٧) الكنز ١٤٤ (٨) المسعودى ٢*٨٣ (٩) أبو الفداء ١*٢٠٧ (١٠) راجع بن الاثير والمسعودى والعقد الفريد . وفى مروج الذهب من كلام عن الكوفة انها ارتفعت عن البصرة وحرها وسفلت عن الشام ووبائها ٢*١١٦

وهذا هو الاثر الذى تشهد لهم البلاد به كما تشهد لهم الآثار الباقية عنهم بتشييدهم البناء على الهندسة التى ليس أعظم منها وقعا فى القلوب ولا أتم حسنا وجمالا فى العيون كالذى يبلغنا عما بنوه في الاندلس(١)من القصور التى حارت في جمالها عقول الفرنجة فقد شاهدت دار الوليد بن عبد الملك من قصورهم في دمشق فوجدتها بديعة الحسن مبنية بالحجر والصفاح والاعمدة مفروشة بالرخام الاخضر (٢) وهى تتناهى بالبهاء والاشراق الى أن يضرب بها المثل (٣) فى أحكام رسومها وجلالة بنيانها ولو لم يكن من تمام زينتها الا الاعمدة المزخرفة منصوبة فى اروقتها فرادى وأزواجا لكفى البصائر روعا ووسع الابصار ابتهاجا . وأذكر أنه لما أدخلنى صاحب الوقوف رياضها لمشاهدة مافيها من الاشجار الغريبة (٤)لم يتحول نظرى عن القصر لما راعنى من حسنه المفرط وأعجبت به من الزينة التى يكبرها الناظر ويقف عندها وقفة الذاهل الذى به عقدة من السحر وهو بين أساطين دقيقة وقباب رفيعة ورواشن (٥) مخرمة وخرجات مزينة وطيقان مجسمة بالجص المنقوش وبينها من الرسوم العجيبة ماتجول فيه الافكار فتجله وتميل اليه الابصار فلا تمله .

جامع الوليد المعروف بالجامع الأموى

هو أفخر مأثرة لملوك بنى أمية بناه الوليد بن عبد الملك صاحب

---

(١) راجع المقرى والعقد الفريد وابن الاثير (٢) الوطواط ١١١ (٣) المقدمة ١٥٤والفتح بن خاقان ٩٤ (٤) الوطواط ١١١ (٥) ذكرها الاغاني ٥*١٠

القصر المتقـدم ذكره وكان ذا همة في تشييد العمارات والمساجد (١) والقصور وقد شملت عنايته جميع البلدان في تسهيل الثنايا وحفر الآبار وإصلاح الطرق (٢) حتى كان الناس في أيامه اذا تلاقوا فى الاسواق والمجالس تساءلوا عن العمارة وعن أى بناء شرع فيه خليفتهم كدأبهم فى التساؤل عن الخير والصلاة في أيام عمر بن عبد العزيز وعن الطعام في أيام سليمان بن عبد الملك وعن اللهو في أيام يزيد بن الوليـد وليس فى بلاد الاسلام كلها مثل هذا الجامع حسنا واتقانا (٣) وجمال رسم وتمام زخرفة وزينة وهو مائل الى الجهة الشمالية من المدينـة وقد سمعت عن سفيان الثورى أنه قال الصلاة فيه بثلاثين ألف صلاة (٤)

كان موضعه قبل الاسلام بيعة للنصرانيـة تعرف بكنيسـة ماريحنا (٥) ومن قبل ذلك كان بيت عبادة لاهل جاهليتهم فلما دخل المسلمون المدينة عنوة تحت قيادة خالد بن الوليد أخذوا نصف الـكنيسة ثم دخل أبو عبيدة بن الجراح صلحا فانتهى الى نصفها الآخر وقد وقع الصلح بينـه وبين النصارى فبقى نصفها فى أيديهم وقد كانوا يزعمون ان الذى

---

(١) ابن جبير وياقوت ١*٥٩١ وابن الاثير ٥*٤ والفخرى ١٥١ وأبوالفداء ١*٢٠٩ والمقدمة ٣١٠ والقزوينى ١٢٧ (٢) ٤*٢١٩ و٢٢٠ (٣) ابن جبير ٢٦٣ والشريشى ١*٢٠٨ وتقويم البلدان ٢٣٠ وابن بطوطة ١*١٩٧ (٤) ابن بطوطة ١*٢٠٤ وابن جبير (٤) ابن الاثير وأبو الفداء ١*٢١٠ وياقوت ٢*٥٩١ وابن جبير وابن بطوطة ١*١٩٨

يهدم بيعتهم يجنّ فلما صارت الخلافة الى الوليدقال أنا والله أول من يجنّ في سبيل الله ثم بدأ الهدم بيده (١) فبادر المسلمون وأكملوا تخريبهاحتى هاجت النصرانية وعلاصياحهم فعوضهم الوليدعنها مالا جسيما وأرضاهم بعدة كنائس صالحهم عليها (٢) ثم وجّه الى ملك الروم (٣) فى أشخاص اثنى عشر ألفا من العملة والصناع والمرخمين وتقدم اليه بالوعيـدان هو توقف ثم أكمل هدمها سوى حيطانها وأنشأفيها النسر والقناطر وحلاها بالذهب وعلق عليها الاستار من الوشي والابريسم وبقى العمل فيها نحواًمن تسع سنين وكان يعمل فيها ألف مرخم يُجلَب اليهم الرخام (٤) والمرمر من كنيسة أخرى لأمم النصرانية بمدينة انطاكية تعرف بزور (٥) ٠

وقد غرمَ الوليـد على هـذا الجامع من الدنانير المصرية زنة مائة وأربعة وأربعين قنطاراً (٦) بالدمشقي وذلك يعـادل عشرة آلاف ألف دينار (٧) وقرأت في بعض المجاميع ان جمـلة المنفوق عليه كان أربعمائة صندوق وفى كل صندوق ثمانية وعشرون ألف دينار فنى القدر الحاصل منه توافق بين الروايتين ٠ وكان المتولى على النفقة عمر بن عبدالعزيز(٨) قبل أن يلى الخلافة وقد اتخذ فى المسجد ستمائة سلسلة من الذهب (٩) للقناديل والثريات ونزل جدرانه بفصوص الذهب من الفسيفساء ممزوجة

---

(١) ابن جبير ٢٦٤ (٢) الخميس ٢*٣١١ (٣) المقدمة ٢١٠ (٤) تقويم البلدان ٢٣٠ (٥) المسعودى ١*٢٧١ (٦) الخميس ٢*٣١١ (٧) ابن جبـير ٢٦٣ (٨) المسعودى ٢*١١٩ (٩) ياقوت ٢*٥٩٥

بانواع من الاصبغة العجيبة تمثل أشكالا من الرسوم ليس أبهج منها في العيون ورفع عمدانه من الرخام المجزع طابقا فوق طابق (١) واتخذ الاساطين الضخمة فيما يجارى الارض والسوارى الدقاق فيما يعلو الحنايا والقباب وفى خلال ذلك صور المدن والاشجار بالالوان والذهب وكتب فى حائط المسجد بالذهب على اللازورد «ربنا الله لا نعبد الا الله أمر ببناء هذا المسجد وهدم الكنيسة التى كانت فيه عبد الله الوليد امير المؤمنين فى ذى الحجة سنة سبع وثمانين» (٢)

أما طول هذا الجامع (وذلك من الشرق والغرب) فهو مئتا خطوة أو ثلاثمائة ذراع (٣) وعرضه من القبلة الى الجوف مائة وخمس وثلاثون خطوة . وأبوابه أربعة . أولها الباب الشرقى ويعرف بباب جيرون وعليه عمودان من الحجر في غاية الافراط في الطول والعرض يقال انهما من بقايا الكنعانيين (٤) اذ ليس فى وسع أهل هذا الزمان قطعهما ولا نقلهما. ثم الباب الشمالى ويعرف بباب الناطفيين وكان مدخل الكنيسة قديما. ثم الباب الغربىّ ويعرف بباب البريد . ثم الباب الجنوبى ويعرف بباب الزيادة وهو يفضى بالخارج منه الى دار معاوية (٥) المعروفة بالخضراء وكان قد نزلها مروان بن الحكم بعد واقعة مرج راهط كما هو معروف. وفيه ثلاثة مقاصير أشرفها المقصورة التى اتخذها معاوية رضى الله عنه

---

(١) ١٢٧ وياقوت ٢*٥٩٣ (٢) القزوينى وياقوت والمسعودي (٣) ابن بطوطة ١*١٩٩ (٤) القزوينى ١٢٧ (٥) أبو الفداء ١*٢٠٤

عند ماكان للمسلمين نصف الكنيسة وتعرف بالمقصورة الصحابية وهى أول مقصورة صنعت فى الاسلام (١) بناها هذا الرجل العظيم وقاية لنفسه من الخوارج أن يغتالوه في أوقات الصلوة كما اغتالوا عليا عليه السلام فكان اذا سجد قام الحرس على رأسه بالسيوف (٢) والى جانب هذه المقصورة خزانة مغشاة بالنقوش فيها المصحف الكريم الذى وجّهه عثمان ابن عفان رضى الله عنه الى الشام (٣) وأخرج الىّ منها صاحب الوقوف خاتما من الفضة للوليد بن عبد الملك قد نقش عليه « ياوليد انك ميت ومحاسب » وآخر لاخيه سليمان وكلماته « آمنت بالله مخلصا » (٤) فأخذتهما لأطرف بهما المأمون عند عودتى الى بغداد ليضيفهما الى ما لديه من خواتم الخلفاء . وعلى هذا الجامع قبة دورها ثمانون خطوة عليها رصاص يمتد منها الى أن يغطى سطوح الجامع كلها بألواح طولها أربعة أشبار في عرض ثلاثة وربما اعترض فيها نقص أو زيادة . وهيئة السقوف من الخارج هيئة نسر قد نشر جناحيه وكأنما القبة رأسه وهى فى سمو الارتفاع بحيث تراها من أى موضع استقبلت دمشق .أما صحن المسجد فانه من أجمل المناظر وعلى جدرانه آيات من القرآن الكريم ورسوم بالذهب تدهش البصر والبصيرة وهناك مجتمع الدمشقيين ومنتزههم لا يزالون فيه بكرة وعشية يقرؤن ويتحادثون

---

(١) ابن جبير ٢٧٥ وأبو الفداء ١*١٩٩ (٢) الفخري ١٢٩ (٣) ابن بطوطة ١*٣٠٣ (٤) المسعودي ٢*١١٩ والخميس ٢*٣١٤

ولهـذا الجامع ثلاث صوامع (١) واحـدة بالجانب الشمالىّ وهى مذهبـةمن أسفلها الى أعلاها (٢) وفيها مقاعد ومجالس واثنتان بالجانب الغربى واحداهما أكبر الصوامع الثلاث . وقد وجـدت في أروقتـه ودهاليزه وصحنه وفي المساجدالمتشعبةمنه ماءيجرى بلاانقطاع وشاهدت في البلاط القبلى قبالة الركن الايمن من المقصورةالصحابية تابوتا معترضاً من الاسطوانة وفوقه قنديل موقد أبدا في الليل والنهار يقال انه مشهد رأس يحيي بن زكريا عليهما السلام (٣) ومن حوله عمد عجيبة قدظهرت فيها عروق أخرى من ألوانها تتخيلها العين منزلة فيها بايدى الصناع الى غير ذلك من المحاسن التى حواهاهذا الجامع المبارك وعظمت عن ان تحاط بوصف فانى لاحسب الزائر لو تردد اليه زمانه لرأى كل يوم مالم يكن قد رآه قبل (٤) من جمال الرسم وأحكام الصنعة كما أحسب انهلا يزوره احد الا ويجدّد الدعاء لبانيه (٥) وان لم يكن له ميلٌ فى السياسة مع الامويين

المرور ببعلبك وركوب البحر من بيروت

رجعٌ الى اقتصاص الرحلة . ركبت من دمشق فى غد اليوم الذى سفرت فيه الغلمان الى بيروت فوصلت في منتصف الطريق الى بلدة غناء ذات سور قديم يقال لها بعلبك « ومنها الى الزبدانى وهى مدينـة على طرف وادى بردى ثمانيـة عشر ميلا (٦) » وهى ذات اشـجار وانهار

---

(١) ابن بطوطة ١*٢٠٣ (٢) الشريشى ١*٢٠٨ (٣) ابن جبير ٥٧٥ (٤) القزوينى ١٢٧ (٥) ابن جبير (٦) تقويم البلدان ٢٥٥

وعيون وخيرات كثيرة (١) وفيها الكرم الخصيب . ولقد لقيت فيها فيلسوفا من النصارى يقال له قسطا بن لوقا (٢) صاحبني في زيارة الآثار الموجودة فيها وأخبرني عنها بأشياء كثيرة ربما أتيت على بعضها في سياق الحديث

وقد أخذت هذه الآثار العظيمة بمجامع قلبي حيرة واعجابا وأعظمها هيكلان كبيران أحدهما أعتق من الآخر (٣) وفيهما من النقوش العجيبة المحفورة في الحجر مالا يتأتى حفر مثله في الخشب مع ارتفاع جدرانهما وضخامة حجارتها وطول أساطينهما واتساع فتحها وعجيب بنيانها (٤) مما يذهل العقول تعجباً من اقتدار الرجال على مثل هذه العظائم . وقد أخبرني قسطا هذا الفيلسوف أنه لا يرى الا أن هذين الهيكلين من بناء أمة ماهرة في فن الهندسة كما أنه لا يرى الحنايا التي تقلها الا أعتق من الآثار الظاهرة وفي ذهنه أنها وضعت في أيام سليمان بن داود عليهما السلام ولما جاءت الروم الاولى هدموا المعبد العتيق ورفعوا الهيا كل الماثلة مكانه

أما الحجارة الثلاثة العظيمة التي تعد من عجائب الدنيا فقد رفعها الروم بايدي عبيدهم على ما جرت به عادتهم من استخدام الاسرى في البنيان وليس كما تزعم العامة من أن الجن هم الذين بنوها لسليمان عليه السلام كدأبهم فيما يحدثون عن كل أثر (٥) من آثار الاولين فيه معجزة للآخرين . وانما

(١) ابن بطوطة ١*١٨٥ (٢) المقرى في ترجمة يعقوب الكندي (٣) المسعودى ١*٢٩٦
(٤) المسعودي ١*٢٩٦ (٥) نجد في كثير من كتب العرب نسبة المباني العتيقة إلى الجن

رفعها الروم بالحيل الهندسية والقوة الآدمية (١) استدلالا مما نجد فى أطرافها من الانقرة التى تقضى بأنها كانت ترفع جراً بالامراس بأن تمهد لها الارض سطحا من التراب يرتفع شيأ فشيأ مع امتداده الى أن ينتهى الى حيث هى مرفوعة ثم تجر بالسلاسل على عجلات لها بكرات من الفولاذ عريضة الاطراف حتى لاتغوص فى التراب صغيرة الجرم حتى تحتمل الثقل وتكون أشد من البكرات الكبيرة التى لابدّ ان تلتوى تحت هذه الحجارة الهائلة ولا تأتى بالمقصود من استعمالها لرفع الاثقال

ولقد كانت سياسة الروم مع الامم التى يتغلبون عليها أن يأخذوا دينها بالتعظيم والتبجيل ليستميلوها اليهم ويبيتوا فى أمن من تحركها للفتنة على غير اضطرار الى حراستها بالجند اذ تنبئ الاخبار السالفة أنهم كانوا يملكون معظم العالم فلو دعاهم حفظ البلدان الى اقامة الجند فيها للزمهم آلاف الألوف وهذا بعيد عن أن تقوم دولة من دول العالم بكفالته . فلما دانت لهم الشام وكان بعل (٢) معبودا فيها من الصابئة وغيرهم كما قال الله تعالى « أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين » بنوا لعبادته هذا الهيكل العظيم على شكل غريب يقصدون به الاعجاز ليظهروا ضخامة ملكهم لأهل المشرق واقتدارهم على عظائم الأمور. اذ ليس للظن بأنهم قصدوا اليه المنعة موضع فى نظر العقلاء . فهذا احد اللولبين اللذين يفضيان بالراقى عليهما الى سطح الهيكل قد

---

(١) المقدمة ٣٥٨ (٢) المسعودى ١ * ٢٩٦

اتخذ اعلاه بما هو زائد عن النصف من حجر واحد فصلت منه الدرجات والسقف والحائط الدائر من جميع جهاته وكذلك الحجارة الثلاثة العظيمة قد اتخذت في أعلى الجدار لتظهر للوافد على بعلبك من حيث هو مستقبل للهيكل فلو أنه أريد بها المنعة لاقتضى ذلك ان تكون فى أسفل الجدار لافى أعلاه كما أنه لو أريد ذلك من اللولب لكان النصف المتخذ من قطعة واحدة قائما فيما يدانى الارض أو يماسها حتى اذا وهى أعلاه بقى هو فى موضعه أو تداعى جدار السور بقيت الحجارة الثلاثة مرداً لمهاجمة العدوّ

ثم انه لما انقرضت الروم الاولى وانفرد ملك الروم الثانية بالقسطنطينية وسائر المشرق وقد أخذوا في تعظيم النصرانية رأوا أن بقاء هذا الهيكل محجة للناس تنشغف أفئدتهم بما فيه من الغريب ولا يقصدون الكنائس وهى دونه فى البهاء والاشراق مضرّ بالنصرانية وحابس لها عن أن تعم الشام فعمدوا الى تخريبه ومحو الأثر المائل منه . وكان في القسطنطينية فطريك ذو عقل ودهاء يقال له فم الذهب يحنا فأشار على القيصر أن يتخذه كنيسة لعبادتهم لتحصل المنفعة منه مع حفظ الأثر الجميل فاتخذه كذلك . وفي رواية أنه أشار عليه بأن يشغل فيه الفؤوس ففعل أو يقال انه لم يفعل . فانظر الى هذا الهيكل كيف تقلَّبت به أغراض الامم فقد شاده الروم الاولى لغرضهم فى الدنيا ثم خربته الروم الثانية لغرضهم فى دينهم ثم مثلت آثاره لهذا الزمان ناطقة بعزة الله شاهدة أن لا باقى سواه

ولما انفصلتُ عن بعلبك مررت بسهل أفيح يقال له البقاع وعرَّجت فيه على موضع يسمى بكرخ نوح (١) يزعم أهله ان فيه قبر صاحب السفينة عليه السلام . وكنت أرى بمقربة من كل قرية من قراهُ ردوما قد تراكمت أمثال التلال كأنها من بقايا أمَّة قد خلت . وصرفتُ من بعلبك الى بيروت يومين في جبل لبنان لصعوبة مسلكه وكنت أميل الى عيون القرى لتنزيه النفس وارواء الظمأ وانها لكثيرة في هذا الجبل المبارك وهي تمذع في شغفاته . وأقمت في بيروت حرسها الله ثلاثة أيام أنتظر هبوب الريح الموافقة وهي مدينة جليلة (٢) على ضفة البحر طيبة الاقليم عليها سور من حجارة (٣) تحف بها عمارة مشتبكة في سفح لبنان كان يستجيدها الوليد بن يزيد المقدم ذكره فيقول . (٤)

ربَّ بيت كأنّه متن سهم　　　سوف نأتيه من قُرى بيروت

ثم يقول (٥) والنفس تائقة اليها والقلب شغف بحماها

ألا ياحبّذا شخصٌ　　　حما لقياه بيروتُ

وهي فرضة دمشق ومعظم الشام وفي مرساها مجتمع كثير من سفن التجارة ويجلب منها حديد (٦) لبنان الى ديار مصر وفي شرقيها نهر يغاظ في الشتاء قد بنى لهُ قدماءُ أهلها قناة (٧) يجرون الماء فيها اليهم والى غربيّها

---

(١) ابن بطوطة ١*١٣٣ ، (٢) تقويم البلدان ٢٤٧ ،(٣) الادريسي (٤) الاغاني ٦*١٢٢ (٥) الاغاني ٦*١١٧ (٦) الادريسي وابن بطوطة ١*١٣٣ (٧) تقويم البلدان ٢٤٧

مشهد الاوزاعيّ رحمه الله وميلاده ببعلبك (١) وهو فخر المحدثين من أهل الشام وله في علم الحديث (٢) مدوّنات جمع فيها الصحيح المروى عن الصحابة والتابعين ومن سمع منهم واستخرج الاحكام الشرعية على مذهبٍ انفرد به أهل تلك البلاد .

وقد كان لبيروت شأن عظيم في غابر الايام وكان عليها ملوك من الكنعانيين ومن قام بعدهم باعباء الدول الجسام . وكان للعلوم فيها سوق ليس بعدها غاية فى الرواج حتى انهادعيت بمدينة الحكمة.وكان للروم فيها منازل وهيا كل هجروها بعدالفتح وجلوا عنهاجلاء لم يرجعوا بعده . الى ان عاد اليهاالعمران في الاسلام بقيام الخلافةفى دمشق اذ كانت المدن لاتصلح الا بقيامها بالملك أو قيام الملك فى جوارها حيث تتوارد الخيرات وتتقاطر الوفود ويحصل الامن للتجارة

ولئن كنت قدشهدت لهذه المدينة بطيب الهواء فانى لاأنكر مافى ريحها الشمالى من الرطوبة التى تحدث فى الرأس ألماً لايشعر به الا الغريب الزائر(٣) غيرأن هبوبه فيها ليس بالمتواصل حتى نعده من عيوب الاقاليم. بل الغالب على بيروت ريح الصبا التى تنعش النفس تأتيها من ناحية الرمال المنبسطة على شاطئ البحر . فربما وجدت هذا الموضع أصلح للسكنى من البلد العتيق . وفى ظنى انه اذا توفر عمرانه عن أن يسع أهله فلا بد أن يحدثوا فيه بناءهم اذ هو أقرب وجهاً الى نسيم الصبا منه الى ريح الشمال .

---

(١) أبو الفداء ٢*٧ والطبقات ١*٥٠ (٢) ابن خلكان (٣) القزويني

وركبت البحر من هذا الثغر المحروس فى أول يوم من شعبان وأقلعت مركبنا بهواء شمالى لطيف ليس بالثقيل ولا بالخفيف أرسله الله علينا بكرمه ولطفه واستمر سيرنا فى البحر نحوا من عشرين يوما الى أن أقبلنا على مالطة وهى جزيرة من أول بلاد الفرنجة وبها كنائس معظمة لأمم النصرانيـة فبتنا يومين في مرفئها نتسوق منهـا الزاد ثم أقلعنـا عنها الى مرسـيلية في ساحل الديار الروميـة الى غرب اللنبردية (١)

لقاء القيصر والمنصرف من الرسالة

ولما أقبلنا على مرسيلية لم نر لها شيأ من زخارف البنيان . ولا وجدنا فى أهلها أثراً من محاسن العمران . لانهم كانوا قبل دخولهم في ولاية هذا الانبرذور أهل جاهلية وخشونة تستعبدهم طائفة طاغية من انفسهم تجرى فيهم القضاء بحسب هوى النفس فلما استولى على ممالكهم اقام عليهم أميرا فوض اليه أمر الجند والقضاء وجباية الاموال وجعله بمنزلة الوزير فى الاسلام وأقام تحت يده طائفة من العمال يتولون المناصب فى ولايته ولهم ألقاب معروفة عندهم مثل المركيس وغيره . وليس في مرسـيلية من البنايات المزخرفة سوى قصر مبنى على علوة تشرف على المدينة يظهر انه كان مسكناً لبعض أمراء الجاهلية وكنيسة عليها قباب مرفوعة نصبها هذا الانبرذور الذى نصَّرامته ونَصر القسيسين والرهبان كما هو معروف

(١) تقويم البلدان ٢١٩

وقد نظر بعين العناية اليهم وأحسن بالنعم الطائلة عليهم واتخذ منهم أولياء يستشيرهم في أموره ويرجع فى السياسة الى رأيهم اذ كان القوم من دونهم همجا لا يعرفون القراءة ولا أميطت عن بصائرهم غشاوة الجهل ومعظمهم عبيد للمتمول من التجار يموتون جوعا بين يديه وهم يبللون أرضه بعرق تعبهم وشقائهم ثم لا يحصلون على كسرة يرتمقون بها على الحياة فأين هذا من حضارة العرب وصلاح أمرهم واتساع المعايش بين أيديهم واحتذائهم أشرف السنن العادلة فكأن الله تعالى قد خص هذه الامة من الفضل والنعم (١) بما حرم منه أمم المغرب . فان العرب أحلى منهم وأحلم . وأعلى وأعلم . وأقوى وأقوم . وأعطى وأعطف . وأحصى وأحصف . وأشرى للفخار وأشرف . وأنى للعار وآنف . وحسبي بما نقلت اليك من أخبارهم فى هذا الكتاب دليلاً على ما ركّب الله فى طبائعهم من الانفة وعزة النفس وما آتاهم الاسلام من المحاسن التى تشرفهم على جميع الامم

وقد شاهدت في ديار القوم كثيرا من الامور التى أخاف ان أتيت على بيانها أن تجرّ الحديث الى الخروج عما أنا بصدده من ذكر الرسالة . وقد وجدت عاداتهم غير منطبقة على عادات الشرقيين بل كثيرها مستهجن أوباق على خشونة جاهليتهم . ومن الغريب المألوف عندهم ان النساء يمشين فى الاسواق بلا نقاب ويجلسن مع الرجال سافرات الوجوه وهذا استرسال لا أظن أن تصان معه الاعراض صيانتها فى المشرق

(١) المسعودى ١*٢٣٦

من وراء الحجاب . وقد وقع بيني وبين الامير الذى صحبني فى مرسيلية مذاكرة فى هذا الامر وكان يظن ان المرأة ذليلة في ماتناوان منع ظهورها الى الرجال واقع عليها من جهة استصغارها والتحقير لها فلما ذكرت له ان الله تعالى قد وفاهن حقوقهن (١) في الدنيا والدين ووعد الصالحات منهن نعيما تميما في الآخرة وأمر بأن تجرى عليهن الوراثة التي لم تكن لهن قبل الاسلام قال ذلك صحيح ولكن العامة عندنا ترق طباعهم وتحسن اشارتهم ويصلح كلامهم وتظارف لهم المعاشرة الى خلال محمودة من الرقة يكتسبونها من تلك المخالطة ولا توجد فى المشرق الذى لا تجمع مجالسه الا الندماء والغلمان

وكان أمير مرسيلية عند ماتصل به خبر وصولى بالرسالة قد أخرج الي الجند ولم يترك شيأ من مظاهر الاحتفاء الا أجراه فى سبيل تعظيمها والاجلال لها فلما سألته عن الانبرذور أخبرني ان له غيبة في رومة لامر بينه وبين الباب (٢) الذى هو خليفة الامم النصرانية وانه يمكث عنده أربعين أو خمسين يوما فاستطلت هذه الغيبة منه وخفت فوات الحج ان بقيت منتظراً رجوعه فرأيت أن أوافيه برومية فركب معي من لدن الامير رسول الى القيصر وجزنا عباب هـذا البحر الذى لم تجزه بعد

(١) قد أوصى النبي صلى الله عليه وسلم بالنساء بقوله ان لنسائكم عليكم حقا وان لكم عليهن حقا الى أن قال فاتقوا الله في النساء واستوصوا بهن خيرا . (٢) كنية البابا بالباب مذكورة في تقويم البلدان ولفظها بتفخيم البائين وتشديدهما

سفن المسلمين الى أن منّ الله تعالى علينا بالوصول الى رومة بايمن طائر وألطف ريح والحمدلله على جميل مايواليناه من النعمة ويتداركنا به من اللطف

ولما أقبلنا على رومة أبلغ الرسول الانبرذور خبر قدومي من لدن الرشيد فسيّر اليّ أمراء دولته وأهل حاشيته وبطانته فساروا بي الى حيث هو مقيم في دار الباب وهو قصر بل قصور قد جمعت بين الضخامة والاحكام وعني البابون من خلفاء بطرس كبير الحواريين في تجميلها وتزويقها حتى صيروها نزهة جمعت الجمال والحسن . وكنت حين جاوزبي الامراء مقاصيرها الى مجلس الانبرذور قد رأيت على جدرانها صور ملوك وأئمة وعبّاد قد طحنتهم رحى المنون من أملاك العصور الخالية فلما دخلت عليه وجدته جالساً على منصةّ من فوقها قبة عليها كتابة بالروميّة وهي محلّاة بالذهب وعلى رأسه تاج مرصّع باللؤلؤ والياقوت والزبرجد وفي يده قضيب الملك وعليه حلة من الوشي كأعظم مايكون من حلل الملوك وبين يديه حرس قد وقفوا بالسيوف المشهرة والحراب والاعمدة وبينهم جماعة من العلوج وأشراف العساكر وطائفة من الجثالقة والرهبان المقدمين قد لبسوا الوشي الذي يقيمون به الصلاة في أعيادهم ومواسمهم ولكن كالذي لم نره فيمن يجاورنا منهم في المشرق حسنا يغشي الابصار بريقه ولمعانه .

فلما مثلت بين يديه قمت بما وجب عليّ من الاجلال له وبلغته سلام الرشيد على لسان المترجم فكلّمني بترفع الملوك الذين توقع جلالتهم

مهابةً في قلوب الوافدين عليهم ولكن من غير أن يكون فى نفسه جبروت وشكر للرشيد مودته وأثنى عليه ثناء جميلا وكان الامراء والرهبان يمدون اليَّ أعناقهم ويحدقون بي أبصارهم كأنهم لم يروا من قبلي مشرقيا على دين الرسول صلى الله عليه وسلم . ثم أشرت الى الترجمان أن يذكر له هدية الرشيد وانه يطرف بها جلالته لارتباط المودة بينهما فشكرني على ذلك مرة ثانية ثم استدناني منه وأمرني بالجلوس وأخذ يسألني عن رحلتي اليهِ عطفاً مال اليه بعد الترفع الذى استقبلني بهِ فكنت أجيبه بما تقتضيه الرسوم من حمد الله على ما آتاه من الملك العظيم والثناء عليه فيما أوجد لرعيته من أسباب الخير والراحة . ثم سألني عن الدولة في المشرق وانه يروم أن يكون الدهر للرشيد فى صفاء فأجبته بما في الاشارة منه تحفظ عن ذكر بني أميَّة والملأ من الاعيان والرهبان حاضرون فسألته أن يأذن لي بالدخول عليه في خلوة وانفراد فأجابني الى ذلك وهو يظهر ائتناسه بي وتوسمه الخير مما وقع بينه وبين الرشيد من التواد .

ولما انصرفت من حضرته أوقف لصحبتي أميراً من عظماء دولته ملك قلبي برقة نفسه . وأحسن منقلبي بلطيف أنسه وأحلَّ كرامتي عنده بالمحل الارفع لم يترك أثرا مشهورا في رومة من قصر منيف ولا منزل مزخرف ولا موضع ذى حسن وبهاء الا سار بي اليه وأرانيه ليعظّم في عيني أمر الفرنجة فما كنت لاكبر من مبانيهم الا الكنائس التي يعظمونها ويتأنَّقون فى تمنيقها بالرسوم التى تتناهى في الحسن وجمال

الزينة وهـذا الرسم أثر لهم من الصناعة ينفردون به دون المشارقة (١) الذين ينهاهم الدين عنه (٢) وانما يكونون فى حاجة الى صناعتهم اذا بنوا مسجداً أوقصراً مزخرفاً كما علمت الاأنه لايصح انفرادهم بالحذاقة فيه دونهم لبطلان الموازنة فيما يتركه البعض ويأخذ فيه الآخرون. وفى نفسى ان المسلمين لولا نهى الشرع عن التصوير لما بعد أن يفوقوا فيه الروم فقد رأيت من عمل الرسّام فى المشرق الاقصى مايقرب أن يكون في جودة عمل الروم.ورأيت صوراً من بلاد الصين وصلت الى البرامكة وهي تمثل رجالا ونساءوأولاداً بحيث الناظر اليها يميز بين الضاحك والباكى حتى لقد يميز بين ضحك السرور وضحك الشماتة (٣) وهـذه غاية فى المهارة لم يبلغها الاّ كبراء أرباب العقول من صناع الروم . وأعظم ماشاهدت من كنائس رومة بيعة بطرس حوارىّ المسيح عيسى عليه السلام وهى من عجائب الدنيا (٤) وفيها من الرسوم والنقوش والاصباغ والاعمدة والذهب (٥) ماأذكرنى جامع دمشق في بهائه وجماله وهى ابدع

(١) لم يكن للمشارقة في زخرفة مبانيهم الا أن يتخذوا أشكال الخطوط دون الصور وقد ابتدعوا من رسومها اشكالا تقيد الابصار في الحسن والبهجة مع انه ليس أصعب على الرسام من ابتداع شكل لايتوسع فيه من غير الخطوط المتماثلة وبذلك يعلم مقدار فضلهم في الصناعة بما وضعوه من هذه الخطوط وما علّقوا عليها من الكتابة التى اتخذوا فيها طريقة التزويق لتملأ العين بهجة وارتياحاً (٢) المقدمة ٢٢٨ (٣) القرمانى ٥*٢٢٤ (٤) المقريزي والمحاضرة ١*٣١ والقرمانى ٦*٥٥ (٥) القزوينى

ماشاهدته من مباني الروم وامتدادها مع مقاصيرها نحو ستمائة ذراع (١) فيما سمعت وامتداد الكنيسة يبلغ نصف ذلك (٢) وهي مسقوفة بالرصاص مفروشة بأفخر أنواع الرخام. وعلى يمين الداخل من آخر أبوابها حوض عظيم للمعمودية يجري فيه الماء دائما من نهر يشق هذه المدينة (٣) كما تشق دجلة مدينة الزوراء. وفي صدرها كرسي مذهب يجلس فيه البـاب في ايام المواسم والاعياد. وتحته باب مصفح بالفضة (٤) يوصل الى سرداب فيه مشهد بطرس فيما يزعم أهل هذه البلاد ولكني علمت ان اهل المشرق من أمم النصرانية يردون ذلك عليهم ويذهبون الى أن بطرس انما قبض في انطاكية لافي رومة وان كرسي انطاكية عندهم هو المقدم على كرسي رومة وفي هذه الاقوال نظر لامحل لذكره في هذا الكتاب. وخارج الكنيسة عمود من رخام قائم على قواعد اربع من النحاس وفي أعلاه عمود من الصفر قد رفعت على رأسه كرة مذهبة يراها كل من في رومة كأنها علم لموضع الكنيسة.

ولما كان الغد اذن القيصر لي بالدخول عليه فلقيته في ثياب من الديباج وعليه تاج من الجواهر أعظم مما كان عليه بالامس كأنه أراد ان

---

(١) تقويم البلدان ٩٩ (٢) ابن خرذاذبه ٩٣ (٣) تقويم البلدان ٢١١

(٤) كذا وجدت وصف هذه الكنيسة في أسفار العرب من أهل الاسفار وغيرهم وذلك قبل الحروب الصليبية

يظهر لى عظم سلطانه (١) بما تحوى خزائنه من الجوهر والمال . ولما أمرنى بالجلوس بلغته ماأوصانى الرشيد بلاغه من أمر أمية في الأندلس وما يروم من موافقته عليهم ولكن بايجاز أبعدت فيه التاكيد ليكون له اشارة الى المصلحة لاغير فخاطبنى بما يقرب معناه من كلام وزيرنا جعفر أعزه الله فاكبرت ذلك من غير أن أعجب منه اذ كنت أعلم أن عقول الحكماء قد تتوارد على الشيء الواحد ولو على اختلاف الآماد . وتتلاقى ولو على بعد البلاد . ولما ذكرت له قرابة العباسيين من النبي صلى الله عليه وسلم فكر في نفسه حتى ظننت أنه سيقول لى ان من الناس من هم أقرب منهم ومن بنى أمية اليه . ثم انبسط له مجال الحديث فقال انى لارى الاسلام اليوم أقل اجتماع عصبة منه فى أيام الخلفاء الراشدين (رضى الله عنهم) لتجزئته بين المشرق والمغرب . على أنى أرى دولة صاحبك أعظم هذه الدول وأوسعها رقعة مملكة . وأما أمر الامويين فانه وعر المرام . لا يناله الا على تمادى الايام . اذ لا يدل الشقاق الواقع اليوم بين السلطان وعميه على ضعفهم عن رد العدو فلو شد صاحبك عليهم لحوطوه باطرافهم وقاتلوه بغرض واحد تدعوهم اليه الحالة التى يقعون فيها جميعا من الغرر والاشراف على الخطر ولقد كنت أرى تغلبه قسرا على الاندلس من قبل أن يوافيها الامويون وقد كانت قضاتها على أغراض متضاربة أفضت بما أجلت عن الحروب فيما

---

(١) ذكر صاحب الاغانى ٢*٢١ أن كسرى لما أنفذ رسوله الى قيصر الروم حمله على البريد ليريه سعة أرضه وعظم مملكته فذكرت عن هذا القيصر مثل ذلك

بينهم الى تغلب الجيرة عليهم اما اليوم وقد وافوها بالاموال(١)فليس من السداد ان يبادئهم بالقتال على حين يأتون من أفريقية بالمرتزقة من الرجال « وهم الذين يكرون أنفسهم للحروب » (٢) وربما تعذر عليه مداهمتهم من المغرب بما هو واقع من الفرقة بينه وبين العلويين فيكون له عدوان من الأمويين وأهل البيت جميعا وقد قيل في الامثال « ان الزيبر اذا جمع منه حبل يوثق به الفيل المغتلم » ثم انه ذكر لى عند ما استنهضته الى مظاهرة الرشيد ان بينه وبين الاندلس ملوكا يجب أن يبقى معهم على عهد المسالمة والموادعة وأنه يوجه همته الى مناصبة الملوك الذين هم في ناحية المشرق كانه يريد ان يستولى على القسطنطينية . هذا ماوقع بيني وبينه من الحديث وقد قال لى فى خاتمة المفاوضة قل لامير المؤمنين انى عنيت بحاجته وسأكون ظهيرا له فيما يروم واقرأ عليه السلام .

ذلك ما كان من أسرار الرسالة لم تتوسع المصاحة منها الى ماوراء التواد الظاهر من السياسة كما رأيتَ ولبثت فى رومة ثلاثة ايام متواليات . وكان الانبرذور قد اتخذ لى وليمة دعا اليها عظماء دولته وتكرم على بخاتم من الياقوت في سبيل التعطف ثم طلب الى ان آخذ على تونس لاوجه اليه منها برمة عظيم من عظماء النصرانية يقولون انه من أهل الجنة (٣) فأجبته بالامتثال الى ذلك فسير في صحبتي مركبا من اسطوله لتحملها

(١) المقدمة ١٥٨ (٢) المسعودى ٢*٤٠٩ (٣) هو قبريانوس فيما يقولون شهيد من شهداء النصرانية

اليه واقلعت مركبنا عن ساحل رومة فى يوم شديد الحر من شهر رمضان كانّ الحرارة فيه تشمل الاقاليم المرتفعة ايضا وقد حق تسميته برمضان من الرمض وهو ان تحترق الرجال من شدة الحرّ(١)

وكان الفراغ من تقييد هذا الكتاب وانا على متن السفينة وبينى وبين تونس مسيرة يوم وليلة . والله اسأل ان يبلغنا المقصد بالسلامة وهو الكفيل بالتيسير والتسهيل لارب سواه .

الرسالة التاسعة

《 المرور بتونس من بلاد العرب 》

كتبت اليك الرسالة التاسعة بعد الانصراف من الرسالة . واليوم اكتب اليك من المشاعر المباركة بعد بلاغها الى الرشيد . فانى لما قفلت من ديار الروم عرجت على تونس من بلاد المغرب فأكرم عاملها من لدن ابن الاغلب وفادتى واخرج الى زورقا حملنى عليه الى المدينة لان البحر يبعد عنها نحو عشرة اميال (٢) وبينهما بحيرة قريبة الغور فسبق اهتمامى باخراج الرمّة التى أوصانى بها القيصر الى مركب الروم لابعادهم عن مرفأ المسلمين اهتمامى بما سواه من الامور . ثم انى نظرت في شأن ابن الاغلب ابراهيم وانقطاع اهل الشيعة الى حوزة ادريس بن ادريس رضى الله عنه من غير ان اكشف عما بالنفس من الميل مع اهل البيت اذ كنت اوجبت على نفسى ان اقوم بصدق الخدمة للرشيد فى هذه

---

(١) الكنز ١٤٦ (٢) تقويم البلدان ٣٨ و١٤٣

الرسالة التي حمّلني مجاشمها واستودعني فيها امانته فاتصل بي من اخباره معهم جسيم حملت خبره الى ملوكنا البرامكة اعزهم الله . وقد اذكرني حال العلويين في المغرب ايام علي وابي بكر وعمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنهم من الصلاح والخير والبركة يتبعون الرسوم التي حفظوها عن النبي صلى الله عليه وسلم ولا يتيمون من ابهة الملك الا ماتدعوهم اليه حاجة الخلافة وكذلك اهل الشيعة من التزام الخير واتباع السنن العادلة والمحافظة على القراءة التي قرأها عليّ عليه السلام . الا ان الاغابي دمر الله ملكه ينقم عليهم امر الدنيا والدين ولا ذنب لهم الا انهم يحرصون على الخير والصلاح ويميلون مع اهل البيت السلالة الشريفة الطاهرة .

وهذه القراءة التي ينقمها الاغلبيّ على اهل الشيعة قد كان لها شأن عظيم في صدر الاسلام واسألت من دماء المسلمين بحارا بما تعصبوا له من الاغراض . كان صدور الخلاف فيما بينهم على قراءة ابن مسعود وقراءة ابيّ بن كعب وكان اهل الشام في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه قد انقطعوا الى قراءة يعارضون بها قراءة اهل العراق وزعموا انهم اخذوها عن المقداد بن الاسود وكان عثمان يقرأ قراءتهم وينقم على اهل الحرمين والعراق قراءتهم على قراءة ابي موسى الاشعري (١) فنغص عليه ذلك عليّ عليه السلام . . . وكان عثمان في خلافته قد عقد مجلسا من الصحابة على ان يحمل الناس على قراءة واحدة في جميع الاقاليم والاطراف

---

(١) أبو الفداء ١*١٨٦

فجمع الرقاع والادراج واللخاف والعسب التى كان مكتوبا فيها القرآن الكريم وأمر بأن تحرق كلها وأن ينسخ من الصحف التى كتبت في خلافة ابي بكر رضى الله عنه وكانت مودعة عند حفصة (١) زوج النبي صلى الله عليه وسلم اربع نسخ (٢) يبعث بها الى الديار الاسلامية فتولى نسخها زيد بن ثابت الانصارى (٣) وعبدالله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومى . وقيل عبد الله بن عباس ومحمد بن ابي بكر (٤) وقال لهم عثمان ان اختلفتم فى شيء أو كلمة فا كتبوها بلسان قريش فانما نزل القرآن بلغتهم. (٥) ولم تزل هذه المصاحف المنسوخة محفوظة في مكة والشام والكوفة الاّ المصحف الذى كان فى المدينة فانه فقد فى الحرب التى أثارها يزيد بن معاوية

ولما انفصلت عن تونس ركبت البحر توًّا الى الاسكندرية وفي نفسي أن ابلغها فى عشرين يوما فلما توسطنا البحر غلبتنا الرياح العاصفة ونكصت بنا السفينة على الاعقاب مسيرة بضعة أيام الى أن هدأ ثائر النوء وطابت لنا الريح فسر با بمعونة الله الى أن شاهدنا منارهذا الثغر المحروس . والقطر المأنوس. لليال خلون من شهر شوال فلما طلع النهار انتصب امامنا في عظمه وهول مرآه (٦) حتى كأنه عمود يلقى القبة الزرقاء ويصل بين الارض والسماء .

---

(١) أبو الفداء ١*١٦٦ (٢) الفخرى وابن جبير ١٩٥ (٣) أبو الفداء ١*١٦٦ وابن جبير ١٠٢ (٤) الكندى (٥) أبو الفداء ١*١٧٦ (٦) ابن بطوطة ١*٢٩ وابن جبير ٣٧ وعبد اللطيف ٦٤

رسا اصله تحت الثرى وسما به　　الى الجو فرع لا ينال طويلُ

فهو من سمو الارتفاع بحيث يهتدي به أصحاب السفن عن بعد سبعين ميلا وربما قدّر الناس في ارتفاعه نحواً من مئة وخمسين باعا (١) وهم يقولون ان بانيه الاسكندر الرومىّ الذى ملك معظم الدنيا أو ملكٌ من خلفائه يقال له بطليموس قاسى مع رومة حروبا صعابا فى البر والبحر فبناه لارتقاب جندهم والاستعداد لمراكبهم قبل وصولها. ويحدثون عن الوليد بن عبد الملك الاموى (٢) انه سول له جهلة قومه أن يهدمه طمعا فى الوصول الى ما حوَى جوفه من الكنوز المخبأة فشرع في الهدم والدمار حتى قوّض جانبا من هذا المنار. ثم تعاظمت عليه النفقة ولم يجد ما يستعيض به عنها فكف عن عجز لحقه ولَوم نراه يستحقه. وكان مقامى فى الاسكندرية عند عاملها الليث بن الفضل الابيوردىّ (٣) ثلاثة أيام وكنت أحب مع ما لقيت من أنسه ووجدت فيها من سعة العمران واستبحار المصر أن أمد فيها بساط الاقامة لولا انى خفت فوات الحج فانصرفت عنها في

---

(١) تقويم البلدان ١٠٥ وابن جبير ٣٧ وربما كانت المنارة قبل أيامهم أكثر علوا مما ذكراه يقول ابن الاثير فى حوادث سنة ١٨٠ انه كانت بمصر زلزلة عظيمة سقط منها رأس المنارة وربما ذكر المقريزي شيأ من ذلك فى كتاب الخطط والآثار. ويقول القرمانى ٦*٦٤ ان طولها ألف ذراع الى غير ذلك (٢) المقريزى والمحاضرة ١*٤٣ والمستطرف ٢*١٧٨ وتقويم البلدان ١٠٥ (٣) ذكر أبو المحاسن ١*٥٢٢ انه كان عامل مصر فى ذلك الوقت وهو سنة ١٨٦ للهجرة

اليوم السابع من شوّال وكنت قد استقريت كثيرا من أماكنها المشهورة ووقفت على ما اتسع لاهلها من طرق المعاش فرأيت ان اجمل الكتاب بذكره ليبقى فخراً للمسلمين فى استيلائهم على هـذه المدينة التى ليس اعظم منها فى ديار الروم

في ذكر الاسكندرية

الاسكندرية مدينة تجارة من أعظم مدائن الدنيا وأقدمها وضعا وأحفلها بنيانا واليها المنتهى في المنعة والحصانة اذ كانت مبنية على لسان من الارض والبحر محيط بها من جميع جهاتها ولذلك يصعب منالها على العدو وان لم يكن وراءها وعر ولا هضاب يتعزز به جانبها من البر(١) ولقد كانت فى قديم الزمان خاملة الذكر يقال لها رقودة (٢) فلما تبوّأها الاسكندر الرومى (٣) وصارت كرسىّ الملك بعده تجلت بجلال الحضارة . وتحلت بحلل النضارة . واتصلت عمائرها تحت الارض (٤) آزاجا يجتمع فيها ماء النيل كاتصالها فوق الارض وأقيمت اسواقها في نهاية من الابداع (٥) وشوارعها في غاية من الاستقامة والاتساع بحيث ان الغريب الزائر يسير فيها نهاره أجمع فلا يضل (٦)

ولقد لقيت فى كثير من أماكنها وطرقاتها عمداً وألواحاً من رخام

(١) يقول ابن خلدون فى المقدمة ٣٠٥ ضد ذلك وانه يسهل طروق العدو لها

(٢) المقريزى ١*١٤٧ (٣) القزوينى ٩٦ (٤) ابن جبير والمقريزى ١*١٥٠

(٥) ابن جبير ٣٦ (٦) تقويم البلدان ١١٣

تحمل العامة على الظن بأنها هى إرم ذات العماد (١) التى لم يخلق مثلها فى البلاد (٢) واعظم ماشاهدت منها العمود المعروف بعمود السوارى (٣) وهو ماثل فى العنان الى طرف المدينة تحف به غابة من النخيل وهو حجر صلد من الصوّان الاحمر يبتدئ من قاعدة غليظة وينتهى الى تاج مكلل بالرسوم والناس يقولون انه كان فى اعلاه قصر معلق فى الجوّ لاهل العلم والرئاسة (٤) وانه كانت فيه خزائن كتب أحرقها عمرو بن العاص (٥) باشارة عمر بن الخطاب رضى الله عنهما اذ كتب اليه « الكتب التى ذكرتها ان كان فيها مايوافق كتاب الله ففى كتاب الله عنها غنى وان كان فيها مايخالفه فلا حاجة اليها فتقدّم باعدامها » ولكن هذا قول يحتاج الى التدقيق والنظر. وظنى بهذا العمود أنه نصبه الروم معارضة للعمدان التى اتخذها الفراعنة أمثال المسلات وطمعا في تخليد آثارهم في مصر الى انقضاء الدهر .

---

(١) المقريزي والمسعودي وياقوت وابن جبير (٢) هى المدينة التى زعم العرب انها من احدى الجنان ويقولون انه بناها شداد بن عاد باليمن بين صنعاء وحضرموت وأحاطها بسور عظيم مغشى بصفائح الذهب واتخذ فيها قصورا عظيمة على عمد من الياقوت وجعل في المدينة أنهارا كل نهر حافتاه من الذهب وحصباؤه الياقوت والجوهر وجعل على شط تلك الأنهار أنواع الاشجار التى جذوعها من الذهب وأوراقها وثمرها من الزبرجد والياقوت والعقيق وأنواع الجوهر وقد ذكر ابن خلدون في المقدمة هذا الحديث منكرا له وانتقد على العلماء والمفسرين تصديقهم لما يقوله الناس عنها من الحكايات الموضوعة (٣) ابن بطوطة ١*٣٠ والقزوينى ٩٧ (٤) المقريزى ١*١٥٩ (٥) أبو الفداء وأبو الفرج ١٨١ وابن العميد والمقريزي

وقد رأيت أهـل الاسكندرية اصحاء الذوق لطاف الطباع والخلق لقرب مدينتهم من البحر وظهور الصبا عندهم واعتدال الحر والبرد في اقليمهم على أن أكثرهم مهازيل الاجسام وهان البنية (١) .ووجدت لهم تصرفا واسـعا فى التجارة (٢) لان المال موفور عندهم والخيرات تأتيهـم من مصر وجميع الامصار فيتصرفون في الليـل بالبيع والشراء كتصرفهم فى النهار (٣) وسمعت انهم بلغوا من سعة العيش الى أن بنوا في مدينتهم ألف حمام وأربعمائة ملهى واثنى عشر ألف دكان (٤) وهذا شئ من الـكثرة لم يسمع بمثله في البلدان .

اما المسلمون فى هذه المدينة فانهم على رأينا من القول بخلافة أهل البيت ويتعبدون على مذهب الامام مالك (٥) ولـكنهم يجهرون بالبسملة فى صلاتهم ويبتدئون بها عوض الخطبة ٦) كانى بهم قد اقتدوا في ذلك باهل الشام اذ كانت المواصلة فيما بينهم مستمرة على غـير انقطاع . وأما أهل الذمة فأنهم يزيدون عن أربعمائة ألف (٧) بين نصارى ويهود وهم يؤدون جزيتهم الى الرشيد ديناراً واحدا مؤمنيا (٨) بعد ان ضربها عليهم عمرو بن العاص دينارين واستمرت على ذلك فى عهود الخلفاء السالفة وهم

(١) المقريزى ١*٤٤ (٢) المحاضرة (٣) ابن جبير ٣٩ (٤) المقريزى والمحاضرة ١*٥٩ والقرمانى ٥*١٣٧ (٥) المقريزي (٦) المقريزى *٣٣٤ (٧) ابن خرداذبه ١٢١ والمحاضرة ٥٩ والمقريزى ١*١٦٢ (٨) ذكر صاحب الاغانى ان هذه الدنانير سميت بالميمونة نسبة الى ميمون بن عامر ١٧*٧٢

فى الاسكندرية وسائر الديار المصرية ملل كثيرة من النصرانية الا أن معظم سوادهم (١) روم يرجعون في أمورهم الى فطريكهم بالقسطنطينية وقبط ينكرون على الباب خلافته للمسيح ويرجعون في ملتهم الى بطرك لهم يسمى مرقص (٢) كرجوع المشارقة الى بطركهم فى انطاكية (٣) كما مر في موضعه من الكتاب .

وهؤلاء القبط هم أهل مصر الاولون وفي أيديهم الكنائس المعظمة التى لا يوجد مثلها عند الروم اذ كانوا السابقين الى تشييدها والحافظين لها من تطامعهم تحت ظل الاسلام . وأعظمها بيعتان احداهما كنيسة مرقص (٤) وهى بجوار الدار التى بناها الزبير بن العوام (٥) فيها رسوم عجيبة وصور تمثل الحواريين والعظماء الذين ظهرت عليهم الكرامات في ملتهم . والثانية كنيسة يوحنا المعمدان (٦) قد موّه سقفها بالذهب وصورت فيه ملائكة الله محفوفة بالسحاب . وفي جوارها دور كثيرة لهم قد رفعت على طباق ثلاث (٧) وارتفعت على دور المسلمين مع ان المطاولة عليهم في البناء محظورة على أهل الذمة . وهذا أمر يتغاضى عنه الولاة كما يتغاضون عن مجاهرتهم فى ملتهم باشياء لو بدت منهم فى العراق أو الحرمين لجلبت عليهم الحين فى أسرع من طرفة عين . وذلك مثل مجاهرتهم بالانجيل

---

(١) المقريزى ٢*٤٩٢ (٢) ذكره المقريزى ٢*٤٩٣ (٣) المسعودي ١*٢٧١
(٤) المقريزي ٢*٤٩٢ (٥) ذكرها ابن خلدون فى المقدمة ١٧٨ (٦) المقريزى ٢*٥١٩ (٧) القرمانى والمقريزى ١*١٦٢

واخراج آنيتهم الى الاسواق وحمل صلبانهم على رؤوس الرماح (١) وغير ذلك مما لا ينقمه عليهم المسلمون (٢) وكأنهم انما يتسامحون فى أمرهم تجنبا لاثارة السواكن أو طمعا فى استمرار الخلطة التى وقعت بينهم وأشبهت أن تكون الفة وصفاء . بل مودة الى الاخاء . وقد وقع لهم وأنا فى الاسكندرية موسم عظيم يسمونه عيد الميلاد يتخذونه في اليوم الذى ولد فيه المسيح عليه السلام وهو اليوم التاسع والعشرون من شهر كيهك (٣) وعادتهم بيوم هذا الموسم فى كل سنة أن يحيوا ليلهم كله بالسرور ويخرجوا آنيتهم الى الاسواق وينوّروا كنائسهم بالشموع المليحة الاصباغ . فكنت أرى كثيرا من المسلمين يبتاعون لأولادهم من هذه الشموع المسماة بالفوانيس ويحرقونها في ازقة المدينة كأنهم يشاركون النصارى في أفراحهم ويظهرون الانس بهم الى انقضاء العشاء الآخرة.

وقد وجدت القوم من الروم والقبط وسائر ملل النصرانية يتأنقون بصنوف الملابس من الخز و الديباج والوشى الذى يصنعونه فى مدينتهم ويضرب به المثل فى جميع البلاد (٤) ونوع من الكتان يتنافسون فى لبسه الى أن يبيعوا الدرهم منه المخيط ثوبا بدرهم فضة (٥) وكنت أحب أن تظهر آثار النعمة فى لباس المسلمين (٦) مثل ظهورها فى أهل الذمة فقد حدث الرواة عن النبي صلى الله عليه وسلم انه اتخذ جبة مكفوفة بالحرير (٧) ولبس ثيابا

---

(١) المقريزى (٢) المقريزى ١*٤٩٤ (٣) المسعودى ١*٢٧٢ (٤) الاغانى ٥*٧٦ (٥) المقريزي ١*١٦٣ (٦) تزيين الاسواق ٢*١٥١ (٧) مجمع الانهر ٩٤

بأربعة آلاف درهم وصلى فيها (١) وكذلك حدثوا عن عائشة أنها خلعت على عبد الله بن الزبير ثوبا من الخز (٢) وعن جماعة من العلماء والفقهاء انهم لبسوا الثياب المهدّبة (٣) فلا أرى موضعا بعد هذا لان يكون لبس الحلل الفاخرة محظوراً في الشرع (٤) كما أني لاأرى استخدام الذهب في الحاجة اليه مثل شد الاسنان به من الكبَر وغيره مخالفاً للنصوص الشرعية (٥) اذا لم يقصد به الكبْر والترف .

الديار المصرية والنيل

توسع بي الكلام الى ما خرجت به عن اقتصاص الرحلة ولكنى أعود الى ذكر الامور التى شاهدتها فى ديار مصر فانى ركبت من الاسكندرية أريد الفسطاط ثم اسوان ثم عيذاب الى طرف الصحراء من ساحل البحر .فمررت بدمنهور وصا وبرمة وطنتدة وقايوب فى أسرع مدة من الزمان . اذ ليس في مصر جبل ولا مسلك وعر يعترض الركبان . وكانت العمارة متصلة في طريقنا الى الفسطاط ومن حولها اخضرار فى السهل يمتد مع البصر الى أن ينقطع فأخبرنى من كان يصحبنى من لدن الليث أن البلاد تتنوع مثل هذا المنظر أربعاً في كل سنة فتكون ثلاثة أشهر لؤلؤة بيضاء (٦) أولها شهر أبيب المعروف بتموز عند المشارقة يركبها

(١) مجمع الانهر ٧٩٤ ونقل الشيبانى عن ابن جريج ان ابن عباس كان يرتدى برداء قيمته ألف درهم العقد الفريد ٣*٣٤٣(٢) الزرقانى ٤*١٠٤ (٣) البخارى وغيره (٤) ابن عابدين ٥*٣٤٤ (٥) ذكر ابن خلكان ١*١٤٧ والعقد الفريد ٢*٢٦٣ شد الاسنان بالذهب من الكبر (٦) المنوفي

النيل الى آن تصير ضياعها فى بحر من الماء ولا سبيل اليها الا في الزوارق. وثلاثة أشهر مسكة سوداء أولها شهر بابه وهو المعروف بتشرين أو أقطوبر (١) ينكشف الماء عن الارض ويترك عليها طينا علكا أسود فيه دسومة صالحة للزراعة يقال له الابليز (٢) وثلاثة أشهر زمردة خضراء أولها شهر طوبة الذى يمر بنا اليوم ينجم الزرع ويظهر ربيع الارض حتى لا يبين الثرى من خلاله . ثم ثلاثة أشهر سبيكة حمراء تبتدئ من برموده المعروف بأبرياس عند الروم فيتورّد الزرع ببلوغ الحصاد . ويكون كسبيكة الذهب فى المنظر والمعاد .

وانما يجلب الخيرات الى مصر ويخرج الزرع اليانع من أرضها الجرز ما يحمل اليها النيل من الطين والدسومات ويفيض عليها من الماء فى أيام من السنة معلومات فكأنما تستعيض بالمنفعة منه عن الشتاء الذى يحبسه الله عنها رفقا بمصالحها أن تختل . ومساكنها الطين أن تبتل . وقد قال سبحانه وتعالى فى محكم كتابه (٣) «أولم يروا أنا نسوق الماء الى الارض الجرز فنخرج به زرعا تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون» . فجعله الله عز وجل من الغمورة والاستبحار بحيث يكفى البلاد كلها من غير أن يكون فيها نهر ولا عين ولا مسيل ماء غيره والناس يجمعون محاسنه فى ثلاثة (٤) الاول غمورته الى أن يكون بحرا تسير فيه السفن . والثانى بُعد

(١) فى المسعوديّ ١*٢٧٢ أسماء الاشهر الرومية مثلما هى اليوم عندنا (٢) عبد اللطيف ٣ (٣) المنوفي (٤) المقريزي ١*٦١ وتقويم البلدان ٤٥

منفجره الى ما وراء الخط من جبال القمر . والثالث طيب مسلكه على رمال بروقه وتأخذ المزوجات الغريبة منه . فربما انى وجدت له خلة من الخير والبركة أفضل من هذه المحاسن بأنه يزدرع عليه مالا يزدرع على نهر غيره من أنهر العالم (١) فكأين مما تجتمع فيه محاسن الغمورة وبعد المنفجر وطيب المسلك من الانهر ثم لا تحصل المنفعة منه مثل ما يحصل لاهل مصر من بركة نيلهم .

وشأن هذا النهر المبارك فى الفيضان أنه يبتدئ بالزيادة فى شهر أبيب والقبط يقولون اذا دخل أبيب . كان للماء دبيب . (٢) ثم يغلظ في مسرى وهو شهر أب ويزيد بعد ذلك زيادة عظيمة الى أن يقف حدها في منتصف توت وهو شهر أيلول المعروف بسبطمر عند الروم ثم لا يلبث بعد ذلك حتى يتراجع بالانحصار وقد كفى الناس سقاية زرعهم بمدوده على حد قولهم (٣)

كأن النيل ذو فهم ولب لما يبدو لعين الناس منه
فيأتي حين حاجتهم اليه ويمضي حين يستغنون عنه

وصفوة القول فى هذا الفيضان على أن منشأه السحب الماطرة (٤) الى ما وراء خط الاستواء من تلك البطاح وللقبط فيه أقوال كثيرة لا موضع لها في هذا الكتاب (٥) وهم يزعمون انهم يعرفون قدر فيضه «قبل حدوثه»

---

(١) ابن بطوطة ١*٧٧ (٢) المقريزي (٣) المقريزي (٤) تقويم البلدان ٤٥
(٥) راجع المجلد الاول من خطط المقريزي

من هبوب الريح في أول يوم من بونة وهو شهر حزيران عند المشارقة .
وقد قرأت في بعض الكتب ان هذا النهر هو نهر العسل في الجنة(١)
وان حائدا اليهودى الذى تاه في الارض دهرا لم يستقر فيه بموضع
وصل الى الجنة مما وراء السودان (٢) فوجد أرضا ذهبا وترعا ذهبا
وتلاعا ذهبا (٣) ورأى النيل ينساب فيها من طيقان قد ارتفعت مثل
قوس السحاب . وهذا تصور لطيف كنت أقرأ مثله في دواوين الشعراء
فأحببت أن أذكره لك حتى اذا كنت بعيداً عن أن تعجب منه من حيث
الحقيقة فلا أقل من كونك تُعجب به من حيث المجاز .

ولما وصلت الى الفسطاط نزلت على قاضيها عبد الرحمن بن عبدالله
من ولد عمر بن الخطاب رضى الله عنه (٤) فلما أصبحت وكان يوم الجمعة
أجمعت في جامع عمرو بن العاص الذى قاد الجيوش الاسلامية الى هذه
البلاد وانتزعها من يد المقوقس كما هو معروف . وهو من المساجد المشهورة
في الاسلام حسنا وتزويقا واحكام صناعة وجدت على حائطه القرآن
الكريم مكتوباً على ألواح بيض من الرخام يقرأه الانسان وهو قاعد (٥)
ثم زرت مشاهد كثيرة من مشاهد آل البيت والصحابة والاولياء
والشريفات العلويات . ولما مالت الشمس ركبت الى موضع غربى المدينة
يقال له الجزيرة وهو مجتمع اللهو والنزهة لاحاطة الماء به وهناك المقياس

---

(١) المقريزى ١*٥١ والزرقانى ١*٣٧٥ (٢) الاسحاقى ٢١١ (٣) المنوفي
(٤) المحاضرة ٢*٨٩ (٥) القزوينى ١٥٧

الذى يعتبر به قدر زيادة النيل (١) بناه سليمان بن عبد الملك الأموىّ في آخر المائة للهجرة النبوية المشرفة وهو عمود رخام أبيض مفصّل على اثنين وعشرين ذراعا من الاذرع القديمة التى كان يتعامل الناس بها قبل أن يضع الرشيد الذراع السوداء التى تزيد عنها بأصبع وثلثَى أصبع (٢) وهو مبنى في موضع ينحصر الماء فيه فاذا انتهى الفيض الى ثمانى عشر ذراعا منغمرة فيه كان ذلك الغاية فى طيب العام (٣).

وقد أخبرنى عبد الرحمن هذا القاضى النبيل ان مايغمره النيل بمصر يبلغ مئة ألف ألف فدان (٤) والفدان عندهم أربعمائة قصبة والقصبة عشرة أذرع « وهو القدر الذى وجده هشام بن عبد الملك عندمامسح البلاد » وكلها ذات خيرات كثيرة . وغلاة وفيرة . مما يحمل الانسان على ان يظن فى أهلها اتساعا بالنعمة واسترسالا فى الطيبات من بسطة العمران غير ان الامر على خلاف ذلك عند أهل الزراعة بالارياف حيث غلب على عامتهم الخمول (٦) وتولاهم الشقاء ولم ينفقوا المال الذى أعطاهم الله في مطالب السعة بل دفنوه تحت أطباق الارض وتظاهروا لدى ملوكهم بالمسكنة وعسر الحال ليسترقّوا القلوب رفقاً فى جباية الاموال.

---

(١) المقريزي وابن جبير ٥١ والمسعودي ١*١٦٤ (٢) ابن خرداذبه ١٦١ والمسعودى ١*٤٠ والمقريزي ١*٥٩ (٣) ابن بطوطة ١*٧٨ (٤) المقريزي ١*٨٠ (٥) المحاضرة ٢*١٩١ (٦) المقريزي١*٤٥ قول الرحالة مائة الف ألف فدان انتقده ابن المدبر بأن مايزرع في مصر هو أربعة وعشرون ألف ألف فدان.

فما كانت هذه الحيلة لتفيدهم شيئاً من الرحمة . وربما انقلبت الغاية منها الى التثقيل عليهم بالخراج لما تسومع عنهم من تخبئة الكنوز بحيث رأينا لحكامهم اقتداراً في تكثير الجباية ماعرفنا مثله لغيرهم من ملوك الامم .

في وصف الاهرام

وفي غد اليوم الذى وصلت فيه الى الفسطاط ركبت الى أهرام الجيزة (١) وهى ثلاثة كبار موضوعة على خط مستقيم (٢) غربيّ النيل وهى من أهول ما بناه المتقدمون وأجله خطراً . وأبقاه على الايام أثراً. والعهد بجميع الاشياء يخشى عليها من الايام الا هذه الاهرام . فانها صبرت على طوارىء الحدثان حتى راح يخشى منها على الزمان . اثنان منها عظيمان وواحد دونهما في العظم وهذان الهرمان الكبيران متناهيا السمو يخيل للرائي أنهما نهدان قد نهدا في صدر الديار المصرية (٣) وهما مبنيان بحجارة بيض صلدة قد اقتلعت من مغائر تحت الارض بعيدة يدخلها الفارس برمحه فيرتاح فيها . ولقد تقدمت الى بعض من كان يصحبنى من لدن السلطان ان يطلق سهما الى أعلى الهرمين فرمى به عن قوس غليظة وساعد قوى فسقط السهم دون ثلثى المسافة (٤) أما وصف الهرم فهو بناء مخروط مضلع مثلث الزوايا مربّعها يبتدىء من قاعدة عريضة ويضيق ما مثل في

---

(١) عبد اللطيف ٥١ والشريشى ٢*١٠١ والمقريزى (٢) هذا تشبيه لطيف ذكره عبد اللطيف وغيره من الكتاب (٣) تقويم البلدان ١٠٨ (٤) ابن بطوطة ١*٨٢

العنان الى أن ينتهى الى سطح صغير يكون مبرك بعيرين فى الهرم الصغير ومبرك ثمانيـة فى الهرمين الـكبيرين . وهذا نمط في البناء يوثقه متانة يقوى بها على ممرّ الليال .

أما السبب الذى دعا الفراعنـة الى نصب هذه الاهرام . فلم يزل مستترا تحت ظل الابهام . فمن قائل انها بنيت مستودعا للعلم (٤) ومن قائل انها اتخذت لتحجز الرمال الثائرة من القفر على الفسطاط . وفى وجه من التاريخ انها بنيت لدفن الـكنوز (١) واحتكار الحبوب لايام يوسف عليه السلام (٢) الا أن مايذهبون اليه من هذه الآراء . بعيد عما لدينا من القياس الظاهر للاشياء . فان العلم لاتحفظه الحجارة ان لم يستوع في صدور الرجال . والرمل لايحجزه سد غير متصل العمارة وبين الهرم والآخر فرجة واسعة المجال . والحب لم يحتكره فرعون الى دهر لاانقضاء له . وفي موضع لايقدر منه أن يتناوله . ولست أظن الاأن هذه الاهرام قد بنيت لحوداً (٣) للفراعنة الذين كانوا يدينون بالرجعة الى هذه الدار ويعنون بتحصين مدافنهم من عبث الادهار . ليحفظوا فيها حليهم وأموالهم الى يوم النشر كما كان يصنع في جاهليتهم أهل مصر اذ يجعلون مع الاموات مالهم وأشياءهم ليجدوها بين أيديهم يوم رجعتهم الى هذه الدار كما كانوا يزعمون (٤)

---

(١) المقريزى ٢*٢٢ (٢) المحاضرة ١*٣٤ (٣) المقريزي وتقويم البـلدان ١٠٨ (٤) عبد اللطيف والمحاضرة

وقد قرأت فى بعض الكتب أن بانى الهرم الكبير من الفراعنة ملك يقال له سوريد وجه زواياه الى بعض الابراج السماوية تيمنا بالبركة في اعتقادهم وزبر عليه « أنا سوريد الملك أكملت بناء الهرم في ست سنين فمن جاء بعدى وزعم أن له ملكا مثلى فليهدمه فى ستين سنة (وفى رواية ستمائة سنة) والهدم أيسر من البنيان وقد كسوته بالديباج الصرف فليكسه هو بالحصر والحصر أهون من الديباج » (١) أما توجيه زواياه الى بعض الكواكب كما يعتقدون فهو افتراض ليس للرد عليه موضع مع مانعلم من عبادة المتقدمين للنجوم وتعظيمهم لها . وأما الكتابة التى يعزونها الى فرعون فانى لم أجد لها أثرا على الهرم الكبير ولا الصغير ولا أعلم على فرض أنها مرسومة فيه أحداً من الناس يقرأها . حتى لو جاز انها كتبت وقرأت كذا على الهرم فلا يصح ان تكون كسوته بالحصر مما يعجز عظماء الملوك وسعته من الركن الى الركن الآخر ثلثمائة وستون خطوة انما المعجز فى هذه الآثار هو أحكام بنائها (٢) بهذا الشكل البالغ النهاية فى الاستواء دون أن يتخلل الحجارة شىء تتلاصق به من الكلس ولا غيره من المواد ولو أن نجاراً اتخذ صندوقاً من الخشب لما أحكم عمله (٣) ووصل قطعه مثل وصل هذه الحجارة الضخمة بالتصاق لا تنفذ فيه الابرة الصغيرة ورب زائر يقف الى هذه الاهرام فتشغله الدهشة من عظمها وهولها

---

(١) ابن بطوطة ١*٨٢ والمقريزي والمحاضرة (٢) عبد اللطيف ٥٣ (٣) الابشيهى ٢*١٧٧

عن التأمل فيما هو حقيق أن نعتبر فيه من آثار السلف . فأنا لا أنكر ان الذين رفعوها من الفراعنة كانوا ضخام السلطة عظام الصول والحول . غير انى تمثلهم في نفسى ملوكاً عاتية قد ظلموا الرعية بما آتاهم الله من السلطان واستخدموا العباد فى مشاق لافائدة منها ولا طائل تحتها سوى أن تنطق بظلمهم على ممر الازمان . أو انى أمثلهم جبابرة قد كثر المال تحت أيديهم فلم ينفقوه في البر والاحسان . ولا انتفعوا به غرضا من العمران . بل رفعوا به جبالا شاهقة من الصوان . وليس فى أحد الامرين منصرف عن لُؤْمٍ بهم أو لَوْمٍ أُوقعه عليهم فلئن أنفقوا المال فى غير سبيله فقد أسرفوا بالملك ولئن قبضوا الاجور عن العملة بعد أن أنهكوا أبدانهم بالعَنَت الشديد فقد ضلوا سواء السبيل وباعوا رعاياهم بابخس الاثمان .

ورأيت على مقربة من الهرم الكبير صورة عجيبة من الحجر قد قامت كالصومعة (١) ومثلت رأس آدمى وعنقا بارزة من الارض في غاية العظم يسميها الناس بأبي الهول ويزعمون انها طلسم الرمل لئلا يغلب على أرض الجيزة (٢) وهى تشهد لصنّاع ذلك الوقت من القبط بحذقهم فى فنون الرسم وصحة التمثيل لانهم اتخذوا صورة الوجه متناسبة الاعضاء على كبره وجعلوا عليه حمرة لا يزال دهانها محفوظا مع الحجر (٣) وكأن الزمان يغيره رونقا وجدة حتى انه ليخيل للناظر اليه انه ذو مسحة وجمال

---

(١) المقريزي ١*١٢٢ وابن جبير ٥٠ (٢) القرمانى ٦*٥٥ (٣) عبد اللطيف ٥٩

وان شفتيه تنفتحان للابتسام وقد أخبرني حاجب الليث انه كانت له لحية تكسّرت على تمادى الايام وان جثته مدفونة تحت الارض ويقتضي القياس بالنسبة الى رأسه أن يكون طولها سبعين ذراعا (١) الى حديث طويل مما يتعلق بهذا الصنم وبغيره من آثار فرعون فيقول وهو أعرف الناس بالبلاد (٢) ان بمصر ثمانين كورة في كل كورة مدينة عظيمة وفى كل مدينة آثار حسان . ورسوم باقية على ممر الزمان (٣)

الى عيذاب فجدة فالبلد الحرام

كان انفصالنا عن الفسطاط في بكرة يوم فارس برده وكانت العمارة متصلة فى طريقنا على شاطئ النيل فاجتزنا ببلد يعرف بمنية ابن خصيب (٤) فيه الاسواق والمرافق والحمامات ثم اجتزنا ببلدة يقال لها انصنا وهى تبعد عنه مرحلة طويلة (٥) فيها شجر اللبخ (٦) الذى تصنع من السفن وكثير من العمد والصخر المجمل بالنقوش والرسوم وفى بعض الكتب انها كانت مسكنا لسحرة فرعون (٧) ثم اجتزنا بمحاذاة حائط عتيق البنيان يقال له حائط العجوز (٨) وهو يمتد من الفسطاط فما فوقه الى

(١) عبد اللطيف ٥٩ (٢) المقريزي وكتاب المحاضرة للسيوطي (٣) قال الجاحظ وغيره عجائب الدنيا ثلاثون أعجوبة عشرة منها في سائر البلاد وباقيها في مصر المقريزي والمحاضرة والقرمانى٦*٥٥ (٤) ابن جبير ٤٤ (٥) تقويم البلدان ١١٥ (٦) المقريزي ١*٢٠٤ (٧) ذكر المسعودي ١*٢٨٤ الاسرائيليات من الاخبار بمعنى الحكايات التى لا طائل تحتها وربما كان هذا الخبر لاحقابها (٨) المسعودي ١*١٧٢ والقرمانى ٥٧٦

جهات اسوان يزعم الاخباريون أنه بنته ملكة يقال لها دلوكة (٩) وقاية لابنها من الوحش أن يهاجمه فى مزاولة القنص (١) مع ان الاقرب الى العقل أن يكون بناؤها له خوفا من الآدميين وغزواتهم لا من الوحوش التى يصح أن تكون في هذا الجانب منه كما هى فى الجانب الآخر . ثم مررنا بمنفلوط فى البر الغربىّ (٢) وفيها قمح مشهور برزانة حبه (٣) ثم بأسيوط وهى من النيل على ثلاثة أميال فيها الافيون المصرىّ الذى يحمل الى سائر البلاد (٤) وهو عصارة الخشخاش الذى يزرع فيها (٥) وفيما جاورها من البلاد ثم ركبنا مرحلتين الى اخميم وهو بلد مشهور فيه البَرْبِى العظيمة التى صور فيها ملوك مصر (٦) وصورت فيها الافلاك والكواكب حين كان النسر الطائر في برج العقرب (٧) وهى مرفوعة من صخور منحوتة وفيها أربعون سارية مزينة بالرسوم والنقوش (٨) وعليها سقف من الحجر مغشى بالاشكال العجيبة حتى لا يخلو مغرز ابرة منه من رسم أو نقش أو رمز بالخط المسند لا يعلم ماهو فسبحان من أباد أمة اقتدرت على عظائم الامور لا اله الا هو رب العرش العظيم .

ثم تمادى بنا السير من هذه البلدة الى دَنْدَرَة وهى مدينة عتيقة يقال انها من بناء قفطريم بن مصرايم بن حام بن نوح عليه السلام وفيها

---

(١) المقريزي ١*٣٨ (٢) المسعودي ١*١٧٢ (٣) تقويم البلدان ١١٣ وابن جبير٥٧ (٤) القزويني ٩٩ (٥) تقويم البلدان ١١٥ (٦) القرماني ٦*٥٦ (٧) ابن بطوطة ١*١٠٤ (٨) القزويني ٩٤ وابن جبير

بَرْبَي عظيمة من آثار الفراعنة يحفّ بها نخل كثير (١) وقد تحققت فيما رأيت بها وبغيرها من آثار القبط صحّة ما نقلته الاخبار عن قدمائهم من بلوغهم الغاية القصوى من الحضارة في زمن كان به ظلام وجاهلية للناس حتى ان الذين كانوا يطلبون العلم من اليونان أنفسهم لم تستكمل آدابهم الا باقتباس الحكمة عنهم واستخراج الفلسفة من كتبهم وكذلك قوم موسى عليه السلام لم تكن لهم معرفة بالعلوم الا بعد مقامهم في مصر ومحاضرتهم أهل العلم من رجالها . فتجد ان للقبط في فلسفة التاريخ نكتةً شغلت عقول الحكماء من كل عصرٍ وأمّة حتى ذهب افلاطون في بعض كتبه الى أنه يلزم أن يكون أتى عليهم عشرة آلاف سنة حتى تمكنوا من بلوغ الغاية التي بلغوها من الادب والصناعة ودلت عليها الآثار الباقية عنهم الى هذا اليوم

ولئن كان قد غاب عنا معرفة كثير من سِيَرهم وأسرارهم فلا لَوْم نوجّههُ عليهم من قبيل التقصير أو الاهمال لانهم لم يغفلوا عما وجب عليهم نحونا بحقوق الاخاء في البشرية من تأدية علمهم الينا بل اجتهدوا بأن يستبقوهُ على الايام صلةً دائمة فيما بيننا وبينهم حيث حفظوه لنا في ماهو أصبر الاشياء على الزمان « الحجر » ليأمنوا اتصاله بنا وافادتنا به الغَرَض الذى شغلهم قبلنا من الحكمة والغوص على أسرار الطبيعة . وانما أفسد هذه الصلة علينا العفاء من سنّة الغَلَب في الناس اذ يتعاقبون في الارض

(١) المقريزى ١*٢٣٣

دولاً بعد دولٍ وأجيالا تحي بموت أجيال وتحتاج لحفظ نوعها أن تبيد الجيل الذى كان من قبلها وتسبل على حطامه ستر المحْو والعفاء وهذا هو السّبَب الذى قطع الآخرين عن الاولين وعمّى علينا قراءة رموزهم ان تبدُ لنا غوامضها تفدنا علماً واسعاً من حكمتهم ونبأ صادقاً من سيرهم وأعمالهم . فكم رأيتُ لهؤلاء القبط من صورٍ على الحجارة مودعة هذا العلم تنظر الينا بعيون قد غابت تحت غبار القدم . وتبتسم بشفاه تكاد تنطق لو لم يصمتها الرَجَم . كأني بها تنتظر أن نخاطبها بلسانٍ تعرفه واشارةٍ تفهمها من رموز أهلها لتبيح لنا بما استودعوها من هذه الاسرار الثمينة

على ان أكثر ماوجدتُ فى آثارهم من الصُّوَر (غير الاوثان التى كانوا يعبدونها والحيوان الذى دخل في ملّتهم بطريق التكريم الى أن صار لهُ تعظيمٌ يشبهُ أن يكون عبادةً والعياذ بالله من جاهلية الناس) انما هو رسوم هيئات مختلفة لملوكٍ وسوقة منهم تمثلهم فى معايشهم وأعمالهم وفروض دينهم وصنائعهم وسائر أشيائهم وليس بينها صورٌ تمثل أناسا غيرهم من الامم مثلما نرى في آثار الفرس الذين صوّروا اليهود والنبط والكنعانيين والقبط والروم والهنود وغيرهم . فيظهر انه لم تكن لهم خلطةٌ مع الامم ولا اتسعت لهم الفتوح فى دولتهم اتساعها للفرس والروم من بعدهم . وكأنهم خلدوا الى السكون والدعة بما كثر لديهم من الخيرات وأغناهم مصرهم عما سواه من الامصار . وهذا مما يخالف طبائع

العرب الذين يطمحون بأبصارهم الى بلدان الخصب ليتوسعوا فيما لا تثمره باديتهم الجدبة من نعمة العمران

عود الى الحديث عن الرحلة . ثم ركبنا من دندرة الى قوص من البر الشرقي وهي من أعظم مدائن مصر (١) فيها قبائل من عربان عدن وغيرهم (٢) وليس بمصر أرض يسكنها العربان الا قوص واسوان وجهات بابيس (٣) وربما كانوا في اسوان أكثر منهم في بادية قوص اذ كان يمازجهم فيها قبائل من قريش وقحطان ونزار بن معد من ربيعة ومضر (٤) وليس هذا أول عهد العربان بمصر فقد أنبأت الاخبار السالفة (٥) انهم غزوها في عهود الفراعنة الاولين واستقروا بها زمنا فيما لا كفاء له من عز الدولة ونفوذ السلطان . وقوص هذه المدينة فرضة التجار اليمنيين والمصريين والحبشيين وفيها جبال وحجارة يجري فيها النيل من غير أن يكون ثمت سبيل لجريان السفن عليه (٦) (وهي المعروفة بالجنادل والصخور) فتنقل بضاعات المسلمين الى مراكب الحبشة وتنقل بضاعات الحبشة الى مراكب المسلمين فوقع فيها العمران من هذا القبيل باجتماع التجار فيها وتوارد الحجاج اليها في ذهابهم وايابهم على مراكب النيل .

ولما انفصلنا عن قوص ابتدأت صحراء عيذاب بالامتداد وهي

(١) المقريزى ١*٢٣٦ وابن بطوطة ١* ١٠ (٢) تقويم البلدان ١١١ (٣) المقريزى ١*٨٠ (٤) المسعودى ١*١٩١ (٥) المسعودي (٦) المسعودي ١*٤٧ وابن جبير ٦١

مفازة قاحلة لا عمارة فيها ألبتـة فكنا نبيت فيها حيث جنّ الليـل علينا (١) ثم نفوّز الى ورود المـاء على آبار أو مناهـل نكاد أن لا نترك فيها جرعة ماء بعد سقاية دوابنا وكنت اذا أصابنا رقدة من حر أجلس فى هودج على ظهور الجمال وأرخى عليه الاستار محركا للهواء فيهون عليّ احتمال عنتها الشـديد . الا أن صحبي من لدن السلطان كان يبرّح بهـم العطش ويجهد دوابّهم في الايام الآتية لان السموم كانت تنشف المياه فى الاسقية فـكانوا يحتالون لذلك بأن يستصحبوا أبعرة فارغة من الاحمال ويعطشوها قبل الورود ثم يوردوها على المـاء نهلا وعَللا حتى تمتلا اجوافها ثم يشدوا أفواهها كيلا تجتر فتبقى فيها الرطوبة فاذا نشفت الاسـقية نحروا بضـعة أبعرة من هذه الجمال وسقوا خيلنا بما فى بطونها (٢) وفى هذا من المشقة مالم ينزل بنا أشد منه في جميع ماطرقناه من البلاد ولم نزل فى مكابدة عنائه الشـديد وقد أضر بنا الحر وأخـذ منا مأخـذه حتى سهّل الله وصولنا بالسلامة الى عيذاب والحمد لله على جميل ماأولاه . حمدا يبلغ رضـاه . ويستفيض النعمة من علياه

وهذه المدينة هى آخر بلاد مصر (٣) وعاملها مفوض من لدن الليث ابن الفضل الابيوردى وهى موسعة باسباب الـكسب من الحجاج الا ان مبانيها أشبه ببيوت القرى منها ببيوت المدن (٤) وكل مافيها مجلوب

---

(١) ابن جبير ٦٣ (٢) القزوينى ١٢ (٣) ابن جبير وابن بطوطة ١*١٠٩
(٤) تقويم البلدان ١٢١

اليها حتى الماء (١) وليس لاهلها حرفة للتعيش الا تعمير سفن للحجاج يسمونها الجلبات واحدها جلبة وهى ملفقة الانشاء ولا يستعملون فيها المسامير وانما يخيطون الاخشاب بالليف ويتخللونها بدسر من عيدان النخل ثم يطلونها بالشحوم والنورة (٢) فتستمر عرضة للخطر وآفة لحجاج البيت يغرق الكثير منهم بسببها في بحر فرعون ذى الاهوال الموصوفة (٣)

ولما اخذت فيها نصيبا من الراحة ركبت البحر ثلاثة أيام الى جدّة من ساحل اليمن وهى قرية كبيرة تجتمع فيها مراكب الحجاج وفيها آثار كثيرة تدل على قدم اختطاطها وتنطق بأنها دخلت في ولاية الفرس. وفيها قبة مشيدة يقال ان موضعها كان منزلا لحواء عليها السلام ومسجد بناه عمر بن الخطاب رضى الله عنه وجامع بناه الرشيد منذ ثلاث سنين (٤) وهو أحفل بناية في المدينة فمكثت فيها بقية النهار ثم ركبت عنها تحت الليل الى القرن وهو محط رحال الحجاج (اسراعا فى موافاة الرشيد بالمدينة المنورة على ساكنها أفضل السلام وأزكى التحية اذ كنت علمتُ بركوبه اليها من مكة في صباح اليوم الذى وصلت فيه الى جدّة) فبلغته فى جوف الليل ثم سريت منه الى مكة المكرمة مهوى الافئدة الصالحة فقضيت الواجب من زيارة المشاعر المباركة وابتهلت الى الله تعالى في موضع

---

(١) المقريزي ١*٢٠٣ (٢) ابن جبير ٦٨ والمسعودي ١*٧٨ (٣) المقريزي ١*٢٠٣ وابن جبير ٧١ (٤) أي سنة ١٨٣ للهجرة وقد ذكره ابن جبير ٧٣

استجابة الدعاء (١) من البيت العتيق والحمد لله عز وجل على أن شرفنا بالوفادة على هذا البيت الكريم

في ذكر المشاعر المباركة

أما مكة شرفها الله فانها بطن واد (٢) بين الجبال تسع من الخلق مالا يعلمه الا الله سبحانه (٣) لان الحجاج الوافدين اليها قد يزيدون عن مئتي ألف في الموسم اذ كان الحج مفروضا على المسلم المستطيع في العمر مرة لقوله تعالى « ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا » (٤) فلو قدرنا في عدد الرجال ثلاثين ألف ألف وقدرنا العمر أربعين سنة لاقتضى أن يكون نصيبها منهم في كل سنة اكثر مما ذكرنا ممن يحج أكثر من مرة في زمانه ويقال في اجتماع الناس اليها من جميع الاطراف انه لو جمع بها مايباع ويشترى من السلع والمآكل والبضاعات في ثمانية أيام بعد الموسم لاقام الاسواق (٥) في العراق كله وعم كل واحد من أهله نصيبه من حاجته .

ولها كرمها الله تعالى ثلاثة أبواب أولها باب المعلى (٦) وهو الى الشرق الشمالي ومنه يذهب الذاهب الى الحجون وهو جبل باعلى مكة له ذكر في الاشعار وفيه صلب الحجاج بن يوسف قبحه الله جثة عبد الله بن الزبير

---

(١) ابن بطوطة ١*٣٠٠ وابن جبير ٨٠ (٢) ابن بطوطة ١*٣٠٣ وتقويم البلدان ٨٧ (٣) ابن جبير ١٠٨ (٤) سورة آل عمران (٥) ابن جبير ١١٩ (٦) ابن بطوطة ١*٣٠٤ وابن خلكان ١*٣٩٨

لما غلبه على الخلافة التى كان يناصب عليها الامويين . ثم باب المسفل وهو الى الجنوب ومنه دخل خالد بن الوليد يوم الفتح . ثم باب العمرة وهو الى الغرب على طريق الشام وأمامه جبال مكة قد مثلت بلا ارتفاع وكأنها أهوت تواضعا لبيت الله . أشهرها جبل حراء وهو الذى اهتز حين كان فوته النبي صلى الله عليه وسلم ومعه أبو بكر وعمر بن الخطاب رضى الله عنهما فقال له اثبت حراء فما عليك الا نبيّ وصديق وشهيد (١) وكان صلى الله عليه وسلم يختلف اليه ويتعبد فيه وعليه نزلت أول آية من القرآن الكريم وهي قوله تعالى إقرأ باسم ربك الذى خلق (٢)

وكفى هذه البلدة شرفا أن بناها آدم عليه السلام (٣) وهبط اليها جبريل الملك الكريم ونزل فيها الوحى على النبيين وخصها الله بالمشاهد المباركة والمواضع التى هى معدن الطهارة ومظهر نور الملائكة ممالیس مثله فى جميع العالم . فمما تبركت بزيارته من مواضعها الميمونة محل مولد النبي صلى الله عليه وسلم وقبة الوحى (٤) التى فيها بنى النبي صلى الله عليه وسلم بخديجة أم المؤمنين رضى الله عنها والموضع الذى كان يقعد فيه سيد ولد آدم محمد صلى الله عليه وسلم تبركت بلمسه وتقبيله وزرت دار أبى بكر ودار جعفر بن أبى طالب ذى الجناحين ودار الخيزران التى قدمت لك ذكرها فى الرسائل السالفة وهى على باب زقاق الخيزران بمقربة من القصر

---

(١) ابن جبير ١١٢ (٢) المسعودى ١*٣٠٧ وابو الفداء ١*١١٧ (٣) وربما لم يجد ابن خلدون خبراً صحيحاً كما في المقدمة ٣٠٦ (٤) ابن جبير والازرقى

المعروف بمنزل الابجر (١) وكنت أحب أن أزور المشاهد المباركة التي في الجبال والغار الذى آوى اليه النبي صلى الله عليه وسلم المسمى بغار ثور (٢) الوارد ذكره فى القرآن ولكن لم يتيسر لى ذلك لقصر الوقت معى فيما لم يتيسر لى مزاره من المواضع الميمونة التى هى في نفس البلدة

وأما البيت الحرام فقد بناه ابراهيم عليه السلام حضين الملائكة لقوله تعالى واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل (٣) وقد أخذ الناس فى تعظيمه والحج اليه من الجاهلية والفرس والعماليق والتبابعة وغيرهم ممن دنا ونأى ثم صارت الولاية عليه بعد ولد اسماعيل الى جرهم وكانت سدانة البيت ومفاتيحه معهم والى ذلك يشير مضاض بن عمرو بن الحارث الجرهمى بقوله (٤)

وكنا ولاة البيت من بعد ثابت نطوف بذاك البيت والامر ظاهر
كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر

ثم صارت ولايته الى خزاعة ثم الى قريش بعدهم وكانت صورة ابراهيم

---

(١) الاغانى ٣*١١٦ (٢) ابن جبير والانس الجليل (٣) المقدمة ٣٠٦ والمسعودى (٤) الاغانى ١٣*١٠٨ وابو الفداء ١*١٢٠ وابن جبير ١٠٩ والعقد الفريد ٣*٢٧ وفي مروج الذهب ١*٢٠٣ انه ثابت بن اسماعيل ولعل في احدى الروايتين أو كليهما تحريفا وفي هذه القصيدة بيت آخر مشهور وهو قوله

فألقت عصاها واستقر بها النوي كما قر عينا بالاياب المسافر

وفى العقد الفريد ١*١٣٩ ان راشد بن عبد الله أنشد هذا البيت وكان في زمن النبي صلى الله عليه وسلم.

واسماعيل مائلة (١) فيه لأيامهم فاحسنوا ولايته وجددوا بناءه كما أشار الى ذلك زهير ابن أبي سلمى فى قوله

فأقسمت بالبيت الذى طاف حوله ... رجالٌ بنَوْهُ من قريش وجرهم

ثم صارت ولايته بعد الخلفاء الراشدين رضى الله عنهم الى عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما فنزع عنه كسوته المسوح والانطاع وكساه الديباج الملوّن واتخذ له المفاتيح وصفائح الابواب من الذهب وكان يطيبه حتى يوجد ريح المسك من خارج الحرم (٢) فلما رماه يزيد بن معاوية بالمنجنيق بعث الى صنعاء في الفضة والكلس فحملها ثم شرع فى البناء على أساس الخليل ابراهيم عليه السلام فما كاد يستكمل بناءه حتى وفد الحجاج لقتاله بعد يزيد وحاصره بالزحوف والترامى وأحرق مكة ورماها بالمنجنيق حتى تصدعت جدران الكعبة نسأل الله السلامة من شرور الانفس وسيئات الاعمال فكتب اليه عبد الملك بن مروان أن يعيد بناءها على الصفة التى بنتها عليها قريش (٣) فى أيام النبي صلى الله عليه وسلم قبل النبوة (٤) فبناها على ذلك الرسم وهى باقية عليه الى أيامنا .

وهذا البيت المكرم مبنى بالحجارة الصماء السوداء مفروش بالرخام المجزع وفيه عمد ضخمة من الساج وسقفه مغشى بالحرير الملون وهو قريب من التربيع ونصفه الأعلى من الفضة المذهبة (٥) وله أركان أربعة

---

(١) المسعودى ١*٣٠٥ (٢) الابشيهى ١*١٥ (٣) المقدمة ٣٠٧ (٤) ابو الفداء ١*٢٠٨ (٥) ابن جبير ٨١

أولها الركن الشرقي الذى فيه الحجر الاسود . ومنه ابتداء الطواف ولا يدرى قدرما استتر من الحجر فى الركن (١) وسعته الظاهرة ثلثا شبر وطوله شبر واحد وقد وضعه النبي صلى الله عليه وسلم بيده (٢)على ماهو معروف عند الكل ثم الركن العراقى وهو شمالىّ . ثم الركن الشامىّ وهو غربىّ . ثم الركن اليمانى وهو جنوبى. وارتفاع هذه الاركان ثمانية وعشرون ذراعا الا الركن الشرقى فانه يزيد عنها ذراعا فى الارتفاع (٣) لانصباب السطح الى الميزاب (٤) وطول الكعبة سبع وعشرون ذراعا (٥) وبابها فى الصفح الذى بين الركن العراقى والركن الشرقى على أحد عشر شبرا من الارض وهو من الساج الملبس بالفضة والذهب المنقوش(٦)وطوله ست أذرع وزيادة وعرضه أربع أذرع وهو قريب من الحجر الاسود ويسمى ماينهما الملتزم وهو موضع استجابة الدعاء يتزاحم الناس فيه عند طوافهم بالبيت بحيث لايخلو منهم ساعة من نهار أو ليل وقد أخبرنى أمير مكة انه لايوجد من يخبر انه رآه خلواً من طائف به أو مصلّ وأخبرنى وهو غاية مايكون من احترام الدين وشعائره المقدسة ان فى مكة من الصالحين من لم يدخل الكعبة تعظيما لها (٧) اذ كانت أول بيت وضع للناس فيه آياتٌ بيناتٌ « مقام ابراهيم » ومن دخله كان آمنا .

---

(١) ابن بطوطة ١*٣١٣(٢) المسعودى ١*٣٠٥ (٣) ابن بطوطة ١*٣٠٧
(٤) ابن جبير ٨٠ (٥) الكنز ١٢١ (٦) العقد الفريد ٣*٣٥٩ (٧) القزوينى ٧٧

وفي الركن العراقى المذكور باب يسمى باب الرحمة ينتهى بالراقى عليه الى سطح البيت وتحته قبو فيه حجر مغشى بالفضة (١) تبركت بزيارته ولمسه وهو مقام ابراهيم الخليل عليه السلام وتحت الميزاب المذهب فى صحن الحجر قبر اسماعيل عليه السلام وموضعه رخامة بل رخامتان خضراوان فيهما نكت تميل لونهما الى الاصفرار (٢) حتى يخيل للناظر ان ذلك تجزيع بايدى الصناع والى جانبه مما يلى الركن العراقى قبر هاجر أم اسماعيل عليه السلام وموضعه رخامة خضراء أيضا . وفى مقابلة ركن الحجر الاسود الميمون قبة بئر زمزم (٣) وهى البئر التى شرب منها الخليل عليه السلام (٤) وداخلها مفروش بالرخام وعمقها فيما يقال احدى عشرة قامة أربع فضاء وسبع ماء وماؤها لمن شربه كما ورد عنه « طعام طعم وشفاء سقم . »

أما الحرم فانه يحدق بالبيت العتيق من جميع جهاته وهو قائم على عمد من الرخام (٥) وله صوامع سبع أكبرها فى دار الندوة (٦) وأصغرها على باب الصفا وهو اكبر أبواب الحرم ثم بعده باب السلام وباب السدرة وباب الندوة (٧) وشاهدت فى بعض مقاصير الحرم الشريف مصحفا

---

(١) الماوردي ٢٧٨ (٢) ابن جبير ٨٦ (٣) تقويم البلدان ٨٧ والشريشي ٢*١١٤ (٤) في العقد الفريد ٣*٣٦٠ ان سقفها قبو مزخرف بالفسيفساء على أربعة أركان تحت كل ركن منها عمودان من رخام متلاصقان (٥) في العقد الفريد ٣*٣٥٨ أن بين كل عمودين نحو عشرة أذرع (٦) ذكرها الاتليدى ٧٦ (٧) ابن ابن جبير ٨٩ والكنز ١٠٣

بخط زيد بن ثابت الانصارى (١) نسخهُ بأمر عثمان بن عفان رضى الله عنه سنة ثمان عشرة للهجرة كما تقدم بيان ذلك ولا أدرى فى أى موضع كان قبل أن يوضع هناك لانه لم يكن للحرم في تلك الايام جدار وانما كان موضعه دور (٢) لم تتم زيادتها فيه الا فى خلافة الوليد بن عبد الملك كما انه لم يتم بناؤه على ماهو اليوم الا فى خلافة المهدىّ رحمه الله وهو الذى زينه بالرسوم (٣) وكتب اسمه فى مواضع كثيرة منه تبركا بالخير الذى صنع . ومما كتب على سارية خارج باب الصفا « أمر عبد الله محمد المهدى أصلحه الله بتوسعة المسجد الحرام مما يلى باب الصفا لتكون الكعبة في وسط المسجد في سنة سبع وستين ومائة »

موافاة الرشيد بالمدينة

وكان انفصالى عن مكة المكرمة لسبع بقين من ذى الحجة . ومررت فى طريقى الى المدينة المنورة بمنازل عربان لم يتغربوا بالأسفار . ولا سبق لهم عهد بحضارة الامصار . فوجدتهم (٤) يقولون بالقيافة والزجر والعنقاء والبومة التى تأخذ بثار المقتول وغير ذلك مما كان يقول به أهل الجاهلية وبلغنى أن بجوارهم عربانا لم يدخلوا فى دين الاسلام لايختلفون عنهم الا بتعظيم عيسى عليه السلام وينطقون بالجيم كافا مخففة فينادون الرجل

(١) الكندي وابن جبير ١٠٢ (٢) المقدمة ١٠٨ (٣) ابن الاثير والخميس ٢*٣٣٠ وابن جبير ١٠٧ (٤) راجع مروج الذهب والاغانى وتزيين الاسواق

يارَكل (١) فوصلت من مكة الى بطن مرّ (٢) وهو وادخصيب ذوعين فوارة ثم عطفت منه الى عسفان وهى مدينة تحف بها الجبال وفيها كثير من شجر المقل وآبار منسوبة الى عثمان بن عفان (٣) رضى الله عنـه ثم ركبت الى الخليص وهو موضع فى بسيط من الارض وفيه خيام لقبيلتين كبيرتين من العرب يقال لهما كنانة وخزاعة وهم متقاربون فى المنزل وبينهم نسب لم ترم فيه العصا (٤) ثم امتد بنا السير من خليص الى بدر وهى قرية كثيرة الخيرات كانت بازاء موضع من مواضعها يقال له القليب وقعة النبي صلى الله عليه وسلم المباركة التى اعز الله تعالى بها الدين وقهر المشركين (٥) ثم أقلعت الى الصفراء فى صدر النهار وهى تبعد عن بدر بريدا ثم الى الروحاء وهى موضع بئر يقال فى الحكاية أن عليا عليه السلام قاتل فيها الجان (٦) ثم رحت أفوز فى الهضاب والبطاح حتى اقبلت على المدينة المنورة حرسها الله وزادها شرفا بمنه وكرمه .

وبعد أن تبركت بزيارة المسجد المكرم وصليت في الروضة التى بين القبر المقدس والمنبر الذى كان موطئ الرسول صلى الله عليـه وسلم ركبت الى قصر الامارة حيث حلّت ركاب الرشيد فاصبته فى مجلس يشبه أن يكون من مجالس قصر له في بغداد يقال له قصر الفرجة وهو مزخرف

---

(١) الاغانى ٩*١٣٩ (٢) تقويم البلدان ٩٤ وابن جبير ١٨٥ (٣) ابن جبير ١٨٦ والازرقى (٤) تزيين الاسواق ١١٤ (٥) ابن الاثير وأبوالفداء وابن جبـير ١٨٩ والقزوينى ٥١ (٦) ابن جبير ١٩١

بالصدف (١) الابيض وفيه كتابة بالصدف الاحمر والاخضر كأنها لعين الناظر ياقوت وزبرجد (٢) فلما وقفت بين يديه بادرنى بالسؤال عن أمر الرسالة وما كلمنى به الانبرزور فأخبرته بما توسم في غايتها من الخير وما وجدت فى البلاد من عدل العمال ودعائهم له في مساجد مصر والغرب وذكرت له من كلام القيصر مااقتضته جلالة الخلافة فشكرنى على حسن القيام بهذه المهمة ولكن من غير أن يظهر اليَّ ذلك الصفاء الذى كان يشرفنى به من قبل . ولما أذن لى بالانصراف ذهبت الى موضع البرامكة فوجدت فى نفوسهم ما وجدت فى نفس الرشيد ليس من تجافيهم اليَّ عن المصافاة بل من ادمان فكرتهم في أمر ظننت انه وقع بينهم وبينه في المشاعر المباركة بحيلة المدالسين . التى تصادف محلا فى قلوب العباسيين .

هذا ختام رسالتى اليك عن رسالتى الى القيصر وأحب قبل أن أفارق هذه المواطن المقدسة أن أذكر لك شيئا عن المدينة المنورة تبركا بذكره فأقول . انى وجدت المسجد المكرم قائما على أعمدة من الحجارة اللامعة وسقفه من الساج المزين بالرسوم (٣) وجدرانه منزلة بفصوص من الفسيفساء (٤) تمثل أشجارا وثمارا وأزهارا بأبدع ما يكون من الصناعة وهى من عمل الروم والقبط (٥) فيما رسم لهم عمر بن عبد العزيز بأمر الوليد بن عبد الملك (٦) ووجدت الروضة التى تجاور القبر المقدس

---

(١) المقدمة ٣٥٧ (٢) ابن خلكان ١ * ٣٨٣ (٣) ابن جبير والسيوطى (٤) العقد الفريد ٣ * ٣٦٢ (٥) القزوينى ٧١ (٦) ابن الاثير ٤ * ؛ وأبو الفداء ١ * ٢٠٩ وابن بطوطة ١ * ٢٧١

مؤزرة الى ثلثها برخام بديع النحت غريب النعت وأعلاها مضمخ بالمسك والطيب (١) ورأيت القبر المقدس مبنياً برخام يقال انه من عمل وردان (٢) وعلى رأسه صندوق من الابنوس مختم بالصندل مصفح بالفضة طوله خمسة أشبار فى ارتفاع أربعة وعرض ثلاثة . والى طرف القبر مما يلى أقدام النبي صلى الله عليه وسلم رأس أبى بكر أما عمر بن الخطاب فمدفون عند رجلى أبي بكر رضى الله عنهما وعليهما قناديل من فضة وذهب (٣) وبين الركن الجوفي والركن الغربى من المسجد موضع عليه ستر مسبل يقال انه مهبط جبريل (٤) عليه السلام

أما المدينة المنورة فانها بمكان من العظم والاتساع وتدل تسميتها بيثرب بن وائل من ولد سام (٥) بن نوح مع ماهو فيها من الآثار العتيقة على قدم اختطاطها وعلوّ شأنها بين مدن الحجاز . ولها أربعة أبواب أعظمها باب الحديد وهو من الحديد (٦) ثم باب البقيع حيث الآثار المذكورة والمشاهد المباركة الميمونة (٧) وفيها قصور ليس فيما نقله السفر المخبرون أعظم منها في ديار العرب وأعظمها قصر للمقداد بن الاسود في الموضع المعروف بالجرف (٨) وهو مجصص الظاهر والباطن (٩) وقصر لعثمان بن عفان مشيد بالحجر والكلس وأبوابه من الساج والعرعر (١٠)

---

(١) ابن جبير ١٩٢ (٢) الاغانى ١٧ * ٨٤ (٣) ابن جبير وابن بطوطة ١ * ٢٦٤ وتقويم البلدان ٨٧ (٤) ابن جبير ١٩٣ (٥) الاتقان فى تفسير القرآن ٢ * ١٦٧ (٦) ابن جبير ٢٠٠ (٧) ابن بطوطة ١ * ٢٦٨ (٨) المسعودى ١ * ٣٣٣ (٩) المقدمة ١٧٨ (١٠) المسعودي ١ * ٣٣٢

وفيها مشاهد كثير من الصحابة والتابعين والانصار وأهل البيت الكريم شرفهم الله تعالى (١) وقد زرت منها قبر السلالة الطاهرة ابراهيم بن النبي صلى الله عليه وسلم وقبور أزواج النبي صلى الله عليه وسلم وأولاده ومشاهد أولاد على عليه السلام وموضعها رخامة مكتوب عليها (٢)

« بسم الله الرحمن الرحيم »

« الحمد لله مبيد الامم . ومحيي الرمم . هذا قبر فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم سيدة نساء العالمين . وقبر الحسن بن على بن أبي طالب رضى الله عنهما وعلى بن الحسين بن على بن أبي طالب ومحمد بن على وجعفر ابن محمد رضى الله عنهم أجمعين » . فيا لها من قبور ما أشرفها وأكرمها .

والى مقربة من المدينة المنورة موضع يقال له قباء (٣) وفيه كان مبرك الناقة بالنبي صلى الله عليه وسلم وموضعه المسجد المبارك الذى أسس على التقوى والرضوان (٤) وفى صحنه شبه محراب على مصطبة يقال انه أول موضع ركع فيه (٥) النبي صلى الله عليه وسلم وفي قبلته بئر معروفة ببئر أريس يقال ان النبي صلى الله عليه وسلم تفل فيها فعاد ماؤها عذبا صافيا بعد أن كان آجنا أجاجا وفيها سقط خاتمه صلى الله عليه وسلم من يد عثمان بن عفان رضى الله عنه . هذا بعض الخبر عن المشاعر المباركة

---

(١) ابن جبير ١٩٧ و١٩٩ والمسعودي ٢*١٨٢ (٢) ابن جبير ١٩٨ (٣) ياقوت وتقويم البلدان (٤) أبو الفداء ١*١٣٠ (٥) ابن جبير ١٩٩

والمواطن المقدسة والقليل دليل على الكثير . وقد خص الله تعالى تلك البقاع المباركة من الشرف والتكريم بما لم يخص به غيرها من البلاد . وهو مالك الملك لا رب غيره ولا معبود سواه .

الرشيد والبرامكة فى مكة

هذا ذيل للرسالة اكتبه اليك من ظاهر الحيرة وأنا منفصل عن البرامكة في كتاب أحمله الى الرقة من لدن الرشيد لاعلمك بما هو واقع بينه وبينهم من الامر العظيم : كان انفصالنا عن المدينة المنورة فى غد اليوم الذى كتبت فيه هذه الرسالة وعلمت فيما نقل الى أبو زنج الهمذانى صاحب جعفر (١) أيده الله أن الرشيد انما تحول على البرامكة خوفا من ميل الناس اليهم بما وسعوا له من الجود والكرم فانه كان اذا جلس فى مكة للعطاء جلس معه يحيي فأعطى مثل عطائه واذا جلس الامين جلس معه الفضل فأعطى مثل عطائه واذا جلس المأمون جلس معه جعفر فأعطى مثل عطائه ثم استرسلوا هم وأولادهم من بعد فى سعة الهبات حتى ذهبت أعطياتهم مثلا بين الناس فانصرفوا عن مديح الخليفة الى صوغ الشعر فى مدحهم على الكرم وكانوا يقولون والله هذا عام الاعطيات (٢) وينشدون

اذا نزلوا بطحاء مكة أشرقت ... بيحيي وبالفضل بن يحيي وجعفر
فما خلقت الا لجود أكفهم ... وأقدامهم الا لأعواد منبر

(١) الاغانى ١٧ * ٣٣ (٢) الفخري

فأحدث ذلك فى نفس الرشيد غيظاً من تمام النعمة عليهم وانطلق المجال لاخصامهم من آل الربيع فيما كانوا يرتقبون من فرصة لتهويل أمرهم على الرشيد فخوّفوه استقوائهم بالمال والرجال واستعانوا برقعة من الشعر رفعوها اليه وزعموا انها تدور بين الناس وفيها هذه الابيات (١)

قل لامين الله فى أرضه — ومن اليه الحل والعقدُ
هذا ابن يحيي قد غدا مالكا — مثلك ما بينكما حدٌّ
أمرك مردود الى أمره — وأمره ليس له ردٌّ
وقد بنى الدار التى ما بنى الـ — ـفرس لها مثلا ولا الهندُ
الدرُّ والياقوت حصباؤها — وتربها العنبر والندُّ
ونحن نخشى انه وارثٌ — ملكك ان غيّبك اللحدُ

فأدخلوا عليه الخوف منهم على سلطانه . فاستدعى من كان بمكة من بنى هاشم وبعث الى المدينة يستقدم أهل الحل والعقد وجدد البيعة بحضرهم للمأمون بعد الامين وكتبها من بعدهما لمحمد القاسم ولقبه بالمؤتمن . فصيّر ولاية العهد الى ثلاثة من أولاده يتعاقبون فيها كما قالت الشعرا في مديحهم له (٢)

أبو أمين ومأمون ومؤتمن — أكرم به والداً برّا وما ولدا

ثم انه ولّى المأمون خراسان وهمذان الى آخر المشرق وأحضر القضاة والشهود وأشهدهم ان جميع ما فى عسكره من الاموال والخزائن والسلاح

---

(١) ابن خلكان ١*١٥٢ (٢) السيوطى

والكراع وغير ذلك للمأمون وليس له فيه شيء (١) وضمّ الى القاسم الجزيرة والثغور والعواصم وفرّق فى الناس نحواً من ألف ألف دينار(٢) ليظهر اقتداره على العطاء الكثير ويحط من قدر البرامكة ما وقع فى نفوس الناس من انفرادهم بسعة العطاء دون غيرهم من خليفة أوسلطان. وهو يظن انه يفعل هذا أمناً لمكروه من ناحيتهم ورداً لمكيدة خافها من وراء ما كانوا يعارضونه من قبل في قسمة الملك بين المأمون والمؤتمن. مع انهم اذا لم تجر لهم موافقة على هذه القسمة فلم يكن ذلك الا حباً به ومنعاً لوقوع الشقاق بين أولاده

وكان معها في قلبه من الموجدة يصانعهم ويوهم استرسال نفسه اليهم حتى لا يفطنوا الى ما يريد بهم من المكروه فاذا جلسوا اليه أظهر الرضى عنهم وأقبل بالعاطفة عليهم ليوهمهم ان الامر على ليالى الجلاء. فكان يغرّهم ذلك منه الا جعفراً حفظه الله لانه كان أعلم الناس بما في نفسه من حب الاثرة حتى اذا أهداه مسروقا غلامه (٣) قال لى والله ان في اهدائه اليّ هذا الغلام لحيلة لم يخف على أمرها . فانه يوهمنا برضاه حتى لا نظن به سوءاً فيما داخله من الحسد ... وقد أخبرنى جبريل بن بختيشوع ان الرشيد انما تحول عليهم بتمحل الفضل بن الربيع الذى كان يذكر له ما على بابهم من الجيوش والاعوان وبخوفه استقوائهم في فارس وخراسان وتعميرهم خطط الدولة بمن يعرفون فيه حباً لاهل البيت ويشكيهم لديه

(١) ابن الاثير ٦*٦٨ (٢) ابن الاثير ٦*٦٢ (٣) الاغانى ٣*١٤٠ والاتليدي ١٦٨

باحتياز مال الجباية (١) وتصرفهم في الامور بما يشأون والملوك لاتصبر على مثل ذلك فأوغر صدره خوفامنهم بعدان ملأ قلبه عداوةً لهم(٢)

هذا ما اتصل بي في مكة من أمر الرشيد بالبرامكة (٣) وقدتحول عليهم لأمرين لا أرى له مندوحة فى أحدهما . فأما استفحال ملكهم فى الاسلام وتزلف الملوك اليهم بالهدايا الفاخرة والاموال الطائلة فانه غير مضرّ بالرشيد وله بهم سند للدولة وفخرٌ فى الملة الا ان يكون ضعيف البصيرة فاتر الهمة وقد مضى لهم من تعظيم شأنه وتقويم سلطانه مايشهد بان سيفهم خادمٌ لنصرهِ . وأما وفور المال تحت أيديهم وانبساط الجاه لديهم وكثرة الضياع عندهم فذلك لهم بعدان تولّوا المراتب خمسين سنةً في الوزارة والولاية وقيادة الجيوش وليس فيه فيءٌ من أموال المسلمين كما يزعم الواشون بهم الى السلطان فكان أولى بالرشيد وأكرم لنفسه أن يذكر بلوغه المجد والصولة بهم لا ان يدبّ فيه الطمع ويمدّ عينهُ الى ما أدخروا لولدهم بعد ان دبّروا دولته هذا التدبير العظيم

ولما اجتمعت بالبرامكة بعد ذلك وخلوت بجعفر النفس الزكية علمت مقدار النفرة التى وقعت بينه وبين الرشيد . فقال لى جعفر انظر كيف انه يركب هذا المركب الوعر . ما كفاه اننا أقمنا ملكه ومهدنا أمرهُ حتى صار يحسدنا على ما آتانا الله من النعمة فوالله لئن لم يرجع عن غيه ليكونن

---

(١) المقدمة ١٤ (٢) ابن الاثير ٦*٦٢ (٣) فى الأغانى ٥*١١٣ أن الناس كانوا يتحدثون بتحوّل الرشيد على البرامكة قبل نكبتهم بأيام

ذلك وبالاً سريعاً عليه (١) فقلت ياسيدى ليس للرشيد عنكم مرغب ولا أظنه يحرم دولتـه من عنايتكم فقال تمهل عن نفسك ان لنا فارس وخراسان فان يجاهرنا بالعدوان يقم فى وجهه من يغالبـه على السلطان . فلما رأيت ما بنفس جعفر من التأثر أخذت فى تهدئة خاطره وقد كنت أعرفه سريع الرجوع من غضبه فلم يهدأ ثائر صدره وانما أدمن الفكرة فيما يشغله من القلق وأمرنى بان لا افارق بابه في ذلك الوقت

وكان الفضل بن الربيع لا يفتر عن السعاية به الى الرشيد ساعةً من ليل أو نهار ويخوفه منه التحمل فى مؤامرة جارية بينهُ وبين الفرس فكان الرشيد يحتال باستبقاء جعفر عنده والميل اليه بتصنع من العاطفة ليوهمه زوال ما بنفسه من الموجدة وكان جلوسى اليـه فى ذلك الوقت قد أقلقه كل القلق فرأى ن يفصلنى عن البرامكة بوجه لا يردّ على الملوك بان يوجهنى الى الرقة في كتاب من لدنه الى عاملها وهو يقول لى ان بنا من جميل الاعتقاد بك ما نرتاح الى أنفاذك برسائلنا فكن عند رجائنا فيك فادركت الحيلة من ذلك الامر ولكن أشار الىّ البرامكة ان لا أخالف أمره حتى نطمع فى حسن النجاح ونحصل من المراد بما تم عليه العزم من أثارة خراسان والمناداة بخلافة أهل البيت .

فانفصلت عن البرامكة بالحيرة في اليوم الذى نزل الرشيد فيه السفن الى العمر الذى بناحية الانبار (٢) وكان الرشيد قد غلب عليه الخوف فى

---

(١) الاتليدي (٢) ابن خلـكان ١*١٥١

ذلك الوقت حتى كان اذا تناول الطعام يخشى أن يكون فيه سم (١) فاستبقى الاطباء على مائدته ممن كان مخالفاً للبرامكة الا جبريل بن بختيشوع (٢) وقد طوى عنه سرماعزم عليه من اقصائهم عن المراتب الا كلمة حسد قالها له حين رأى اقبال الملوك على بابهم (٣) وأنا اليوم أسير الى الرقة سيراً حثيثاً حتى لا يفوتني الرجوع الى بغداد قبل وصول جعفر بموكب الحجاج .

الرسالة العاشرة

﴿ أصبت بسادة كانوا عيوناً بهم نسقى اذا انقطع الغمامُ ﴾

اكتب هذه الرسالة اليك والدمع جارفي الآماق ليس على البرامكة وهم أحياء في الناس ولكن على الدنيا التي ذهب خيرها وعفت البلية رسوم محاسنها حتى كأنها طللٌ من هذه الاطلال التي يهجرها الأنس ولا يقف عندها الا الباكون النادبون .

كنت قبل الوصول الى الرقة قد وافاني من قبل البرامكة رسول يستقدمني اليهم ويعلمني أن الكتاب الذى أحمله الى عاملها يأمره فيه الرشيد بان يستبقيني عنده ويمنعني من الرجوع الى الحضرة لما داخله فيّ من الريبة ففضضت الكتاب فوجدت فيه تلك الاشارة فأصابني من الانقباض مايصيب الرجل المستسلم للحين لانى ما كنت أراني ناجيا من

(١) المسعودي ٢*٢١١ (٢) ذكر ابن خلدون في المقدمة ١٦ أنه كان ينظر في طعام الرشيد (٣) الاتليدي والفخرى

وقوع الغدر بي ووصول المكروه الىّ . ووقفت آتساءل فيما قام بنفس الرشيد من سوء المظنة بي بعد ان أديت رسالته حقها من الاخلاص وخدمته خدمة الناصح الامين فلم أجد على نفسى علةً عندد الا المودة التي بيني وبين البرامكة (١) فاتانى ان أنضم اليهم فقمت لساعتى وتبدلت زيى بزى الحجاز الجاف ثم ركبت الى بغداد متنكرا كيلا يعرفنى أحد من الناس .

فلما وصلتها وجدت فى أهلها ذلك الخمول الذى يقع فى الجماعة من هول عظيم فاستدللت بذلك على وقوع الامر بينهم وبين الرشيد فأسرعت الى منازلهم فوجدتها مغلقة وعلى أبوابها حرس الخليفة قد وقفوا بالسيوف فاسودت الدنيا في عيني وامتلأ قلبى من الوحشة وكدت أفقد احساس رجلىّ من الجهد الا أنه لم يكن لى وأنا طلبة الخليفة أن أطيل الوقوف تلقاء دورهم فرجعت أمشى على غير دراية لعلى أصادف صديقاً أتوجع اليه واستطلع أخبارهم من قبله حتى وصلت الى دار اسحق النديم (٢) فدخلت الدار وحسرت اللثام عن وجهى فلما عرفنى ترقرقت عيناه دموعاً وقال بم أندب البرامكة أأعزيك أم أعزى نفسى أم أعزى الأيام بفقدهم وبكى حتى خنقته العبرة وكنت في ذلك الوقت لا أعى من شدة الهول ولم يكن

---

(١) ذكره الاغانى ١*٢٥ و٢*١٢٣ وقبض الرشيد على صنائع البرامكة ومن هو مشهور بمخالطتهم مذكور فى كتب التاريخ (٢) فى الاغانى ٥ أن اسحق بقى ميالا مع البرامكة بعد مقتل جعفر

اسحق يكلمني عن أمرهم مع الرشيد الا كلاما متقطعا ممزوجا بالزفرات...

قد علمت مما مضى اليك فى الرسالة السالفة موقف البرامكة مع الرشيد هو يحاول الايقاع بهم حسدا على ماصار اليهم من النعمة وهم يسلكون معه مسلك المودة ليرجع عما قام بنفسه من الحقد والا اثاروا الخراسانيين خروجا عليه فى دعوة أهل البيت . وعلمت أن الفضل بن الربيع كان موقنا بزوال النعمة عنه مع بقاء البرامكة وانه كان يخوف الرشيد مؤامرتهم مع الفرس ويذكر له أن الخلافة في موقف بعيد عن التخلص من دهائهم اذ كانت الملوك طوع أمرهم وأموال الدولة كلها بأيديهم حتى ملأ صدره من عداوتهم . ثم علمت ان الرشيد كان قد أهداهم مسروقاً غلامه ليوهمهم رضاه ولكنك لم تعلم انه كان بينه وبين هذا الغلام مواطاة على نقل أحاديثهم اليه وعدّ أنفاسهم عليهم ومراقبتهم في جميع حركتهم خديعة منه حتى اذا نقل اليه الكلام الذى كان يحدثنى به جعفر فى المشاعر المباركة عمد الى هدر دمه الزكيّ ووجهنى الى الرقّة أمثال المجرمين الذين فى نفوسهم تبعة من شر نعوذ بالله من سخطه .

وقد حدثنى اسحق أن الرشيد كان قبل اليوم الذى نكبهم فيه قد ركب الى أرباض المدينة ومعه اسماعيل بن يحيي الهاشمى وجماعة من أقاربه وبينما هو يسير اذ نظر الى موكب عظيم قد اعترضه بالبعد فقال لاسماعيل يا اسماعيل لمن هذا الموكب قال لاخيك جعفر فالتفت يمينا وشمالا الى الى من معه فاذاهم شرذمة قليلون ثم نظر الى الموكب الذى فيه جعفر

فلم يره فقال يا اسماعيل مافعل جعفر وموكبه فقال ياسيدى قد مضى أخوك في طريقه ولم يعلم بموضعك فقال مارآنا أهلا لان يزيننا بموكبه ويجملنا بجيشه فقال عفوا يا أمير المؤمنين انه لو علم بموضعك ماتعداك ولا سار الا بين يديك . ثم سار حتي انتهى الى ضيعة عامرة ومواش كثيرة وعمارة حسنة فقال يا اسماعيل لمن هذه الضيعة فقال لاخيك جعفر فسكت الرشيد وتنفس الصعداء ثم صار وما زال يمر بضياع بعضها أعمر من بعض وكلما مر بضيعة سأل اسماعيل عنها فيقول هي لجعفر ولاخوته حتى وصل الحضرة فلما خلا مجلسه قال يا اسماعيل انظر الى البرامكة أغنيناهم وأفقرنا أولادنا وأهل بيتنا فانى لاأعرف لأحد من أولادنا ضيعة من ضياع البرامكة (١) على طريق واحد بقرب هذه المدينة فكيف بما هو لهم من غير ذلك على غير هذه الطريق في جميع البلدان فقال اسماعيل ياأمير المؤمنين انما البرامكة عبيدك وخدمك والضيعات وأموالهم وجميع ما يملكون هولك فنظر اليه نظرة جبار وقال والله يااسماعيل ماعد البرامكة بني هاشم الا عبيدهم وخولهم وان الدولة لهم ولا نعمة لنبي العباس الا وهم المنعمون بها عليهم فقال أمير المؤمنين أبصر من غيره بخدمه ومواليه فقال والله يا اسماعيل انك لتعلم انى قلت هذا وكانى بك تخبرهم به فتتخذ به يداً عندهم وانى آمرك أن تكتم هذا الامر فانه لم يعلم به أحد غيرك ومتى بلغهم شيء مما جرى بيني وبينك علمت أنه ما أفشاه الا أنت فقال ياأمير

---

(١) الدميري ١٥٤٥* والعقد الفريد ٣*٣١

المؤمنين أعوذ بالله أن مثلي يفشي بسرك ثم ودعه وجاءه من الغد وهو في محل من قصره يشرف على دجلة وبازائه منازل البرامكة التي كانت محفوفةً باليمن والبركة فقال يااسماعيل هذا ما كنا فيه بالامس أنظركم على باب جعفر من الجيوش والغلمان والقواد والمواكب وليس على باب داري أحد فقال ياأمير المؤمنين ناشدتك الله أن لايعلق بنفسك شيء من هذا فانما جعفر خادمك ووزيرك وصاحب جيوشك وبابه باب من أبوابك فاذالم يكن الجند على بابه فعلى باب من يكون فقال والله ان البرامكة قد ملكوا الدولة واحتجفوا أموال الجباية وانصرفوا عن خدمتي الى محبة العلويين وتعزيز شيعتهم وأنا لاأصبر على ذلك (١)

وكان جعفر في ذلك الوقت قد عزم على الركوب الى خراسان(٢) وهو عالم بما أضمر الرشيد له ولاهل بيته من السوء فما أحبّ أن يتركهم بغير حراسة وانما أبقى في يد الفضل رجالا يعرف فيهم الامانة ليقيهم من مكايد الرشيد حتى اذا قدم الحرمين في دعوة أهل البيت وجد في العراق من يستعين به على العباسيين . غير أن الرشيد قد فطن لما كان يباشره من تعبية الجند فأيقن بالاشراف على الخطر الا أن يمحل في أمر يغلبه به قبل ركوبه الى خراسان . فأرسل الى بني هاشم تحت الليل أن يضموا اليهم جماعاتهم وأمر الفضل بن الربيع أن يحوط دور الخلافة بما

---

(١) أبو الفداء ٢*١٧ (٢) ذكر الاتليدي ان جعفرا كان عازما على الركوب الى خراسان في ذلك الوقت

بين يديه من الحرس والغلمان وأرسل الى يزيد بن مزيد الشيبانى (١) انه اذا ركب جعفر من الغد الى دور الخلافة يبعث بمن يحوّط البرامكة ويقبض عليهم (٢) واستبقى الامر سراً لم يستخدم في قضائه الا جماعة من أقاربه (٣) دون الغلمان الذين كان يغمرهم جودهم وكرمهم ثم أرسل فى تلك الليلة الى جعفر من يقول له انه يمكنه من بيوت المال أن يتناول منها مايشاء ويأخذ من الجند الى خراسان من ينتخبه ويريده وأن أمانته فيه فوق كل أمانة وأمثال هذه المصانعة حتى لا يفطنوا لما أخذ في تدبيره من اغتيالهم . وكان جعفر يعلم بما في تحل الرشيد من المصانعة والرياء ولكنه ظن انه يريد استمالتهم اليه ورجوعهم الى الثقة به لا أنه يريد نكبتهم فى صباح تلك الليلة .

ولما أصبح الرشيد استدعى خادمه مسرورا (٤) وقال له قد انتخبتك لامر لم أر له محمدا ولا عبد الله ولا القاسم (٥) فحقق ظنى فيك واحذر أن تخالف فتهلك فقال مسرور لك على امرة مطاعة فمرنى بقتل نفسى أفعل فقال له امض الساعة الى الحديقة وحوطها بالحرس وضم الى جماعة من الغلمان ثم اذهب الى جعفر وجئنى به وقل له انه وردت كتب من

---

(١) وقد تقدم انه كان منحرفاً عن البرامكة (٢) ابن الاثير وأبو الفداء والعقد الفريد (٣) ابن خلكان ١*٥٢ (٤) الاتليدى والاغانى ١١*٥٤ وابن خلكان ١*١٥٢ وابن الاثير ٦*٦٣ (٥) قوله محمد وعبد الله والقاسم يريد بهم الامين والمأمون والمؤتمن أولاده

خراسان فاذا دخل الباب فلا تدع من معه يدخل بعده فاذا تمكنت منه فخذ رأسه ولا تراجعني في ذلك واياك اياك أن يفوتك الامر . فسار مسرور الى جعفر فأصابه فى داره قد طرح نفسه ليستريح فقال له ياسيدى أمير المؤمنين يدعوك لرسائل وردت الساعة في خريطة البريد من خراسان . فلبس جعفر ثيابه وتقلد سيفه ثم ركب فى جماعة من الحرس والجند لانه لم يكن بمأمن من غدر العباسيين به فلما دخل الباب طلع عليه من في الحديقة من الحرس وحاولوا رد غلمانه وهم غير مأمورين بالقتال فاستفرده مسرور وبضعة عشر رجلا دخلوا معه الباب فجردعليه السيف وصاح بمن معه من العبيد والخصيان فأهدروا دمه . وانى لست أنسب الشر الى مسرور هذا الخادم اللئيم فما هو الا ذئب قد استرعاه الرشيد ومن استرعى الذئب فقد ظلم ومع ذلك فانى لا أبرئه من تبعة ذلك الاثم الفظيع ولا أرى بينه وبين شديد العقاب الا الموت الذى يساق بعده الى دار العذاب .

هذا ما بلغنى من اسحق ثم سمعت فى أحاديث الناس ان جعفرا لما صار فى وسط الحديقة ولم ير معه الجند ارتاع وندم على ركوبه في تلك الساعة فقال لمسرور يا أخى ما القضية فقال يا سيدى ان أمير المؤمنين قد أمرنى بقتلك فيقولون ان جعفرا بكى حينئذ وجعل يقبل مسرورا ويقول له أنت تعلم اكرامى لك دون خول الرشيد وان حوائجك عندى مقضية فى جميع الاوقات وأنت تعرف مكانتى عند الرشيد وما يوجه الىّ من

الاسرار ولعل أن يكون بلغوه عني باطلا وهذه ألف ألف دينار وفي رواية عشرة آلاف ألف دينار أدفعها اليك الساعة وخلني أهيم على وجهي فقال لا سبيل الى ذلك فقال احملني اليه وأوقفني بين يديه ولعله اذا وقع نظره عليّ تدركه الرحمة فيصفح عني فقال وهذا أيضا لا سبيل اليه (١) ولا تمكنني مراجعته فقال توقف عني ساعة وامض اليه وقل له انك فرغت مما أمرك به واسمع ما يقول ثم عد وافعل ما تريد واني أشهد الله وملائكته على أن أشاطرك نعمتي وأوليك من الامور جسيما ان فعلت ذلك وسلمت لي نفسي ولم يزل به وهو يبكي فيما يقولون طمعا في الحياة حتى قال له ربما يكون ذلك ثم انه وكل به غلمانا من السودان يحفظونه ومضى الى الرشيد وهو جالس يقطر غضبا فلما رآه قال له ثكلتك أمك ماذا فعلت فقال يا أمير المؤمنين قد أنفذت أمرك قال فأين رأسه قال في قبة الحديقة قال فأتني به الساعة (٢) فرجع مسرور وجعفر يصلي وقد ركع ركعة فلم يمهله أن يصلي الثانية بل سل سيفه وضرب عنقه وأخذ رأسه وطرحه بين يدي الرشيد يشخب دما فيقولون ان الرشيد تنفس الصعداء وبكى بكاء شديدا وجعل يقول كالمعاتب نفسه ياجعفر ألم أحلك محل نفسي يا جعفر ما كافأتني ولا عرفت حقي ولا حفظت عهدي ولا ذكرت نعمتي ولا فكرت في صلاح أمري يا جعفر قد غرتك نفسك فدار عليك الدهر وكان يقول هذا وهو يقرع أسنانه

---

(١) الاغاني ١١ * ٥٠ والاتليدي ١٣٧ (٢) ابن الاثير ٦ * ٣٦

بالقضيب بعد الكلمة والكلمة وكان ذلك بين سلخ المحرم (١) وأول صفر (٢)

وقوع التوانى فى الدولة بعد نكبة البرامكة

ولما اتصلت بى هذه الاخبار الفاجعة انهملت عيناى بالدموع لقتل جعفر النفس الزكية بقضاء لا حيلة بعده الا اللوعة والندم . فكنت مثل الرجل الذى يرى فى منامه هولا ينزل به وهو لا يدرك سرّه . ولا يجد لنفسه مرداً يتقى به شره . وان كان يسوءنى من الرشيد احتياله في مصانعة البرامكة (٣) قبل ركوب جعفر الى خراسان ليذهلوا عن تدبير ما يتقون به مكايده ظناً بزوال ما عنده من الموجدة مع انه كان يضمر قتلهم (٤) والعياذ بالله من شرور النيات . فانى ليسوءنى أكثر من ذلك تتبعه النقمة فيمن أخذه منهم كشف الله الغمة عن قلوبهم . فقد بلغنى عن يحيي والفضل وا حرقتاه جهد شديد يقاسيانه في المحبوس فانهما ليطلبان الماء الفاتر للوضوء فلا يحصلان عليه ويشتهيان الطعام تأتيهما به الحراس فلا يجدان من يطبخه لهما فيتوليان طبخه بأنفسهما ويقومان على القدر (٥) مع جلالة قدرهما . فيا رحمة لهؤلاء الملوك الذين أخذهم الرشيد غدرا (٦) تنعيه عليه الايام . ويسأل عنه في يوم القيام . وانى لاحسب جعفراً مع

(١) ابن خلكان ١*١٥٢ (٢) أبو المحاسن ١*٥٢٦ ,٣(٣) في الاغانى ١١*٤٤ وغيره أن الرشيد كان يصانع البرامكة (٤) في العقد ٣*٣١ انه كان يريد قتلهم (٥) الاتليدي ١٧٨(٦) الفخرى

ما أصابه من الامر الفظيع أكبر حظاً من أبيه واخوته اذ قدم على ربه شهيداً في دعوة أهل البيت ولم يصر الى هذا الهوان (١) الذى صاروا اليه وهم الذين عرفهم عظماء الملة . والرؤساء من أهل التجلة . والذين آتوا الرشيد بحكمتهم منعة لم يكن مثلها لدولة من دول الاسلام .

ولقد كنت أحب أن أتوصل الى موضع البرامكة أو استنبط حيلة لانقاذهم مما يعانون من الشدة غير انى رأيت الامر لا يتم على الوجه الذى أرومه الا بالقوة التى تغالب الحرس . ولما كانت جماعتنا فى بغداد فئة قليلة من الرجال وأكثرهم داخل فى جيش الخليفة وتحت أمرة العباسيين أيقنت أن مجاهرة الرشيد بالعدوان قبل العودة الى فارس ليست من الرأى الصواب ولم يكن احجامى عن ذلك خوفاً على نفسى من القتل لان النفوس لا يعظم بذلها فى سبيل البرامكة ولكن رحمة بهم من جور الرشيد الذى يضيق عليهم بقدر ما يرى من ميل الناس الى الوصول اليهم أو الثأر بدمهم فقد بلغنى انه لما قام عثمان بن نهيك ليثأر بجعفر وهو يقول والسيف صلت في يده . ياضلّ ماتجرى به العصا واجعفراه واسيداه والله لاقتلن قاتلك ولأثأرنّ بدمك (٢) عزم الرشيد بعد قتل عثمان هذا المبرز سيفه الكريمة نفسه على التضييق عليهم وتفريقهم في الحبوس المنقطعة

---

(١) ذكر هوان البرامكة في محبسهم ابن الاثير وابن عبد ربه والابشيهى والاتليدى وابو الفرج وغيرهم (٢) ابن الاثير ٦*٦٦

وقبض ضياعهم عن أهل بيتهم(١) حتى يقتلهم بالشدة التي هي أمرّ من القتل .

وقد مضى عليّ اليوم في بغداد وأنا متقطع النفس سبعة وأربعون يوما لم آل فيها جهدا للوصول اليهم فلم أحصل على ذلك مع وفور ما بذلته من المال وكنت أحب أن ألقى أحداً من خدمهم وحجابهم فلم أظفر بواحد منهم في بغداد وكأني بهم قد تصدّعوا في الآفاق (٢) في جملة من هرب من غلمانهم وجواريهم ومغنياتهم (٣) ومن هو معروف بمخالطتهم من العلماء والشعراء والندماء وأهل الادب غير أني رأيت فيمن بقي من الطامعين اليهم دموعا يسترونها عن العيون وما وجدت منهم الا منقبض النفس ومن يذيبه الأسف عليهم حتى كأنهم صدع واحد في لوم الرشيد على قتلهم (٤) فما أذكر أني نزلت مرة الى السوق الا ونظرت رقاع الاشعار مُعلَّقة على الحيطان رثاء لجعفر وندبا للدنيا في مالحق أهله من النكبة الفظيعة . ومما بقي في ذهني من هذه الاشعار قول بعضهم وأظنه الرقاشي أو أبا نواس (٥)

الآن استرحنا واستراحت ركابنا وأمسك من يجدي ومن كان يجتدي
فقل للمطايا قد أمنت من السُّرى وطيّ الفيافي فدفداً بعد فدفد

---

(١) أبو الفداء ٢*١٨ والاغاني ٨*٧٩ والاتليدي ١٧٤ وابن الاثير ٦*٣٦
(٢) الاتليدي ١٧٤ (٣) الاغاني ٣*١٨٣ (٤) أبو المحاسن ١*٥٢٧ والفخري وابن الاثير ٦* ٧ والعقد الفريد والاتليدى (٥) ابن الاثير ٦*٦٤ وأبو الفداء ٢*١٨ والمسعودي ٢*٢١٩

وقـل للمنايا قد ظفرت بجعـفر ولن تظفرى من بعده بمسوّد
وقل للعطايا بعد فضـل تعطّلى وقل للرزايا كلّ يوم تجـدّدى
ودونك سيفاً برمكياً مهنّدًا أصيب بسـيف هاشـمىّ مهنّد

وقولهم (١)

يامنزلاً لعب الزمان بأهـله فأبادهم بتفرق لايجـمع
ان الذين عهدتهم فيما مضى كان الزمان بهم يضر وينفع
أصبحت تفزع من رآك وطالما كنا اليك من المخاوف نفزع
ذهب الذين يعاش في اكنافهم وبقى الذين حياتهم لاتنفع

وقرأت رقعة مكتوب عليها هذه الابيات وأظنها من نظم أنس بن أبى شيخ النصرى (٢)صاحب جعفر برّد الله مضجعه وسقى ضريحه صيّب الرحمة والرضوان

لعمرك مافى الموت عار على الفتى اذا لم تصبه فى الحيـاة المعاير
ومن كان مما يحدث الدهر جازعا فـلا بد يوما أن يرى وهو صابر
فلا يبعـدنك الله عنى جعفـرا بروحى ولو دارت علىّ الدوائر
فآليت لأنفك ابكيك مادعت على فـنن ورقاءُ أو طار طـائر(٣)

وقال علىّ بن أبى معـاذ (٤)

---

(١) الاتليدي ١٨٠(٢) ذكره صاحب الاغانى ١٧*٣٣ وقال صاحب العقد الفريد ان الرشـيد قتـله بعـد نكبة البرامكة ١*١٨٨ (٣) الاغانى ١٥*٣٦

(٤) المسعودي ٢*٢٢٩

يأيها المغـتر بالدهـر　　والدهر ذو صرف وذو غدر
لاتأمن الدهـر وصولاته　　وكن من الدهـر على حـذر
ان كنت ذا جهـل بتصريفه　　فانظر الى المصـلوب بالجسر
وخـذ من الدنيا صفا عيشها　　واجر مع الدهـر كما يجرى
كان وزير القائم المرتضى　　وذا الحجى والفضـل والذكر
وكانت الدنيا باقطـارها　　اليـه في الـبر وفى البـحر
يشيـد الملك بآرائـه　　وكان فيـه نافـذ الامر
فبينما جعفـر في ملكه　　عشيـة الجمعـة بالقمـر
يطـير في الدنيا باجناحـه　　يأمل طول الخـلد والعمر
اذ عثر الدهر به عـثرةً　　ياويلنا من عـثرة الدهـر
فغودر البـائس فى ليـلة الـسبت قتيلا مطلع الفجر
وجىء بالشيـخ وأولاده　　يحي معـا فى الغـل والاسر
والـبرمكيين وأتبـاعهـم　　من كان في الآفاق والمصر
كانما كانوا على موعـد　　كموعـد النـاس الى الحشـر
وأصبحوا للنـاس أحـدوثة　　سبحان ذى السلطان والامر

وقال سلم الخاسر

خوت أنجم الجدوى وشلت يد النوى　　وغاضت بحار الجود بعد البرامك
هوت أنجـم كانت لابنـاء برمك　　بها يعرف الهادى طويل المناسك

وقال أشجع السلمى

ولّى عن الدنيا بنو برمك　　　فلو توالى الناس مازادوا
كأنما أيامهـم كلها　　　كانت لاهل الارض أعياد

وقال فيهم أيضا

قد ساد دهر ببنى برمك　　　ولم يدع فيهـم لنا لقيا
كانوا أولى الخير وهم أهله　　　فارتفع الخير عن الدنيا

وقال فيهم صالح الاعرابى

لقد خان هذا الدهر أبناء برمك　　　وأىّ ملوك لم تخنها دهورها
ألم يك يحيي واليَ الارض كلها　　　فأضحى كمن وارته منها قبورها

وقال واحد من بيت البرامكة فى رثائهـم وقيـل بل هو سليمان الاعمى أخو مسلم بن الوليد

أصبت بسـادة كانوا عيونا　　　بهم نسقى اذا انقطع الغمام
فقلت وفي الفؤاد ضريم نار　　　وللعبرات من عينى انسجام
على اللـذات والدنيـا جميعاً　　　ودولة آل برمك السلام
جزعت عليك يافضل بن يحيي　　　ومن يجزع عليك فلا يلام
هوت بك أنجم المعروف فينا　　　وعز بفقدك القوم اللئام
وما أبصرت قبلك ياابن يحيي　　　حساماقده السيف الحسام

الى أن يقول

أألهو بعدكم وأقر عينـا　　　علىّ اللهو بعدكم حرام
وكيف يطيب لى عيش وفضل　　　أسير دونه البلد الشآم

وجعفر ثاويا بالجسر ابلت محاسنه السمائم والقتام
أمر به فيغلبني بكائي ولكن البكاء له اكتتام
أقول وقمت منتصبا لديه الى أن كاد يفضحني القيام
أما والله لولا خوف واش وعين للخليفة لا تنام
لطفنا حول قبرك واستلمنا كما للناس بالحجر استلام (١)

فكان الرشيد يخاف من كثرة البكاء عليهم ووقوع الفتن فى الدولة فلذلك منع الشعراء من رثائهم (٢) وجعل عقاب من يقدم على ذلك القتل (٣) وأمر الحراس أن ينزعوا الرقاع التى علقت فى الاسواق لئلا يثور ثائر الشعب من الشغب (٤) ولكنه لم يبلغ من ذلك الغاية التى كانت يرومها من محو ذكرهم (٥) وطمس معالمهم بعد ان زينوا الخلافة بمحاسنهم خمسين سنة وانطبعت في قلوب الناس محبتهم (٦) بما صنعوا من المعروف وبذلت أيديهم من العطاء . ثم ان خوفه من غوائل هذا الامر لا يقف عند ما كان يراه من وقوع الفتن في الدولة فربما وصل اليه أن فارس قد قامت فيها القيامة وان خراسان (٧) قد عصفت فيها ريح الفتنة والمغرب قد تضعضع حكمه فى يد بن الاغلب والروم قد جاشوا فى بلدهم وامتنعوا عن تأدية الجزية لعلمهم باختلال الدولة بعد نكبة البرامكة وضعف آل

(١) الاغانى ١٥*٣٦ (٢) الفخري والنواجى والاتليدى (٣) الاسحاقى ٩٨
(٤) اعلام الناس ١٧٤ (٥) ابن الاثير٦*٧٥ والعقد الفريد ٣*٢٦ وابن خلكان
(٦) الاتليدي وابن الاثير والفخري وأبو الفداء (٧) الاتليدي ١٧٤

الربيع الذين تولوا الوزارة بعدهم ولا أرى لهم بها استمتاعا طويلا كما يشير أبو نواس الى ذلك بقوله (١)

مارعى الدهر آل برمك لمَّا   أن رمى ملكهم بأمر فظيع
ان دهرا لم يرْعَ عهدا ليحيي   غير راع زمام آل الربيع(٢)

حتى اذا اتصل بهم خبر الروم والتوائهم عن الخراج لم ينبههم العزم ولا الحزم على ابلاغ الرشيد بأنفسهم (٣) بل اتخذوا طريقة البلاغ على ألسنة الندمان وفي ذلك يقول الشاعر استخفافا بالامر وهذا بعيد عن سياسات الدول (٤)

نقض الذي أعطاكه نقفور   فعليه دائرة البوار تدور
أبشر أمير المؤمنين فانه   غنم أتاك به الاله كثير

فتأمل رعاك الله في هذه الدولة التي كانت زينة الدنيا في أيام البرامكة(٥) كيف صارت الى رجال لا رأي عندهم ولا عزيمة فان يبلغك عن وهنها خبر فيما بعد فاعلم ان صدور هذا الفتور ناشيء عن فتور الصدور . وهذه الجنود التي تراها في قبضة الرشيد لا تنفع دولته ما لم يكن عنده عقل

---

(١) كان أبو نواس منحرفا عن الفضل بن الربيع وفيه يقول .

أيها الراكب المجدّ الى الفضـ * ـل ترفق فدون فضل حجاب
ونعم هبك قد وصلت الى الفضـ * ـل فهل في يديك الا التراب

(٢) المحاضرة ٢*١١٤ (٣) الاغانى ١٧*٤٦ (٤) السيوطى وابن خلدون وابن الاثير ٦*٦٦ والاغانى ١٧*٤٥ والمسعودى ١*١٥٨ (٥) الاتليدي

يدير به سياسته فكم رأينا من دولة كانت في العالم عظيمة فأعمى ساستها الجهل فانحطت لفقدان الحكمة . ودولة كان أمرها فى توانٍ فتولاها رجال كبراء أصلحوا ما فيها من الاختلال . وصعدوا بها من العزة المقام الذى لا ينال . وتأمل في الدولة الاموية كيف قامت بمعاوية بطل السياسة والتدبير اذ ضم الاسلام الى مصلحة واحدة من طرف المشرق الى أقصى المغرب (١) ثم أقام دولته على هذا الاساس المتين ثم تأمل فيما صنع الحجاج بن يوسف وكيف أصلح ما فسد من العراق وأزال ما وقع بين أهله من الشقاق حتى جعل الجزيرة والحرمين أقرب الى طاعة الامويين من الشام ومصر . ثم انظر الى الدولة العباسية كيف قامت على أثر تلك الدولة بتدبير أبى مسلم رحمه الله وكيف عجز أبو جعفر بعد مقتله عن رد الفرس والاكراد الا بسياسة خالد البرمكى الذى ضمن له الكفاية عليهم بالرأى (٢) دون الجنود . وانظر الى دولة الرشيد كيف زهت فى وزارة البرامكة بما لم تزه به دولة (٣) الهادى ووزراؤه أغفال من آل الربيع . فهذه دول لم تزه بقوة الجند كما يسبق الى وهم الناس لانه لم يكن لابى مسلم من الرجال ما كان للملوك بنى أمية . ولم يكن للرشيد ما كان للهادى قبله . وانما كان المعزز لها رجال يرسلون من عقولهم على الناس أشعة كاشعة الشمس بها يستنيرون . وفي ضوئها يسيرون . ولا سيما هؤلاء البرامكة

(١) نذكر هنا انه ماتوطد للاسلام ملك فى أفريقيه الا في خلافة معاوية بن أبى سفيان (٢) ابن خلكان ١*١٤٩ (٣) الزمخشرى في ربيع الابرار

الامجاد الذين أحرم الرشيد دولته من مساهمتهم له فيها وتدبير شؤونها ولست أعلم ما يكون من أمره مع صهب السبال (١) ولقد قام به اليوم من الندم والاسف (٢) على جعفر والتلهف على ماسبق به القضاء مايشغله عن الدنيا قاطبة فقد أخبرني من هو مقرب اليه أنه يذكره لكل طلوع شمس . ويبكي عليه بتحرق نفس . ولا يستطيع الخلوة بنفسه على انفراد بعد مصرعه الا ان يكون عنده جماعة يلهو بمسامرتهم عما فرط منه في أمره (٣) واذا خلا مجلسه أمر الحجاب أن يدخلوا عليه من يجدونه من الندمان (٤) ليستأنس بهم ويتسلى بمنادمتهم عما هو فيه من البلاء وقد رأى خلل السياسة في دولته وكثرة الاراجيف .

فيما يتحدث به الناس من أسباب نكبة الرشيد للبرامكة

ولما كان الحديث عن هذه النكبة الفظيعة دائراً على ألسنة الناس اختلفت آراؤهم فيما دعا الرشيد اليها وان كانت خواطرهم متوافقة في لومه والبكاء على جعفر . فمن قائل انه نكبه وأهل بيته لاستبدادهم بأمر الدولة واحتجافهم أموال الجباية حتى لقد كان يطلب اليسير من المال فيما يزعمون فلا يصل اليه ومن قائل انه حنق على جعفر لتطاوله عليه في الكلام اذ كان يقول لي لئن لم يرجع الرشيد عن سوء ظنه بهم ليكونن

(١) هي لقب للروم (٢) الاغاني ١٧*٧٤ (٣) العقد الفريد ٣*٢٨ (٤) ابن خلكان ١*٣٢ وذكر غيره ان الرشيد كثيرا ما كان يوجه خادمه في طلب بعض خواص الدولة ومن يكون عندهم وقيما يطلبهم

ذلك وبالا سريعاً عليه(١) ومن قائل انه تنغض من الفضل ان يكون أكرم من أولاده ومن جعفر أن يكون أفصح منهم لسانا وأحكم سياسة ومن محمد أن يفضلهم في المروءة ومن موسى ان يغلبهم فى الشجاعة فنكبهم لذلك . ومن قائل انه مانكب جعفرا الا غشيانه العباسة أخت الرشيد (٢) ويروون لذلك من الاخبار أن الرشيد كان له مجلس معه بالليل فقال له ياجعفر لايطيب لى ذلك المجلس الا بحضر أختى العباسة ولكن لا يجوز لك النظر اليها الا بالعقد عليها على شريطة أن لاتقربها فيقولون انهما اتفقا على ذلك وأن الرشيد عقد له عليها وصارت تحضر كل ليلة الى أن بلغ عشقها لجعفر مبلغا عظيما فيزعمون انه كانت لجعفر امرأة تزين له الجوارى كل ليلة فجاءت اليها العباسة واستمالتها بالمال الى أن تزينها له وتدخلها عليه فى جملة جواريه ففعلت وظن جعفر انها جاريته فواقعها غير عالم انها العباسة فلما أصبحا قالت له أنا العباسة وقد كنت أسألك ان تساعدنى على مودتك فتأبى فلما أيست منك احتلت عليك بما رأيت فى هذه الليلة ولئن لم تواظب لأكونن سبباً فى زوال نعمتك وهل أنت الا زوجى فقال لها جعفر ويحك أهلكتنى وأهلكت نفسك فيزعم الذين يتناقلون هذه الحكاية انه لم يزرها بعد حتى ظهر أمرها للرشيد .

هـذا مايتحدث به العوام من أسباب نكبة الرشيد لهؤلاء الملوك

---

(١) الاتليدي ١٦٨ (٢) ابن الاثير ٦*٦٢ والفخري والاتليدي ١٦٥ وابن خلكان والدميري ٢*١٥٣ وأبوالفرج ٢٣٣ وأبوالفداء ٢*١٧ والمسعودي ٢*٢٢٥

الذين كانت تزهو بهم الايام وكانوا نكتة محاسن الدولة كما علمت . أما الخواص فينكرون خبر العباسة ليس لتنزيه جعفر عن المعصية بل لانه غير ممكن الوقوع (١) لمكان العباسة من جلالة القدر وشرف السلالة وابهة العباسيين الذين هم عظماء الدولة . ولو أنهم علموا شرف البرامكة في المنتمى (٢) واتصال أنسابهم بجدهم الاكبر في الفرس حتى ينتسق شرف نسبهم فى العجم انتساقا عظيما وأن العشق ميل يملك النفس حتى يرجع الى قسر الشهوة النفسانية لصاحبها ولا يبقى موضعا للمقامات والرتب ويخرج بصاحبه عن حد الاعتدال لما ظننتهم ينكرون هذا الامر من حيث يحاوزون القصد بل كانوا يجوّزون وقوعه ولو على بعد . وكنت أحسب من تداول بعض الاحاديث المتقدمة أن للرشيد يداً فى اشاعتها بين الناس ليعمى عليهم أمر البرامكة وانهم راحوا شهداء دعوة أهل البيت (٣) فليتمتع من الدنيا قليلا فان أيام الشباب فيه سريعة الزوال. دارسة الطلال

ويعلم في الحساب اذا التقينا غداً يوم النشور من الظلوم (٤)

ولست أطيل عليك الكلام فى أمر هؤلاء الملوك الذين رماهم الدهر بالارزاء وسحب عليهم أذيال الغناء . ولو أنى كتبت اليك غير ماذكرت لما بقى لدى الا البكاء والنحيب على أنى أحب ان أختم رسالتى اليك عنهم بذكر مأثرة من بعض ما صنعوا الى الورى من الجميل . وهى أن

---

(١) المقدمة ١٣ (٢) المسعودى (٣) الفخرى وأبو الفداء ٢*١٧ والدميري ٢*١٥٣ وابن خلدون وابن الاثير ٦*٦٢ (٤) الاتليدي ١٧٨

الرشيد (١) مع تشديده فى النهى عن رثائهم بلغه ان رجلا يحضر ليلاً الى دورهم وينشد أشعارا ويذكر محاسنهم ومآثرهم ويندبهم ويبكى عليهم ثم ينصرف فدعامسرورا هذا الخادم اللئيم وسارّه بالامر وأمره بأن يمضى تحت الليل حتى يرد تلك المنازل الدارسة التى كانت مظهر الانس بما آتى الله أهلها من سعة الملك وان يستتر خلف بعض الجدران هو واثنان من الخدم سماهما له وأظنهما ياسرا ومروان (٢) حتى اذا جاء ذلك الشيخ وبكى وندب وأنشد الاشعار قبضوا عليه وجاؤابه اليه . فأخذ مسرور الخادمين ومضى بهما آخر الليل الى تلك المنازل فاذا هم بغلام قد أقبل ومعهُ بساط وكرسىّ حديد وأقبل بعده شيخ له جمال وعليه مهابة وآثار نعمة فجلس على الكرسى وجعل يبكى وينتحب ويقول (٣)

ولما رأيت السيف جندل جعفرا　　ونادى مناد للخليفة فى يحي
بكيت على الدنيا وزاد تأسّفى　　عليهم وقلت الآن لا تنفع الدنيا

مع أبيات أطالها فلما فرغ قبضوا عليه وقالوا له أجب أمير المؤمنين ففزع فزعا شديدا وقال دعونى حتى أوصى بوصية فانى لا أوقن بعد اليوم بحياة ثم تقدم الى بعض الدكاكين واستفتح وأخذ ورقة وكتب فيها وصيته وسلمها لغلامه ثم سار به مسرور الى دار الرشيد فلما مثل بين يديه زجره وقال له من أنت وبم استوجب البرامكة منك ما تفعل في خربات دورهم فقال ياأمير المؤمنين ان للبرامكة أيادى خطيرة عندى أفتأذن لى أن

---

(١) هذه القصة قد وقعت للمأمون لا للرشيد وانما ذكرناها ههنا تتميماً لمحاسن البرامكة

أحدثك بحالى معهم قال قل فقال ياأمير المؤمنين أنا المنذر بن المغيرة من أولاد الملوك وقد زالت عنى نعمتى كما تزول عن الرجال فلما ركبنى الدين واحتجت الى بيع ماعلى رأسى ورؤس أهلى وبيتى الذى ولدت فيه أشاروا على بالخروج الى البرامكة فخرجت من دمشق ومعى نيف وثلاثون امرأة وصبياً وصبية وليس معنا ما يباع أو يوهب حتى دخلنا بغداد ونزلنا فى بعض المساجد فدعوت بثياب كنت أعددتها لاستتر بها فلبستها وخرجت وتركتهم جياعا لا شيء عندهم ودخلت شوارع بغداد فاذا بمسجد مزخرف وفى جانبه شيخ متزى بأحسن زىّ وزينة وعلى الباب خادمان وفى الجامع جماعة جلوس فطمعت في القوم ودخلت المسجد وجلست بين أيديهم وكنت أقدم رجلا وأؤخر أخرى والعرق يسيل منى لانها لم تكن صناعتى واذا بخادم قد أقبل ودعا القوم فقاموا وقمت معهم حتى دخلنا جميعا دار يحيى بن خالد واذا هو جالس على دكة فى وسط بستان فيه أطيب الرياحين فسلمنا عليه فرد علينا السلام وهو يعدّنا مائة وواحدا وبين يديه عشرة من ولده واذا بغلام أمرد قد عذر خداه قد أقبل من بعض المقاصير وبين يديه مائة خادم متمنطقون في أوساطهم بمنطقة من ذهب يقرب وزنها من ألف مثقال ومع كل واحد مجمرة من الذهب فى كل مجمرة قطعة من العود كهيئة الفهر قد قرن بها مثلها من العنبر فجلس الغلام بجانب يحيى ووضعت تلك المجامر بين يدى الغلام ثم قال يحيى للقاضى زوّج بنتي عائشة من ابن عمي هذا فخطب القاضي خطبة

النكاح وأجرى صيغة العقد وشهد أولئك الجماعة وأقبلوا علينا بالنثار من بنادق المسك والعنبر فالتقطت والله ياأمير المؤمنين ملئ كمى ونظرت فاذا الحاضرون بالمجلس مابين يحيي وأولاده والمشايخ والغلام مائة واثنى عشر رجلا واذا بمئة واثنى عشر خادما قد أقبلوا يحمل كل واحد منهم صينية من فضة عليها ألف دينار فوضعوا بين يدى كل واحد مناصينية فرأيت القاضى والمشايخ يصبون الدنانير في أكمامهم ويحملون الصوانى تحت آباطهم ويقوم واحداً بعد واحد حتى بقيت وحدى لاأجسر على أخذ الصينية فغمزنى خادم فجسرت على أخذها وجعلت الذهب فى كمى وأخذت الصينية بيدى ثم قمت وجعلت ألتفت خلفى مخافة أن أمنع من الذهاب فبينما أنا كذلك فى صحن الدار ويحيي يلحظنى اذ قال للخادم ائتنى بهذا الرجل فرددت اليه فأمرنى بصب الدنانير والصينية وما في كمى ثم قال اجلس فجلست فقال لى ممن الرجل ولم تلتفت خلفك فقصصت عليه قصتى فقال للخادم ائتنى بولدى موسى فأتى به فقال يابنىّ هذا رجل غريب فخذه اليك واحفظه بنفسك ونعمتك فقبض موسى علىّ وأدخلنى الى دار من دوره وأكرمنى غاية الاكرام وأقمت عنده يومى وليلتى فى ألذ عيش وأتم سرور فلما أصبح دعا أخاه محمدا وقال له ان الامير قد أمرنى بالعطف على هذا الرجل وغير خاف عليك اشتغالى اليوم في دار أمير المؤمنين فاقبضه اليك وحوطه بنعمتك ففعل ذلك وأكرمنى غايه الاكرام فلما كان من الغد تسلمني أخوه العباس فبتُّ

ليالى عنده بين غناء وأنوار وبهجة ثم تسلمنى أخوه خالد (١) ولم أزل في أيدى البرامكة يتداولوننى مدة عشرة أيام لاأعرف خبر عيالى وأهلى أفى الاموات هم أم فى الاحياء فلما كان اليوم الحادى عشر جاءنى خادم ومعه جماعة من الحشم والغلمان فقالوا لى قم واخرج الى عيالك بسلام فقلت واويلاه سلبت الدنانير والصينية وأخرج الى عيالى على هذه الحالة انا لله وانا اليه راجعون فرفع الستر الاول ثم الثانى ثم الثالث ثم الرابع ولما رفع الخادم الستر الاخير قال لى مهما يكن لك من حاجة فادفعها الىّ فانى مأمور بقضاء جميع ماتأمرنى به ثم بدت لى حجرة كالشمس بهاء واشراقا واستقبلنى منها رائحة الند والعود ونفحات المسك واذا بصبيانى وأهلى يتقلبون فى الحرير والديباج وحمل الى ألف ألف درهم وعشرة آلاف دينار ومنشوران بضيعتين من عمل السواد وتلك الصينية التى كنت أخذتها بما معها من الدنانير والبنادق وأقمت ياأمير المؤمنين مع البرامكة في دورهم ثلاثة عشرة سنة لايعلم الناس أمن البرامكة أنا ام رجل غريب اصطنعونى فلما نزلت بهم الفاجعات احجفنى عاملك على العراق وألزمنى في هاتين الضيعتين مالا يفى دخلهما به . ولما تحامل علىّ الدهر كنت فى آخر الليل اقصد منازلهم فأندبهم وأذكر حسن صنيعهم الىّ واشكر جميل عطفهم الىّ . فقال الرشيد كم اخذ منك هذا العامل قلت كذا وكذا قال هو مردود عليك وستبقى انت وعيالك من بعدك

(١) ذكره صاحب العقد الفريد ٣*٢٨ من أولاد يحيي بن خالد

على ما كان لك في ايام البرامكة . فعلا نحيب الرجل حتى كاد يقع من شدة الحزن فلما رأى الرشيد شدة بكائه قال له ياهذا قد احسنا اليك برد ماقد سُلب منك فما يبكيك فقال ياأمير المؤمنين وهذا ايضاً من صنائع البرامكة اذ لو لم آت منازلهم فأبكيهم وأندبهم حتى اتصل خبري بأمير المؤمنين وفعل بي مافعل فمن اين كنت أصل الى أمير المؤمنين فدمعت عينا الرشيد وظهر عليه الحزن وقال لعمري هذا من صنائع البرامكة فعليهم فابك واياهم فاشكر (١) ولله درّ ابي نواس حيث يقول في وداع الدنيا التي اوحشت لفقدهم

سلام على الدنيا اذا ما فقدتمُ   بني برمك من رائحين وغادِ (١)

خاتمة الكتاب

أودعت رسالتي اليوم اليك سطوراً قد كتبتها بدموع العين وأنا بين حزن على هؤلاء الشهداء . وخوف من الرشيد أن يعلمه بموضعي الرقباء . فيقطعني ماينالني منه عن الاستصراخ الى دعوتهم في خراسان وفارس وسائر بلاد الخير واليمن لاني علمت من بعض المقربين اليه انه يطلبني طلبا حثيثا وقد جعل لمن يأتيه بي مالا جزيلا وربما كان هذا الكتاب آخر عهدي بمراسلتك بعد اليوم .... وان كنت قد رأيت فيما تقدم اليك من الكتب السالفة أن العرب قد حصلوا في زماننا هذا مالم يختلج في صدورهم زمن الخلائف . ونبغوا النبغة التامة في جميع الفنون والصناعات

(١) الفخريّ والاتليدي ١٩٩ والابشيهي ١*٢٤٣ (٢) الوطواط ١١٣

والمعارف . وتبحروا في حكمة الروم والفرس على اجتهاد . ودونوا أصول الشريعة في مذاهب صحيحة المبدإ جميلة المعاد فانما الفضل فى ذلك كله عائد الى البرامكة وهم الذين رفعوا منار العلم وقربوا اليهم الادباء وأجزلوا أعطياتهم بالمال الكثير وكان عصرهم تاجا (١) على هامة الدهر ونورا أضاء به المشرق حتى انقلب من الضعة الى سمو الارتفاع . ومن عماية الجهل الى نور الاطلاع . فما هو عندى الا الزمن الذى يبقى محمودا عند العرب بالعلم والصلاح وكثرة الخير وسعة أسباب المعاش و لانتفاع بعلوم الاعاجم ومحاسن هؤلاء الملوك (٢) الذين كانوا جمال المشرق وحصن الاسلام وزينة العالم (٣) ومنعة هذه الدولة التى لم تقم من قبلهم الا بالحيل والمكايد فانك لتعلم أن الدعوة التى قام باعبائها أبو مسلم رحمه الله انما كانت لذرية النبي صلى الله عليه وسلم وهم أولاد الحسن والحسين رضى الله عنهم لم يكن للعباسيين غرض فى انضامهم اليها الا لمقارعة بنى أمية في جملة من انضم اليها من أهل البيوتات حتى اذا خدمهم السيف رأوا أن ينفردوا بالخلافة دونهم ويصرفوهم عنها بالحيلة التى كان يمزجها أبو جعفر باشتداده على العمال وظلم الرعية في الخراج (٣) حتى يوقع فيهم الفشل ويقعدهم عن الخروج عليه في دعوتهم فكان عظماء الملة يرون ذلك منه ولكنهم لم يروا ان يحملوا الامة على الخلاف ضنا بالنفوس الصالحة أن

---

(١) العقد الفريد والفخرى والسيوطى وابن خلكان (٢) الزمخشرى فى ربيع الابرار (٣) يقول الحصرى ٢*١٠٣ ان أيامهم كانت روض الازمنة

تسيل دماؤها فى قتال المسلمين بالمسلمين فثبت له الملك من هذا الوجه لم ينازعه فيه الا جماعات متفرقة من أهل الدعوة ومن كان لا يضمهم الغرض الى جامعة واحدة فى جميع الانحاء فلم يستطيعوا مقاومته ولا بلغوا من غرضهم به الا ان جعلوا له سبيلا الى غلب جماعة منهم بعد جماعة فلما مات وكان قد اعماه حب الولد حتى خلع ابن عمه عن ولاية العهد وصيرها للمهدىّ من بعده لم يكن في الناس الا من ينغص ذلك عليه فيما كانوا ينغصون عليه من الظلم وسياسة القتل فخاف الربيع ان تذهب الخلافة من ولده وله فى مصيرها الى المهدىّ مصلحة لا تكون له فى دولة غيره من اهل البيت ولا من العباسيين انفسهم ففتق له عقله تلك الحيلة التى تسارع اهل الحل والعقد الى تنفيذها خوفا من ابى جعفر لظنهم أنهُ حىٌّ لم يمت فلما استوثق له الامر استهل خلافته باستمالة الناس بالاحسان والمعروف حتى لا تنفر منه قلوبهم ولا يظنوا به متابعة لسيرة ابيه من الظلم والجبروت واقام لهم ديوان المظالم ورفع عنهم ضرائب الخراج ووسع لهم اسباب المعاملة بعد ماضاقت نفوسهم من اساءة ابيه اليهم حتى استمالهم لغرضه وصاروا طوع يمينه فلم يبق عليه بعد ذلك الا ان يأمن خروج اهل الدعوة فى جمع غير متفرق فرأى ان يستميل اليه الحرم الآمن وهو الموضع الذى ينادى فيه بالحقوق المقدسة لأربابها من أهل البيت ففرق فى أهله الاموال الجسام . ووالى على عامتهم جزيل الانعام . وجدد لهم بناء البيت الحرام وعهد الى عظمائهم بالولايات والامارات وأجرى الارزاق الواسعة على

من استخدم فى الجند من أولادهم كما علمت. فلما آلت الخلافة الى الهادى وصارت ارثاً فى بيت أبى جعفر رأى البرامكة برأيهم الصواب أن ليس للعلويين بعد ذلك كله مطمع في المشرق بازاء العباسيين الذين يستخدمون الحيلة من وراء السيف لقهر اخصامهم فانصرفوا عن تدبير أمر الحرمين لهم الى تمهيد الطريق لخلافتهم فى المغرب وراموا تعظيم دولة الرشيد بضم المشرق كله الى جناحه حتى ينصرف عن مقارعة أهل البيت فى أفريقية ويقنع بما دبّروا له من السلطان العظيم الذى لم يكن مثله لاحد من الخلفاء قبله فكان بعض ما أشاروا به عليه لتعميم هذا السلطان أن يأخذ الرعية باللين والعاطفة بعد ان أمنوه خروجهم في دعوة أهل البيت وبنى أمية وغيرهم فجرى على مارسموا له من سياسة الرفق والحلم برهة من الزمان ثم غلب عليه حبّ الاثرة فرجع الى العسف والغلظة واوقع بالناس من الشدة ماأصاب اقبحه من كان احب الناس اليه

هذه هى دولة العباسيين التى اشرقت شروق الشمس فى البهاء والعظمة وانها لتحتاج الى رجال عقلاء يديرون سياستها لانها لو سقطت على يد خليفته قليل الخبرة بأمور الملك لما قامت لها قائمة بعد ذلك اذ كانت دولة حيل ومكايد وكانت الحقوق فيها لاربابها من آل بيت النبي صلى الله عليه وسلم . فاليوم أترك الاسلام بين رايات خضر وسود وبيض فأما العلويون فانهم أهل البيت ومن لا تخرج محبتهم من قلوب المسلمين. وأما العباسيون فانهم حائزون على أمر المشرق وهم اهل سيف شديد الوطأة . واما

الامويون فانهم يرتقبون للخلافة من وراء البحار ويرومون اعادة الملك الذى ذهب من أيديهم بغفلة صبيانهم فى دمشق والمسلمون فى عرض ذلك يتمزقون بالفتن والشقاق فاذا كان هذا حال الدولة من العظمة وهى متفرقة على أغراض لا تضمها الى الوحدة فما الظن لو جمعتها عصبية الدين الى جامعة الاسلام ففى المسلمين ملوك عظام أحسبهم ينتبهون الى ما بهم من الانقسام. ويقيمون على أساس الجامعة دولة تهتز لها دول الروم والله يؤتى الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء لا اله الا هو رب العرش العظيم .

كلمة للمؤلف

هنا ينتهى الحديث الذي حكيته على لسان الرحالة في عصرٍ لم يدل بما ناله من عظمة الرشيد على ما صار اليه بعده من الانحطاط . فان الاغراض لم تزل كامنة فى النفوس حتى وقع التجزؤ فى الاسلام الى أن أتاح الله له رجوع صولته على يد السلاطين الظافرين من آل عثمان . وهم الذين جمعوا اليهم كلمة المسلمين وأقاموا على أساس الجامعة دولة تملك المشرقين والمغربين وتضم البرين والبحرين . لا زالت أيامهم محفوفة بالنصر المبين وسلاطينهم غرة في جبين السلاطين ما توالى الملوان وتعاقب القمران

الاسفار التى وجدت بين يدىّ وأسندت اليها رواية الرحّالة

علوم الدين والشرع

			سنة
الاتقان فى تفسير القرآن للسيوطى	طبع	بولاق	١٢٨٧
الاحكام السلطانية للماوردى	«	بن	١٨٥٣
رد المحتار على الدر المختار لابن عابدين	«	بولاق	١٢٨٦
مجمع الأنهر على ملتقى الابحر لشيخ زاده	«	القسطنطينية	١٢٧٦
شرح الزرقانى على موطأ الامام مالك	«	بولاق	١٢٧٩
كليات أبى البقاء	«	مصر	١٢٨٧

ومطالعات فى صحيح البخارى وتفسيرى الزمخشرى والبيضاوى

علم اللغة

صحاح الجوهرى . المحيط للفيروزابادى فقه اللغة للثعالبى

الممالك والبلدان

أحسن التقاسيم فى معرفة البلدان والاقاليم للمقدسى	«	ليدن	١٨٧٧
المسالك والممالك لابن حوقل	«	«	١٨٧٢
الرحلة (الى المشرق) لابن جبير	«	«	١٨٥٢
معجم البلدان لياقوت	«	ليبسيك	١٨٦٦
تقويم البلدان لابى الفداء	«	باريس	١٨٤٠
المسالك والممالك لابن خرداذبه	«	«	١٨٦٥
الفيض المديد فى النيل السعيد لأحمد المنوفى	«	«	١٨٣٧
مسالك الممالك للاصطخرى	«	ليدن	١٨٧٠
الخطط والآثار للمقريزى	«	بولاق	١٢٧٠
آثار مصر لعبد اللطيف	«	توبنك	١٧٨٩
نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق للادريسى	«	رومية	

تحفة النظار في عجائب الاسفار لابن بطوطة	طبع	باريس	١٨٥٣
أخبار العباد وآثار البلاد للقزويني	«	غوتنغين	١٨٤٨
جواهر البحور . ووقائع الدهور لابراهيم بن وصيف شاه		(خط)	
نشق الآثار . في عجائب الاقطار لمحمد بن اياس		(«)	

السير والاخبار وأيام الناس

الكامل لابن الاثير	«	بولاق	١٢٩٠
تاريخ الملوك واعمارهم للطبرى	«	ليدن	١٨٨٠
ديوان المبتدا والخبر لابن خلدون	«	بولاق	١٢٨٤
تاريخ أبي الفداء	«	القسطنطينية	١٢٨٦
الآداب السلطانية والدول الاسلامية للفخري	«	غريفزولد	١٨٥٨
مروج الذهب للمسعودى	«	بولاق	١٢٨٣
نفح الطيب فى غصن الأندلس الرطيب للمقرى	«	«	١٢٧٩
وفيات الاعيان لابن خلكان	«	«	١٢٧٥
تاريخ الدول لأبي الفرج الملطى	«	اكسفور	١٦٦٣
أخبار الدول والاسلام (الخميس)	«	بولاق	
تاريخ الخلفاء للسيوطى		(خط)	
الأنس الجليل في تاريخ المقدس والخليل للسيوطى	«	مصر	١٢٨٣
حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهره للسيوطى		مصر طبع حجر	
النجوم الزاهره . فى أخبار مصر والقاهره لابى المحاسن	«	ليدن	١٨٥١
اعلام الناس فيما وقع للبرامكة مع بنى العباس للاتليدي	«	بولاق	١٢٨٠
فتوح الشام للواقدى		(خط)	
آثار الأول للقرمانى	«	بولاق	١٢٩٠
فوات الوفيات لمحمد بن شاكر	«	«	١٢٨٢
العقد الفريد لابن عبد ربه	طبع	بولاق	١٢٨٣

المونس في أخبار أفريقية وتونس لابن أبي دينار	»	تونس	١٢٨٩
قضاة الشام لشرف الدين الانصاري		(خط)	
لطائف الاخبار الاول . فيمن تصرف في مصر من ارباب الدول . للاسحاقي		مصر	١٣٠٠
تحفة الناظرين. فيمن ولى مصر من السلاطين. للشرقاوي		مصر	١٣٠٠
مطالعات في ابن الوردي والازرقي وابن كتيبة			

العلوم الادبية

الفهرست لابي يعقوب الوراق			
حجى خلفه . كشف الظنون . عن العلوم والفنون	«	لندن	١٨٦٣
الاغاني لابي الفرج الاصبهاني	«	بولاق	١٢٨٥
المقدمة لابن خلدون	«	بيروت	١٨٧٩
المثل السائر لابن الاثير	«	بولاق	
أدب الدين والدنيا للماوردي	«	قسطنطينيه	١٢٩٩
حياة الحيوان للدميري	«	بولاق	١٢٧٥
عجائب المخلوقات للقزويني	«	كوتنكن	١٨٤٩
خزانة الأدب لابن حجه	«	بولاق	١٢٩١
مقامات الحريري	«	بيروت	
مجمع الامثال للميداني	«	بولاق	١٢٨٤
قلائد العقيان . للفتح بن خاقان	«	باريس	١٢٧٧
المستطرف في كل فن مستظرف للابشيهي	«	بولاق	١٢٧٩
نهج البلاغة للامام الامام على كرم الله وجهه	»	حجر	
طبقات الشعراء لأبي عبيدة		خط	
شرح لامية ابن الوردي للقناوي	»	مصر	١٢٧٨
سراج الملوك للطرطوشي	طبع	بولاق	١٢٧٩
الطبقات الكبرى للشعراني	»	»	١٢٨٦

مختصر كتاب الخراج لقدامة بن جعفر	»	باريس	١٢٦٢
الكنز المدفون . والفلك المشحون للسيوطي	»	بولاق	١٢٨٨
شرح مقامات الحريري للشريشي	»	»	١٢٨٤
الكشكول لبهاء الدين العاملي		(خط)	
يتيمة الدهر . في شعراء أهل العصر للثعالبي	»	دمشق	
زهر الآداب وثمر الالباب بهامش العقد الفريد للحصري			
غرر الخصائص الواضحة لأبي اسحق الوطواط	»	بولاق	١٢٨٤
سرح العيون لرسالة ابن زيدون لابن نباتة المصري		خط	
تزيين الاسواق . في أحوال العشاق لداود بن عمر	»	بولاق	١٢٩١
فاكهة الخلفاء لابن عمر شاه	»	الموصل	١٢٦٩
كتاب ألف ليلة وليلة	»	بولاق	١٢٥١
نور الابصار في مناقب آل بيت النبي المختار للشبلنجي	»	»	١٢٩٠
كليله ودمنه لابن المقفع	»	باريس	
حلبة الكميت لشمس الدين النواجي	»	بولاق	
الموازنة بين أبي تمام والبحتري	»	القسطنطينية	١٢٨٧
مطالعات في لطائف العرب وربيع الابرار للزمخشري وغير ذلك			



(تنبيه) في السطر الثاني من الصحيفة ٩٠ ست كلمات وقعت فيه زائدة وهي قوله « والتفريط فان مروان بخيل يضن بماله » وموضعها في السطر الذي بعده وقد ذكرت فيه

